

المجموعة الكاملة لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رَحِمَهُ اللهُ

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

① التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رَحِمَهُ اللهُ

تيسير الكريم الرحمن
في
تفسير كلام المنان

الجزء الأول
فيه تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَإِنَّ اللَّهَ فَطَرَهُ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ
وَلَقَدْ عَلَّمَهُ الْكَلِمَ
وَلَقَدْ عَلَّمَهُ الْكَلِمَ

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين.

وبعد: - فإن خدمة كتاب الله وتعلمه وتعليمه من أعظم القربات، وأجزلها مثوبة عند الله. كيف لا؟! وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، فجدير بالمسلمين أن يتمسكوا بمبادئه السامية، ويتحلوا بأدابه الكريمة سلوكاً ومنهجاً..؟!.

ولقد تنافس علماء السلف قديماً وحديثاً في تفسير هذا الكتاب وصار لكل منهم منهجه الخاص في ذلك - جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء. ومن أوضح تلك التفاسير، وأقربها فهماً على طلاب العلم، تفسير العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الموسوم بـ «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان».

فلقد أجاد فيه رحمه الله وانتهج منهجاً وسطاً بين التطويل الممل، والتقصير المخل، فكان بذلك مطابقاً لاسمه لفظاً ومعنى.

وقد قام بتصحيحه وتحقيقه وضبط كلماته الشيخ محمد زهري النجار من علماء الأزهر.

وحيث أن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد وهي رائدة الدعوة في هذه البلاد قد سعت إلى إعادة طبع هذا الكتاب وتوزيعه تقديراً منها لأهميته، وعظم شأنه، وكما هو شأنها في العمل على كل ما من شأنه خدمة الإسلام والمسلمين عن طريق نشر كتب التراث وكذلك الكتب الحديثة التي تهتم بأمور الإسلام والدود عنه وتوضح مبادئه وتشرح قضاياها علاوة على ترجمة وطباعة الكتب الإسلامية بلغات أجنبية عديدة من أجل تيسير فهم الإسلام ونشره في أنحاء المعمورة.

ولهذا فقد قررت - الرئاسة - طباعة هذا الكتاب على نفقتها وتوزيعه مجاناً على

طلبة العلم وذلك بعد أن حصلت على موافقة خطية من ابن المؤلف الشيخ عبد الله ابن عبد الرحمن السعدي.

وقد ندبت مجموعة من العاملين لديها لتصحيح بعض أخطائه المطبعية وإظهار بعض الكلمات الخفية التي قد أثر عليها طول الزمن وذلك مساهمة منها في نشر العلم.

والرئاسة إذ تقدم هذا الكتاب في طبعته الجديدة لترجو من المسلمين أن يهتموا بنشر تراثهم في كافة أنحاء العالم مساهمة منهم في نشر الدعوة. نسأل الله تعالى أن يعيد مجد المسلمين وعزهم إنه جواد كريم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرئاسة العامة
لإدارات البحوث العلمية والإفتاء
والدعوة والإرشاد

ترجمة المؤلف

بقلم أحد تلاميذه

هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدى من قبيلة تميم ، ولد في بلدة عنيزة في القصيم ، وذلك بتاريخ ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية ، وتوفيت أمه وله أربع سنين ، وتوفي والده وله سبع سنين ، فتربى يتيماً ، ولكنه نشأ نشأة حسنة ، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشديدة في العلوم ، وقد قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب ، وأتقنه وعمره أحد عشر سنة ، ثم اشتغل في التعلم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء ، فاجتهد وجد حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم ، ولما بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويعلم ، ويقضي جميع أوقاته في ذلك ، حتى أنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار للتدريس ببلده راجعاً إليه ؛ ومعول جميع الطلبة في التعلم عليه .

بعض مشايخ المؤلف

أخذ عن الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر ، وهو أول من قرأ عليه ، وكان المؤلف يصف شيخه بحفظه للحديث ، ويتحدث عن ورعه ومحبته للفقراء ومواساتهم ، وكثيراً ما يأتيه الفقير في اليوم الشاق فيخلع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مع حاجته إليه ، وقلة ذات يده رحمه الله ، ومن مشايخ المؤلف الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل ، قرأ عليه في الفقه وعلوم العربية وغيرهما ، ومنهم الشيخ صالح بن عثمان القاضي (قاضي عنيزة) قرأ عليه في التوحيد والتفسير والفقه أصوله وفروعه وعلوم العربية ، وهو أكثر من قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتى توفي رحمه الله ، ومنهم الشيخ عبد الله بن عايض ، ومنهم الشيخ صعب القويجري ، ومنهم الشيخ علي السناني ومنهم الشيخ علي الناصر أبو وادي ، قرأ عليه في الحديث ، وأخذ عنه الأمهات الست وغيرها وأجازته في ذلك ، ومنهم

الشيخ محمد بن الشيخ عبد العزيز المحمد المانع (مدير المعارف في المملكة العربية السعودية) في وقتنا الحالي ، وقد قرأ عليه المؤلف في عنيزة ؛ ومن مشائخه الشيخ محمد الشنقطي (نزيل الحجاز قديماً ثم الزبير) لما قدم عنيزه وجلس فيها للتدريس قرأ عليه المؤلف في التفسير والحديث ومصطلح الحديث وعلوم العربية ، كالنحو والصرف ونحوهما .

نبذة من أخلاق المؤلف

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة ، متواضعاً للصغير والكبير والغني والفقير ، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم نادياً علمياً ، حيث أنه يحرص أن يحتوي على البحوث العلمية والاجتماعية ويحصل لأهل المجلس فوائد عظيمة من هذه البحوث النافعة التي يشغل وقتهم فيها ، فتقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية ، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه ، ويبحث معه في المواضيع النافعة له دنيا وأخرى ، وكثيراً ما يحل المشاكل برضاء الطرفين في الصلح العادل ، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء ماداً يد المساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات ، وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والتراثة والحزم في كل أعماله ؛ وكان من أحسن الناس تعليماً وأبلغهم تفهيماً ، مرتباً لأوقات التعليم ، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المحصلين لشحذ أفكارهم ، ويجعل الجعل لمن يحفظ بعض المتون ؛ وكل من حفظه أعطى الجعل ولا يحرم منه أحد . ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة ، ويرجع ما عليه رغبة أكثرهم ومع التساوي يكون هو الحكم ، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال ، لأنهم يثلثون من مجالسته ، ولذا حصل له من التلاميذ المحصلين عدد كثير ولا يزال كذلك ، منع الله بحياته ؛ وبارك الله لنا وله في الأوقات ورزقنا وإياه التروء من الباقيات الصالحات .

مكانة المؤلف بالمعلومات

كان ذا معرفة تامة في الفقه ، أصوله وفروعه . وفي أول أمره متمسكاً بالمذهب الحنبلي تبعاً لمشائخه ، وحفظ بعض المتون من ذلك ، وكان له مصنف في أول أمره في الفقه ، نظم رَجَز نحو أربعمائة بيت وشرحه شرحاً مختصراً ، ولكنه لم يرغب ظهوره لأنه على ما يعتقدُه أولاً .

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الاسلام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم ، وحصل له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة ، وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي ؛ بل يرجح ما ترجح عنده بالدليل الشرعي . ولا يطعن في علماء المذاهب كبعض المتهوسين ، هداانا الله وإياهم للصواب والصراط المستبين . وله اليد الطولى في التفسير ، إذ قرأ عدة تفاسير وبرع فيه ، وألف تفسيراً جليلاً في عدة مجلدات ، فسرّه بالبدية من غير أن يكون عنده وقت التصنيف كتاب تفسير ولا غيره ، ودائماً يقرأ والتلاميذ في القرآن الكريم ويفسره ارتجالاً ، ويستطرد ويبين من معاني القرآن وفوائده ؛ ويستنبط منه القوائد البديعة والمعاني الجليلة ، حتى أن سامعه يود أن لا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسعه في سياق الأدلة والقصص ، ومن اجتمع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته في المعلومات ، وكذلك من قرأ مصنفاته وفتاويه .

مصنفات المؤلف

١ - تفسير القرآن الكريم المسمى « تيسير الكريم المنان » في ثمانى مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤ ولم يطبع .

٢ - حاشية على الفقه استدراكاً على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي . ولم تطبع .

٣ - إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب ، رتبته على السؤال والجواب ، طبع بمطبعة الترقى في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزعه مجاناً .

٤ - الدرة المختصرة في محاسن الاسلام . طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦ هـ .

٥ - الخطب العصرية القيمة ، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمة التي يحتاج الناس إليها ، ثم جمعها وطبعها مع الدرة المختصرة في مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجاناً .

٦ - القواعد الحسان لتفسير القرآن ، طبعها في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦ . ووزع مجاناً .

٧ - تنزيه الدين وحملته ورجاله ، مما افتراه القسيمي في أغلاله ، طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقه وجيه الحجاز « الشيخ محمد افندي نصيف » عام ١٣٦٦ .

٨ - الحق الواضح المبين ، في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين .

٩ - توضيح الكافية الشافية . وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم .

١٠ - وجوب التعاون بين المسلمين ، وموضوع الجهاد الديني ، وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجاناً .

١١ - القول السديد في مقاصد التوحيد ، طبع في مصر « بمطبعة الامام »
على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام ١٣٦٧ .

١٢ - مختصر في أصول الفقه ، لم يطبع .

١٣ - تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن . طبع على نفقة
المؤلف وجماعة من المحسنين ، وزع مجاناً . طبع بمطبعة الامام .

١٤ - الرياض الناضرة ، وهو هذا - طبع بمطبعة الامام (الطبعة الاولى) .

وله فوائد مثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيره
ويجيب عليها ، وله تعليقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب . وكانت
الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً ، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً .
ومما كتب نظم ابن عبد القوي المشهور ؛ وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلاً فراه
شاقاً عليه ؛ فجمع بينه وبين الانصاف بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح
له ؛ ولهذا لم نعهده من مصنفاته .

غايته من التصنيف :

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق ، ولهذا
يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته ، لا ينال منها عرضاً زائلاً ،
أو يستفيد منها عرض الدنيا ، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها . فجزاه الله عن
الاسلام والمسلمين خيراً ، ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه .

وفاته :

وبعد عمر طويل دام قرابة ٦٩ عاماً في خدمة العلم انتقل إلى جوار ربه
في عام ١٣٧٦ هـ في مدينة عنيزة من بلاد القصيم رحمه الله رحمة واسعة .

تنبيه

اعلم أن طريقي في هذا التفسير أنى أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها ، ولا أكتفى بذكرى ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة ، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه « مثاني » ثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضع النافعة لحكم عظيمة ، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف ، وصالح الظاهر والباطن ، وإصلاح الأمور كلها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام ،
والسعداء والأشقياء ، والحق والباطل .

وجعله - برحمته - هدى للناس عموماً ، وللمتقين خصوصاً - من ضلال
الكفر ، والمعاصى والجهل ، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم .

وأنزله شفاء للصدور ، من أمراض الشبهات والشهوات ، ويحصل به
اليقين والعلم ، فى المطالب العاليات ، وشفاء للأبدان من أمراضها ، وعلاها ،
وآلامها ، وأسقامها .

وأخبر أنه لا ريب فيه ، ولا شك ، بوجه من الوجوه ، وذلك لاشتماله
على الحق العظيم ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه .

وأنزله مباركاً ، فيه الخير الكثير ، والعلم الغزير ، والأسرار البديعة ،
والمطالب الرفيعة .

فكل بركة وسعادة تنال فى الدنيا والآخرة ، فسيبها الاهتمام به واتباعه .
وأخبر أنه مصدق ومهيمن ، على الكتب السابقة .

فما شهد له ، فهو الحق ، وما رده فهو الردود لأنه تضمنها وزاد عليها .
وقال تعالى فيه : [يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام] .

فهو هادٍ لدار السلام ، مبين لطريق الوصول إليها ، وحات عليها ،
كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذر عنها .

وقال تعالى مخبراً عنه : [كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير] .
فبين آياته أكل تبيين ، وأتقنها أى إتيان ، وفصلها بتمييز الحق
من الباطل ، والرشد من الضلال ، تفصيلاً كاشفاً للبس ، لكونه صادراً
من حكيم خبير .

فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين ، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر .
ولا ينهى إلا عن المضار الدنيوية والدنيوية .

وأقسم تعالى بالقرآن ، ووصفه بأنه « مجيد » والمجد : سعة الأوصاف
وعظمتها ، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها .

ووصفه بأنه « ذو الذكر » أى : يتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق
الجميلة والأعمال الصالحة ، ويتعظ به من يخشى .

وقال تعالى : [إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون] ، وأنزله بهذا
اللسان لعقله وفهمه ، وأمرنا بتدبره ، والتفكير فيه ، والاستنباط لعلومه .
وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير ، محصل للعلوم والأسرار .

فله الحمد والشكر والثناء ، على أن جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة
ونوراً ، وتبصرة وتذكرة ، وعبرة وبركة ، وهدى وبشرى للمسلمين .

فإذا علم هذا ، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاعتداء بها :
وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه
بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك .

وقد كثرت تفاسير الأئمة ، رحمهم الله ، لكتاب الله .

فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود ، ومن مقتصر ، يقتصر على حل بعض الألفاظ المغوية ، بقطع النظر عن المراد .

وكان الذي ينبغي في ذلك ، أن يجعل المعنى ، هو المقصود ، واللفظ وسيلة إليه .
فينظر في سياق الكلام ، وما سيق لأجله ، ويقابل بينه وبين نظيره ، في موضع آخر ؛ ويعرف أنه سبق لهداية الخلق كلهم ، عالمهم وجاهلهم ، حضريهم وبدويهم .

فالنظر لسياق الآيات ، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه ، وقت نزوله ، من أعظم ما يعين على معرفته ، وفهم المراد منه .
خصوصاً إذا انضم إلى ذلك ، معرفة علوم العربية ، على اختلاف أنواعها .
فمن وفق لذلك ، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ، ولوازمها ، وما تتضمنه ، وما تدل عليه ، منطوقاً ومنهوماً .
فإذا بذل وسعه في ذلك ، فالرب أكرم من عبده ، فلا بد أن يفتح عليه من علومه ، أموراً لا تدخل تحت كسبه .

ولما منَّ الباري على وعلى إخواني ، بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا ، أحبت أن أرسم من تفسير كتاب الله ، ما تيسر ، وما من به الله علينا ، ليكون تذكرة المحصلين ، وآلة للمستبصرين ، ومعونة للسالكين ، ولأقيد^(١) خوف الضياع .

ولم يكن قصدي في ذلك ، إلا أن يكون المعنى ، هو المقصود .
ولم أشتغل في حل الألفاظ والمعقود ، للمعنى الذي ذكرت .

(١) كذا في الأصل والصواب أن يقال : « وقيدته » .

ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم ، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً .

والله أرجو ، وعليه أعتمد ، أن يسر ما قصدت ، ويذل ما أردت ،
فإنه ، إن لم يسر الله ، فلا سبيل إلى حصوله ، وإن لم يعن عليه ، فلا طريق
إلى نيل العبد مأموله .

وأسأله تعالى ، أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به النفع
العميم ، إنه جواد كريم . اللهم صل على محمد .

فوائد مهمة — تتعلق بتفسير القرآن

من بِذَائِعِ الْفَوَائِدِ

لابن القيم رحمه الله تعالى

(فصل)

قال : النكرة في سياق النفي تعم ، مستفاد من قوله تعالى : [ولا يظلم ربك أحداً ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين] .
وفي الاستنهام من قوله تعالى : [هل تعلم له سمياً] .
وفي الشرط من قوله : [فإما ترين من البشر أحداً] .
[وإن أحد من المشركين استجارك] .
وفي النهي من قوله تعالى : [ولا يلتفت منكم أحد] .
وفي سياق الإثبات ، بعموم العاة والمقتضى قوله : [علمت نفس ما أحضرت] .

وإذا أضيف إليها « كل » نحو [وجاءت كل نفس معها سائق وشبيد] .
ومن عمومها بعموم المقتضى [ونفس وما سواها] .

(فصل)

ويستفاد عموم المفرد المحلى باللام من قوله : [إن الإنسان لفي خسر]
وقوله : [ويقول الكافر] .

وعوم المفرد المضاف من قوله : [وصدقت بكلمات ربها وكتبه] ،
[وكتابه] .

قرأ أهل البصرة وحفص [وكتبه] على الجمع .

وقرأ الآخرون [وكتباه] على التوحيد .

وقوله : [هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق] والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم .

وعوم الجمع المحلى باللام من قوله : [وإذا الرسل أقتت] .

وقوله : [وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم] .

وقوله تعالى : [إن المسلمين والمسلمات] إلى آخرها .

والمضاف من قوله : [كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله] .

وعوم أدوات الشرط من قوله تعالى : [فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً] .

وقال : [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره] .

وقال : [وما تفعلوا من خير يعلمه الله] .

وقوله : [أينما تكونوا يدرككم الموت] .

وقوله : [وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره] .

وقوله : [وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم] .

وقوله : [وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم]

على نفسه الرحمة [هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين .

فإن كان خبراً ماضياً ، لم يلزم العموم كقوله : [وإذا رأو تجارة أو لهواً]

انفضوا إليها [] إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله [.

وإن كان مستقبلاً ، فالتزموا رد العموم كقوله تعالى : [وإذا كلوم]

أو وزنوم يخسرون [.

وقوله : [وإذا مروا بهم يتغامزون] وقوله : [إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون] .

وقد لا يعم كقوله تعالى : [وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم]

(فصل)

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب ، من ذمه لمن خالفه ، وتسميته إياه عاصياً ، وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل .

ويستفاد كون النهى للتحريم ، من ذمه لمن ارتكبه ، وتسميته عاصياً ، وترتيبه العقاب على فعله .

ويستفاد الوجوب ، بالأمر تارة ، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب ، ولفظة « على » ، ولفظة « حق على العباد وعلى المؤمنين » .

ويستفاد التحريم من النهى ، والتصريح بالتحريم والحظر ، والوعيد على الفعل ، وذم الفاعل ، وإيجاب الكفارة بالفعل .

وقوله : « لا ينبغي » فإنها - في لغة القرآن والرسول - للمنع عقلاً وشرعاً . ولفظة « ما كان لهم كذا وكذا » و « لم يكن لهم » ، وترتيب الجدل على الفعل ، ولفظة « لا يحل » و « لا يصلح » ، ووصف الفعل بأنه فساد ، وأنه من تزوين الشيطان وعمله ، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده ، ولا يتركى فاعله ، ولا يكلمه ، ولا ينظر إليه ونحو ذلك .

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير ، والأمر بعد الحظر ، ونفي الجناح والخرج ، والإثم والمؤاخذه ، والإخبار بأنه يفتو عنه ، والإقرار على فعله في زمن الوحي ، وبالإلنكار على من حرم الشيء ، والإخبار بأنه خلق لنا

كذا وجعله لنا ، وامتنانه علينا به ، وإخباره عن فعل من قبلنا ،
غير ذام لهم عليه .

فإن اقترن بإخباره مدح ، دل على رجحانه ، استحباباً ، أو وجوباً .

(فصل)

وكل فعل عظمه الله ورسوله ، أو مدحه ، أو مدح فاعله لأجله ،
أو فرح به ، أو أحبه ، أو أحب فاعله ، أو رضى به ، أو رضى عن فاعله ،
أو وصفه بالطيب ، أو البركة ، أو الحسن ، أو نصبه سبباً لمحبه أو ثوابه ،
عاجلاً أو آجلاً ، أو نصبه سبباً لذكره لعبده ، أو لشكره له ، أو لهدايته إياه ،
أو لإرضاء فاعله ، ووصف فاعليه بالطيب ، أو وصف الفعل بأنه معروف ،
أو نفي الحزن والخوف عن فاعله ، أو وعده بالأمن ، أو نصبه سبباً لولايته ،
أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله ، أو وصفه بكونه قربة ، أو أقسم به
أو بفاعله ، كاقسم بخيل المجاهدين وإثارتها أو ضحك الرب جل جلاله عن
فاعله ، أو عجب به - فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب .

(فصل)

وكل فعل طلب الشارع تركه ، أو ذم فاعله ، أو عاب عليه ، أو مقت
فاعله ، أو لعنه ، أو نفي محبته إياه ، أو محبة فاعله ، أو نفي الرضا به ،
أو الرضا عن فاعله ، أو شبه فاعله بالبهايم أو الشياطين ، أو جعله مانعاً
من الهدى ، أو وصفه بسوء أو كراهة ، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه ،
أو جعل سبباً لنفي الفلاح ، أو لعذاب عاجل أو آجل ، أو لدم أو لوم ،
أو ضلالة أو منصية ، أو وصفه بالخبث ، أو رجس ، أو نجس ، أو بكونه
فسقاً أو إثماً ، أو سبباً لإنم أو رجس ، أو لعن أو غضب ، أو زوال نعمة ،

أو حلول نقمة ، أو حد من الحدود ، أو قسوة ، أو خزي ، أو ارتهان
نفس ، أو لعداوة الله ومحاربتة ، أو الاستهزاء به وسخريته ، أو جعله سبباً
لنسيانه لفاعله ، أو وصف نفسه بالصبر عليه ، أو الحلم عنه ، أو الصفع ،
أو دعا إلى التوبة منه ، أو وصف فاعله بـجُبْث أو احتقار ، أو نسبة إلى
الشیطان وتزيينه ، أو تولى الشيطان لفاعله ، أو وصفه بصفة ذم ، مثل كونه
ظلاماً أو بغياً ، أو عدواناً أو إثمًا ، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله ،
أو شكوا إلى الله من فاعله ، أو جاهروا فاعله بالعداوة ، أو نصب سبباً
خلبية لفاعله ، عاجلاً أو آجلاً ، أو رتب عليه حرمان الجنة ، أو وصف فاعله
بأنه عدو لله ، أو الله عدوه ، أو أعلن^(١) فاعله بحرب من الله ورسوله أو حمل
فاعله إثم غيره ، أو قيل فيه « لا ينبغي هذا » أو « لا يصلح » أو أمر
بالتقوى عند السؤال عنه ، أو أمر بفعل يضاده ، أو هجر فاعله ، أو تلا عن
فاعله في الآخرة ، أو تبرأ بعضهم من بعض ، أو وصف فاعله بالضلالة ،
أو أنه « ليس من الله في شيء » أو أنه ليس من الرسول وأصحابه ، أو قرن
بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنه بخبر واحد ، أو جعل اجتنابه سبباً
للفلاح ، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين ، أو قيل لفاعله
« هل أنت منته » أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله ، أو رتب عليه إبعاد ،
أو طرد أو لفظة « قتل من فعله » ، أو « قاتل الله من فعله » ، أو أخبر
أن فاعله « لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه » أو أن الله
لا يصلح عمله ، ولا يهدي كيده ، أو أن فاعله لا يفاح ، ولا يكون يوم القيامة
من الشهداء ولا من الشفعاء ، أو أن الله يغار من فعله ، أو نبه على وجه
للفسدة فيه ، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً ، أو أخبر أن

(١) في الأصل (أعلم) وهو تحريف .

من فعله قيص له الشيطان فهو له قرين ، أو جعل الفعل سبباً لإزاحة قلب فاعله ، أو صرفه عن آياته وفهم آلائه ، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل « لم فعل » نحو :

[لم تصدون عن سبيل الله من آمن] ، [لم تلبسون الحق بالباطل] ، [ما منعك أن تسجد] ، [لم تقولون ما لا تفعلون] ما لم يقتزن به جواب من السؤال فإذا قرن به جواب ، كان بحسب جوابه .

فهذا ونحوه ، يدل على المنفع من الفعل ، ودلالته على التحريم أطرده (١) من دلالته على مجرد الكراهة .

وأما لفظة يكرهه الله ورسوله ، أو مكروهه - فأكثر ما يستعمل في المحرم ، وقد يستعمل في كراهه التنزيه .

وأما لفظة « وأما أنا ، فلا أفعل » فالحقق منه الكراهة كقوله « أما أنا فلا آكل متـكثراً » .

وأما لفظة « ما يكون لك » و « ما يكون لنا » فاطرده (٢) استعمالها في المحرم نحو [ما يكون لك أن تتكبر فيها] ، [ما يكون لنا أن نعود فيها] ، [ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق] .

(فصل)

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال ، ورفع الجناح ، والإذن ، والعفو ، و « إن شئت فافعل » و « إن شئت فلا تفعل » ، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع ، وما يتعلق من الأفعال نحو :

(١) اطرده . أى : أنسب لجريانه على قواعد اللغة والأصول .

(٢) فاطرده . أى : جرى على قاعدة لا شذوذ فيها .

[ومن أوصافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين] ونحو
وبالنجم هم يهتدون].

ومن السكوت عن التحريم ، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي .

فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عجب ربك من شاب
ليست له صبوة» ونحوه ، قد يدل على بغض الفعل كقوله :

[وإن تعجب فعجب قولهم] وقوله : [بل عجت ويسخرون] .

وقوله : [وكيف تكفرون وأتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله] .

وقد يدل على امتناع الحكم ، وعدم حسنه كقوله : [كيف يكون
للمشركين عهد عند الله] .

ويدل على حسن المنع منه قدراً ، وأنه لا يليق به فعله كقوله تعالى :
[كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم] .

فائدة

نفي التساوى في كتاب الله ، قد يأتي بين الفعلين كقوله تعالى :
[أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم
الآخر] الآية .

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله : [لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير
أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله] .

وقد يأتي بين الجزأين كقوله : [لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة] .

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى :

[وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور] الآيات .

فائدة

ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور :

التذكير ، والوعظ ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب
المراد للعقل ، وتصويره في صورة المحسوس ، بحيث تكون نسبته للعقل ،
كنسبة المحسوس إلى الحس .

وتأتى أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ،
وعلى الثواب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر ، وإبطال أمر .

فائدة

السياق يرشد إلى بيان الجمل ، وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال
غير المراد ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتنوع الدلالة ، وهو من
أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظره ، وغالط
في مناظرته .

فانظر إلى قوله [ذق إنك أنت العزيز الكريم] كيف تجد سياقه يدل
على أنه الدليل الحتير .

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد .

منها : أن يكون توطئة وتقدمة لإبطال ما بعده .

ومنها : أن يكون موعظة وتذكيرة .

ومنها : أن يكون شاهداً على ما أخبر به ، من توحيده ، وصدق

رسوله ، وإحياء الموتى .

ومنها : أن يذكر في معرض الامتنان .
ومنها : أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ .
ومنها : أن يذكر في معرض المدح أو الذم .
ومنها : أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه . وغير ذلك
من الفوائد . انتهى كلامه رحمه الله . وهو في غاية النفاسة ، والاشتغال على
كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن ، فجزاه الله خيراً .
قلت : وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت :
فمنها : ضرب الأمثال ، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها .
ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة ، وفي ذلك فوائد عديدة :
منها : أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير ، تدل على محبة الله
ورضاه ، وأنها محمودة .
والصفات التي يوصف بها أهل الشر ، تدل على بغض الله لها ،
وأنها مذمومة .
ومنها : ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عبادته ، فهو ثواب
معجل ، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة ، فيكون عقاباً معجلاً .
ومنها : أن فيه حثاً للنفوس ، على الاقتداء بأهل الخير ، ومنافستهم ،
وتنشيط العمال على الأعمال ، ببيان أن من عملها فهو من أولياء الله .
وفيه الترهيب عن أفعال أهل الشر ، وتبغيض المعاصي التي أثرت مع
عاملها ما أثرت .
ومنها : الاعتبار بصفات أهل الخير والشر ، وأن من فعل مثل فعلهم ،
نال ما نالهم .
وقد حث تعالى على الاعتبار ، في غير موضع من كتابه .

وحقيقة : العبور من شيء إلى شيء ، وقياس الشيء على نظيره .
ومنها : أن العبد إذا نظر إلى أعمال أهل الخير ، وعجزه عن القيام بها ، أوجب له ذلك ، الإزار على نفسه واحتقارها .
وهذا هو عين صلاحه ، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر ، هو عين فساده ، إلى غير ذلك من الفوائد .
ومنها : ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله ، وتقديسه عن النقائص ، وفي ذلك فوائد عظيمة .
ومنها : أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق .
فالاشتغال بفهمه ، والبحث التام عنه ، اشتغال بأعلى المطالب ، وحصوله للعبد من أشرف الواهب .
ومنها : أن معرفة الله تعالى ، تدعو إلى محبته وخشيته ، وخوفه ، ورجائه ، وإخلاص العمل له ، وهذا عين سعادة العبد ، ولا سبيل إلى معرفة الله ، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته ، والنفقة في فهم معانيها .
وقد اشتمل القرآن من ذلك ، على ما لم يشتمل عليه غيره ، من تفاصيل ذلك وتوضيحها ، والتعرف بها إلى عباده ، وتعريفهم لنفسه ، كي يعرفوه .
ومنها : أن الله خلق الخلق ، ليعرفوه ويعبدوه ، وهذا هو الغاية المطلوبة منهم .
فالاشتغال بذلك ، اشتغال بما خلق له العبد ، وتركه وتضييعه ، إهمال لما خلق له .
وقبيح عبث ، لم تزل نعم الله عليه متواترة ، وفضله عليه عظيم من كل وجه ، أن يكون جاهلاً بربه ، معرضاً عن معرفته .

ومنها : أن أحد أركان الإيمان ، بل أفضلها وأصلها ، الإيمان بالله .
وليس الإيمان مجرد قوله : « آمنت بالله » من غير معرفته بربه .
بل حقيقة الإيمان ، أن يعرف الرب الذى يؤمن به ، ويبدل جهده
فى معرفة أسمائه وصفاته ، حتى يبلغ درجة اليقين .
وبحسب معرفته بربه ، يكون إيمانه ، فكلما ازداد معرفة بربه ، ازداد
إيمانه ، وكلما نقص ، نقص .
وأقرب طريق يوصله إلى ذلك ، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن .
والطريق (١) فى ذلك ، إذا مر به اسم من أسماء الله ، أن يثبت له ذلك
المعنى وكاله وعمومه ، وينزهه عما يضاد ذلك .
ومنها : أن العلم به تعالى ، أصل الأشياء كلها .
حتى إن العارف به حقيقة المعرفة ، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله ،
على ما يفعله ، وعلى ما يشرعه من الأحكام ، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى
أسمائه وصفاته ، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة .
وكذلك ، لا يشرع ما يشرعه من الأحكام ، إلا على حسب ما اقتضاه
حمده وحكمته ، وفضله وعدله .
فأخباره كلها حق وصدق ، وأوامره ونواهيه ، عدل وحكمة .

(١) قوله : (والطريق الخ) يريد أن المؤمن إذا طرق سمعه اسم من
أسمائه تعالى أو صفة من صفاته أن يثبت لله ذلك المعنى بكاله على وجه
العموم مع اعتقاد أن كمال الله لا تحيط به العقول كما أنه سبحانه منزّه عن
النقائص مهما استصغرتها العقول ، فالنقائص - صغيرها وكبيرها - بعيدة
عن الله كل البعد فلا بد من إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل .

وهذا العلم ، أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه :
وكيف يسح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل
ومنها : ذكر الأنبياء والمرسلين ، وما أرسلوا به ، وما جرى لهم
مع أممهم .

وفي ذلك عدة فوائد :

منها : أن من تمام الإيمان بهم ، معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم .
وكلا كان المؤمن بذلك أعرف ، كلن أعظم إيماناً بهم ، ومحبة لهم ،
وتعظيماً لهم ، وتعزيراً وتوقيراً .

ومنها : أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد صلى الله عليه
وسلم - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة ، ولا سبيل لذلك ، إلا بمعرفة أحوالهم .
ومنها : أن معرفة الأنبياء ، موجهة لشكر الله تعالى على ما من به على
المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا منهم ، يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ،
بعد أن كانوا في ضلال مبين .

ومنها : أن الرسل هم الربون للمؤمنين ، الذين ما نال المؤمنون مثقال ذرة
من الخير ، ولا اذفع عنهم مثقال ذرة من الشر ، إلا على أيديهم وبسببهم .
فقيح بالمؤمن ، أن يحهل حالة مربييه ومزكيه ومعلمه .

وإذا كان من المستنكر ، جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك ،
فكيف بحالة الرسول ، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو أبوم
الحقيقي ، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى ؟ !

ومنها : أن في معرفة ما جرى لهم ، وجرى عليهم ، تحصل للمؤمنين
الأسوة والقودة ، ويخف عنهم كثير من المقلقات والمزعجات ، لأنها مهما
بلغت من الثقل والشدة ، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء .

قال تعالى : [لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة] .

ومن أعظم الاقتداء ، الاقتداء بتعليماتهم ، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق ، والصبر على التعليم ، والدعوة إلى الله بالحكمة والوعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، وبهذا وأمثاله ، كان العلماء ورثة الأنبياء . ومن فوائد معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى .

والمراد منها ، موقوف على معرفة أصول الرسول ، وسيرته مع قومه وأصحابه ، وغيرهم من الناس ، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، تختلف اختلافاً كثيراً .

فلو أراد الإنسان أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن ، من دون معرفة منه لذلك ، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله ، وعلى مراد الله من كلامه ، شيء كثير .

وهذا إنما يعرفه ، من عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله ، على العرف الحادث ، فوق الخلل الكثير ، ولغير ذلك من الفوائد المفيدة ، والنتائج السديدة .

ومن علوم القرآن ، الأمر ، والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها ، وهذا هو المقصود منهم ، وفي معرفة ذلك عدة فوائد :

منها : أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل على رسوله ، وذم من لم يعرف ذلك .

ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده ، الأوامر والنواهي ، التي كلفنا بها ، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها .

ولا سبيل إلى امتثالها ، أو اجتنابها ، إلا بمعرفتها ، ليتأتى فعلها أو تركها .

وذلك ، أن المسكف إذا أمر بأمر ، وجب عليه أولاً ، معرفة ما هو الذى أمر به ، وما يدخل به ، وما لا يدخل .

فإذا عرف ذلك ، استعان بالله ، واجتهد فى امتثاله بحسب القدرة والإمكان . وكذلك إذا نهى عن أمر من الأمور ، وجب عليه معرفة ذلك النهى وحقيقته ، ثم يبذل جهده ، مستعيناً بربه ، على تركه ، امتثالاً لأمر الله ، واجتناباً لنهيه .

وامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، كل منهما واجب ، وما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب .

فعرفت أن العلم بها قبل العمل ، ومتقدم عليه .

ومنها : أن الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يمكن حصولها وتحصيلها ، إلا بعد معرفة الخير ، ليدعوا إليه ، ومعرفة المعروف ليأمر به ، ومعرفة المنكر لينهى عنه ، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال ، ومتضمن له أكل تضمن .

ومن علوم القرآن ، أحوال اليوم الآخر ، وهو ما يكون بعد الموت ، مما أخبر به الله فى كتابه ، أو أخبر به رسوله من أحوال الموت ، والقبر ، والموقف ، والجنة والنار ، وفى العلم بذلك فوائد كثيرة :

منها : أن الإيمان باليوم الآخر ، أحد أركان الإيمان الستة ، التى لا يصح الإيمان بدونها .

وكما ازدادت معرفته بتفاصيله ، ازداد إيمان العبد به .

ومنها : أن معرفة ذلك حقيقة المعرفة ، يفتح للانسان باب الخوف والرجاء ، اللذين إن خلا القلب منهما ، خرب كل الخراب ، وإن عمر بهما ، أوجب له الخوف ، الانسكاف عن المعاصي .

والرجاء تيسير الطاعة ، وتسهيلها ، ولا يتم ذلك ، إلا بمعرفة تفاصيل الأمور ، التي يخاف منها وتحذر .

كأحوال القبر وشدته ، وأحوال الموقف المائلة ، وصفات النار المفضة . وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم ، والخبرة والسرور ، ونعيم القلب والروح والبدن ، فيحدث بسبب ذلك ، الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب ، بكل ما يقدر عليه .

ومنها : أن يعرف بذلك ، فضل الله وعدله ، في المجازاة على الأعمال الصالحة ، والسيئة ، الموجب لسكمال حمده ، والثناء عليه بما هو أهله .

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب ، يعرف بذلك فضل الله ، وعدله وحكمته .

ومن علوم القرآن ، مجادلة المبطلين ، ودفع شبه الظالمين ، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية .

وهذا الفن من علوم القرآن ، من خواص العلماء الربانيين ، والجهابذة الراسخين ، والعقلاء المستبصرين .

وقد اشتمل القرآن على الأدلة العقلية ، والقواطع البرهانية ، ما لو جمع ما عند المتكلمين من حق ، لكان بالنسبة إليه ، كنقرة عصفور ، بالنسبة لماء البحر .

ذلك بأن القرآن هو الحق ، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل

والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح ، فإن ذكر التوحيد والشرك ، وأمر بالأول ، ونهى عن الثانى ، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه ، طريقاً للنجاة ، وقبح الشرك وبطلانه ، وكونه هو الطريق للهلاك ، ما يجعل ذلك للبصيرة ، كالشمس فى نحر الظهيرة .

وإن أمر بالأوامر الشرعية ، وحث على الآداب ، ومكارم الأخلاق ، رأيته ينبه العقول النيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية ، التى يحتاجونها فى معاشهم ومعادهم ، ما يجزم بأنه لا أحسن منها ، وأن حكمته تقتضى الأمر بها ، أشد اقتضاء .

وإن نهى عن المحارم والتبائع والخبائث ، أخبر بما فى ضمنها من الفساد والضرر ، والشر الحاصل بتناولها ، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم ، وتنزيههم عنها ، وتكريمهم ، وتعلية أقدارهم عن التلبس بها ، فوق كل نعمة .

فالمأمورات ، مشتملة على المصالح ، والمحرمات ، مشتملة على المفاسد . وإن شرع فى الحجاج للمبتائين ، وتزييف شبه المشبهين ، وبطلان مذاهب الضالين ، قل ما شئت من إحقاق حق ، ودفع باطل ، وإرشاد ضال ، وإقامة الحجة على العاند ، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شئ من الحق ، بل هو ، على اسمه ، باطل لا حقيقة له ، إن هى إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت ، تبينت هباء منثوراً .

ورأيته يسوق البراهين العقلية ، بأوضح عبارة وأجزها ، وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء .

فيجمع بين الدليل العقلى والنقلى فى كلمة واحدة ، إيجازاً غير مخل بالمطلوب .

وتارة يفصل ذلك ، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان .
فله الحمد والشكر .

فهذه مقدمة نافعة ، إن شاء الله ، ينبغي للمسلم استقراؤها في كل
مواردها ، والتنبه لكل ما يرد عليه من هذه المطالب على وجه التفصيل .
فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات ، انتفع بها نفعاً عظيماً .
وذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

تفسير

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

[بسم الله] أى : أبتدىء بكل اسم لله تعالى ، لأن لفظ « اسم » مفرد مضاف ، فيعم جميع الأسماء الحسنى .

[الله] هو المألوه العبود ، المستحق لإفراده بالعبادة ، لما اتصف به من صفات الألوهية وهى صفات الكمال .

[الرحمن الرحيم] اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التى وسعت كل شئ ، وعت كل حى ، وكتبها للمتقين المتبعين ، لأنبيائه ورسله .

فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة ، ومن عدام ، فله نصيب منها .
واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ، الإيمان بأسماء الله وصفاته ، وأحكام الصفات .

فيؤمنون مثلاً ، بأنه رحمن رحيم ، ذو الرحمة التى اتصف بها ، المتعلقة بالرحوم .

فالنعم كلها ، أثر من آثار رحمته ، وهكذا في سائر الأسماء .
يقال في العليم : إنه عليم ذو علم ، يعلم به كل شيء ، قدير ، ذو قدرة
يقدر على كل شيء .

[الحمد لله] هو الثناء على الله بصفات الكمال ، وبأفعاله الدائرة بين
الفضل والعدل ، فله الحمد الكامل ، بجميع الوجوه .
[رب العالمين] الرب ، هو المربي لجميع العالمين .
وهم من سوى الله ، بخلقه إياهم ، وإعداده لهم الآلات ، وإنعامه عليهم
بالنعم العظيمة ، التي لو فقدوها ، لم يمكن لهم البقاء .
فما بهم من نعمة ، فمنه تعالى .
وتربيته تعالى خلقه نوعان : عامة وخاصة .

فالعامة : هي خلقه للمخلوقين ، ورزقهم ، وهدايتهم لما فيه مصالحهم ،
التي فيها بقاؤهم في الدنيا .

والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيريهم بالإيمان ، ويوقفهم له ، ويكلمهم ،
ويدفع عنهم الصوارف ، والعوائق الخائلة بينهم وبينه .

وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر .
ولعل هذا المعنى ، هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب .
فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة .

فدل قوله [رب العالمين] على انفراده بالخلق والتدبير ، والنعم ،
وكال غناه .

وتنام فقر العالمين إليه ، بكل وجه واعتبار .

[مالك يوم الدين] المالك : هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أن يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بما يليكه بجميع أنواع التصرفات، وأصناف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، لأن في ذلك اليوم، يظهر للخلق تمام الظهور، كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق.

حتى إنه يستوى في ذلك اليوم، الملوك والرعايا والعبيد والأحرار.

كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا، فهو المالك ليوم الدين وغيره من الأيام.

وقوله [إياك نعبد وإياك نستعين] أى : نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة.

لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم المذكور، ونفيه عما عداه.

فكأنه يقول : نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وتقديم العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واعتمادا بتقديم حقه تعالى على حق عبده.

و « العبادة » اسم جامع لما يحببه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال للظاهرة والباطنة.

و « الاستعانة » هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ، ودفع المضار ،
مع الثقة به في تحصيل ذلك .

والقيام بعبادة الله والاستعانة بهما هو الوسيلة للسعادة الأبدية ، والنجاة
من جميع الشرور .

فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما .

وإنما تكون العبادة عبادة ، إذا كانت مأخوذة عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم مقصوداً بها وجه الله .
فبهذين الأمرين تكون عبادة .

وذكر « الاستعانة » بعد « العبادة » مع دخولها فيها ، لاحتياج العبد
في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى .

فإنه إن لم يعنه الله ، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر ، واجتناب
النواهي .

ثم قال تعالى : [اهدنا الصراط المستقيم] أى : دلنا وأرشدنا ، ووقفنا
إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله ، وإلى جنته ،
وهو معرفة الحق والعمل به ، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط .

فالهداية إلى الصراط ، لزوم دين الإسلام ، وترك ما سواه من الأديان .
والهداية في الصراط ، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً .

فهذا الدعاء ، من أجمع الأدعية ، وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان
أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته ، لضرورته إلى ذلك .

وهذا الصراط المستقيم هو [صراط الذين أنعمت عليهم] من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين .

[غير] صراط [المفضوب عليهم] الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود
ونحوهم .

و [لا] صراط [الضالين] الذين تركوا الحق على جهل وضلال ،
كالنصارى ونحوهم .

فهذه السورة ، على إيجازها ، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من
سور القرآن .

فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة :

توحيد الربوبية يؤخذ من قوله [رب العالمين] .

وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة ، يؤخذ من لفظ [الله] ومن
قوله [إياك نعبد وإياك نستعين] .

وتوحيد الأسماء والصفات ، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى ،
التي أثبتتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه ،
وقد دل على ذلك لفظ [الحمد] كما تقدم .

وتضمنت إثبات النبوة في قوله [اهدنا الصراط المستقيم] لأن ذلك
ممتنع بدون الرسالة .

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله [مالك يوم الدين] وأن الجزاء
يكون بالعدل ، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل .

.

وتضمنت إثبات القدر ، وأن العبد فاعل حقيقة ، خلافاً للقدرية
والجبرية .

بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله [اهدنا
الصراط المستقيم] لأنه معرفة الحق والعمل به . وكل مبتدع وضال فهو
مخالف لذلك .

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى ، عبادة ، واستعانة في قوله :
[إياك نعبد وإياك نستعين] . فالحمد لله رب العالمين .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ لَارِيبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ
مِّن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن
رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

وأما الحروف المقطعة في أوائل السور ، فالأسلم فيها ، السكوت عن التعرض لعناها من غير مستند شرعى ، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً بل للحكمة لانعلمها .

وقوله [ذلك الكتاب] أى هذا الكتاب العظيم الذى هو الكتاب على الحقيقة ، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين ، من العلم العظيم ، والحق المبين .

فهو [لا ريب فيه] ولا شك بوجه من الوجوه .

ونفى الريب عنه ، يستلزم ضده ، إذ ضد الريب والشك ، اليقين .

فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب .

وهذه قاعدة مفيدة ، أن النفي المقصود به المدح ، لا بد أن يكون متضمناً
لضده ، وهو الكمال ، لأن النفي عدم ، والعدم المحض ، لا مدح فيه .
فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال :
[هدى للمعتين] والهدى : ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه :
وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة .

وقال [هدى] وحذف المعمول ، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية ،
ولا للشئ الفلاني ، لإرادة العموم ، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين .
فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية ، ومبين للحق من
الباطل ، والصحيح من الضعيف ، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة
لهم ، في دنياهم وآخرهم .

وقال في موضع آخر [هدى للناس] فعمم .
وفي هذا الموضع وغيره [هدى للمعتين] لأنه في نفسه هدى لجميع الناس .
فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً . ولم يقبلوا هدى الله ، فقامت عليهم به
الحجة ، ولم ينتفعوا به لشقايتهم .

وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر ، لحصول الهداية ، وهو التقوى
التي حقيقتها : إتخاذ ما بقى سخط الله وعذابه ، بامثال أوامره ، واجتناب
نواهيه ، فاهتدوا به ، وانتفعوا . غاية الانتفاع .

قال تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن تقموا الله يجعل لكم فرقانا] .
فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية ، والآيات الكونية .

ولأن الهداية نوعان : هداية البيان ، وهداية التوفيق .
فالمتقون حصلت لهم الهدايتان ، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق .
وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ، ليست هداية حقيقية تامة .
ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة ، والأعمال الظاهرة ، لتضمن
التقوى لذلك فقال :

[الذين يؤمنون بالغيب] .

حقيقة الإيمان : هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل ، المتضمن
لاتقياد الجوارح .

وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحوس ، فإنه لا يتميز بها المسلم
من الكافر .

إنما الشأن في الإيمان بالغيب ، الذي لم نره ولم نشاهده ، وإنما تؤمن به ،
نخبر الله وخبر رسوله .

فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر ، لأنه تصديق مجرد لله
ورسوله .

فالؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به ، أو أخبر به رسوله ، سواء شاهده ،
أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله ، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه .

بخلاف الزنادقة والمكذابين بالأمور الغيبية ، لأن عقولهم القاصرة المقصرة
لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم ، ومرجت أحلامهم .

وزكت عقول المؤمنين الصادقين المهتدين بهدى الله .

ويدخل في الإيمان بالغيب ، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية ، وأحوال الآخرة ، وحقائق أوصاف الله وكيفيةها ، وما أخبرت به الرسل من ذلك .

فيؤمنون بصفات الله ووجودها ، ويتيقنونها ، وإن لم يفهموا كيفيةها . ثم قال [ويقيمون الصلاة] لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون بالصلاة ، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة .

فإقامة الصلاة ، إقامة ظاهرة ، بإتمام أركانها ، وواجباتها ، وشروطها . وإقامتها باطناً ، بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر ما يقوله ويفعله منها .

فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها [إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر] وهي التي يترتب عليها الثواب .

فلا ثواب للعبد من صلاته ، إلا ما عتق منها .

ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها .

ثم قال [ومما رزقناهم ينفقون] يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة ، والنفقة على الزوجات والأقارب ، والماليك ونحو ذلك .

والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير .

ولم يذكر المنفق عليهم ، لكثرة أسبابه وتنوع أهله ، ولأن النفقة من حيث هي ، قرينة إلى الله .

وأتى بـ « من » الدالة على التبعية ، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً

يسيراً من أموالهم ، غير ضار لهم ولا مثقل ، بل ينتفعون هم بإنفاقه ، وينتفع به إخوانهم .

وفى قوله [رزقناهم] إشارة إلى أن هذه الأموال التى بين أيديكم ، ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم ، وإنما هى رزق الله ، الذى خواكم ، وأنعم به عليكم .

فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده ، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم ، وواسوا إخوانكم المعدمين .

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة فى القرآن ، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود ، والزكاة والنفقة ، متضمنة للإحسان على عبده .

فعنوان سعادة العبد ، إخلاصه للمعبود ، وسعيه فى نفع الخلق .

كما أن عنوان شقاوة العبد ، عدم هذين الأمرين منه ، فلا إخلاص ولا إحسان .

ثم قال [والذين يؤمنون بما أنزل إليك] وهو القرآن والسنة .

قال تعالى [وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة] .

فالتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول ، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه ، فيؤمنون ببعضه ، ولا يؤمنون ببعضه ، إما يحجده أو تأويله ، على غير مراد الله ورسوله ، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة ، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم ، بما حاصله عدم التصديق بمعناها ، وإن صدقوا بلفظها ، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً .

وقوله [وما أنزل من قبلك] يشمل الإيمان بجميع الكتب السابقة .
ويتضمن الإيمان بالكتب ، الإيمان بالرسل وبما اشتملت عليه ، خصوصاً
التوراة والإنجيل والزبور .

وهذه خاصية المؤمنين ، يؤمنون بالكتب السماوية كلها ، وبجميع الرسل
فلا يفرقون بين أحد منهم .

ثم قال [وبالأخرة هم يوقنون] .

و « الأخرة » اسم لما يكون بعد الموت .

وخصه بالذكر بعد العموم ، لأن الإيمان باليوم الآخر ، أحد أركان
الإيمان .

ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرغبة والعمل .

و « اليتيم » هو العلم التام ، الذى ليس فيه أدنى شك ، والواجب للعمل .

[أولئك] أى الموصوفون بتلك الصفات الحميدة [على هدى من ربهم]

أى : على هدى عظيم ، لأن التنكير للتعظيم .

وأى هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة

والأعمال المستقيمة ؟ ! ! .

وهل الهداية فى الحقيقة ، إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها ، فهى

ضلالة .

وأتى بـ « على » فى هذا الموضع ، الدالة على الاستعلاء ، وفى الضلالة

يأتى بـ « فى » كما فى قوله [وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين] لأن

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

صاحب الهدى مستعل بالهدى ، مرتفع به ، وصاحب الضلال منغمس فيه
محتقر .

ثم قال [وأولئك هم المفلحون] والفلاح هو الفوز بالطلب والنجاة من
المرهوب .

حصر الفلاح فيهم ، لأنه لاسبيل إلى الفلاح إلا بسوك سييلهم ، وماعدا
تلك السبيل ، فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار ، التي تفضى بسالكها إلى
الهلاك .

فلهذا ، لما ذكر صفات المؤمنين حقاً ، ذكر صفات الكفار المظهرين
لكفرهم المعاندين للرسول فقال .

[إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .
ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب
عظيم] .

يخبر تعالى : أن الذين كفروا ، أى : اتصفوا بالكفر ، وانصبغوا به ،
وصاروصفاً لهم لازماً ، لايردعهم عنه رادع ، ولا ينجع فيهم وعظ .

إنهم مستمرون على كفرهم ، فسواء عليهم أأنذرتهم ، أم لم تنذرهم
لا يؤمنون .

وحقيقة الكفر ، هو : الجحود لما جاء به الرسول ، أو جحد بعضه .
فهؤلاء الكفار ، لاتفيدهم الدعوة ، إلا إقامة الحجة ، وكان في هذا
قطعاً ، لطمع الرسول صلى الله عليه وسلم في إيمانهم ، وأنتك لاتأس عليهم ،
ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

تُنذِرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ
غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

ثم ذكر الواضع المانعة لهم من الإيمان فقال :

[ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم] أى : طبع عليها بطابع لا يدخلها
الإيمان ، ولا ينفذ فيها فلا يعون ما ينفعهم ، ولا يسمعون ما يفيدهم .

[وعلى أبصارهم غشاوة] أى : غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر
الذى ينفعهم ، وهذه طرق العلم والخير ، قد سدت عليهم ، فلا مطمع فيهم ،
ولا خير يرجى عندهم .

وإنما منعوا ذلك ، وسدت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم
ومعاندتهم بعد ما تبين لهم الحق ، كما قال تعالى :
[وقلوب أفندتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة] وهذا عقاب
عاجل .

ثم ذكر العقاب الآجل فقال :

[ولهم عذاب عظيم] وهو عذاب النار ، وسخط الجبار المستمر الدائم .

ثم قال تعالى : فى وصف المنافقين ، الذين ظاهروهم الإسلام وباطنهم
الكفر :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ

[ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون] .
واعلم أن النفاق هو : إظهار الخير . وإبطان الشر .

ويدخل في هذا التعريف ، النفاق الاعتقادي ، والنفاق العملي .
كالذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .
وفي رواية « وإذا خاصم فجر » .

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام ، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها .

ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، ولا بعد الهجرة ، حتى كانت وقعة « بدر » وأظهر الله المؤمنين ، وأعزهم .

فذل من في المدينة ممن لم يسلم ، فأظهر الإسلام بعضهم خوفاً ومخادعة ، ولتحتن دماؤهم ، وتسلم أموالهم ، فكانوا بين أظهر المسلمين ، في الظاهر أنهم منهم ، وفي الحقيقة ، ليسوا منهم .

فمن لطف الله بالمؤمنين ، أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها ، لئلا يفتربهم المؤمنون ، ولينقمعوا أيضاً عن كثير من فجورهم .

وقال تعالى [يخدر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم] .

إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ
مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

فوصفهم الله بأصل النفاق فقال :

[ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين] فإنهم
يقولون بالستبهم ما ليس في قلوبهم .

فأكذبهم الله بقوله [وما هم بمؤمنين] لأن الإيمان الحقيقي ، ما تواطأ
عليه القلب واللسان ، وإنما هذا مخادعة لله وعباده المؤمنين .

والمخادعة : أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً ، ويبطن خلافه لكي
يتمكن من مقصوده ممن يخادع .

فهؤلاء المنافقون ، سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك ، فعاد خداعهم
على أنفسهم .

وهذا من العجائب ، لأن المخادع ، إما أن ينتج خداعه ويحصل له
مقصوده ، أو يسلم ، لاله ولا عليه .

وهؤلاء عاد خداعهم على أنفسهم ، وكانهم يعملون ما يعملون من المكر
لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها .

لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم شيئاً ، وعباده المؤمنون ، لا يضرهم
كيدهم شيئاً .

فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان ، فسلمت بذلك أموالهم
وحقت دماؤهم ، وصار كيدهم في نحورهم ، وحصل لهم بذلك الخزي
والفضيحة في الدنيا ، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة
والنصرة .

ثم فى الآخرة ، لهم العذاب الأليم الموضع المفجع ، بسبب كذبهم ، وكفرهم ، وفجورهم ، والحال أنهم — من جهلهم وحققتهم — لا يشعرون بذلك .

وقوله [فى قلوبهم مرض] المراد بالمرض هنا : مرض الشك ، والشبهات ، والنفاق .

وذلك أن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله : مرض الشبهات الباطلة ، ومرض الشهوات المردية .

فالسكفر والنفاق ، والشكوك والبدع ، كلها من مرض الشبهات .

والزنا ، ومحبة الفواحش والمعاصى وفعالها ، من مرض الشهوات .

كما قال تعالى [فيطمع الذى فى قلبه مرض] وهو شهوة الزنا .

والمعافى ، من عوفى من هذين المرضين ، فحصل له اليقين والإيمان ، والصبر عن كل معصية ، فرفل فى أثواب العافية .

وفى قوله عن المنافقين [فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً] بيان لحكمته تعالى فى تقدير المعاصى على العاصين ، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة ، يبتليهم بالمعاصى اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى .

[ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة] .

وقال تعالى [فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم] .

وقال تعالى [وأما الذين فى قلوبهم رجس فزادتهم رجساً إلى رجسهم] .

فعقوبة المعصية ، المعصية بعدها ، كما أن من ثواب الحسنة ، الحسنة

بعدها .

قال تعالى [ويزيد الله الذين اهتدوا هدى] .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا
إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

أى : إذا نهى هؤلاء المنافقون عن الإفساد فى الأرض ، وهو العمل
بالكفر . والمعاصى ، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم
للكافرين [قالوا إنما نحن مصلحون] .

فجمعوا بين العمل بالفساد فى الأرض ، وإظهار أنه ليس بإفساد بل
هو إصلاح ، قلباً للحقائق ، وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً .
وهؤلاء أعظم جناية ممن يعمل بالمعاصى ، مع اعتقاد تحريمها ، فهذا
أقرب للسلامة ، وأرجى لرجوعه .

ولما كان فى قولهم [إنما نحن مصلحون] حصر للإصلاح فى جانبهم — وفى
ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح — قلب الله عليهم دعواهم بقوله :
[ألا إنهم هم المفسدون] فإنه لا أعظم إفساداً ممن كفر بآيات الله ،
وصد عن سبيل الله وخادع الله وأولياءه ، ووالى المحاربين لله ورسوله ،
وزعم — مع هذا — أن هذا إصلاح ، فهل بعد هذا الفساد فساد ؟ !!
ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم ، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم
به عليهم حجة الله .

وإنما كان العمل فى الأرض إفساداً ، لأنه سبب لفساد ماعلى وجه
الأرض من الحبوب والثمار والأشجار ، والنبات ، لما يحصل فيها من الآفات
التي سببها المعاصى .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا
أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن
لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

ولأن الإصلاح فى الأرض ، أن تعمر بطاعة الله والإيمان به ، لهذا خلق الله الخلق ، وأسكنهم الأرض ، وأدر عليهم الأرزاق ، ليستعينوا بها على طاعته وعبادته .

فإذا عمل فيها بضده ، كان سعيًا فيها بالفساد ، وإخراجًا لها عما خلقت له .
أى : إذا قيل للمنافقين : آمنوا كما آمن الناس ، أى : كإيمان الصحابة رضى الله عنهم وهو الإيمان بالقلب واللسان ، قالوا — بزعمهم الباطل — :
أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ .

يعنون — قبحهم الله — الصحابة رضى الله عنهم ، لزعمهم أن سفههم ،
أوجب لهم الإيمان ، وترك الأوطان ، ومعاداة الكفار .

والعقل عندهم يقتضى ضد ذلك ، فنسبواهم إلى السفه ؛ وفى ضمن ذلك ،
أنهم هم العقلاء ، أرباب الحجى والنهى .

فرد الله ذلك عليهم ، وأخبر أنهم ، هم السفهاء على الحقيقة ، لأن حقيقة
السفه ، جهل الإنسان بمصالح نفسه ، وسعيه فيما يضرها ، وهذه الصفة
منطبقة عليهم .

كما أن العقل والحجا ، معرفة الإنسان بمصالح نفسه ، والنسعى فيما ينفعه ،
وفى دفع ما يضره .

وهذه الصفة ، منطبقة على الصحابة والمؤمنين .

فالعبرة بالأوصاف والبرهان ، لا بالدعاوى المجردة ، والأقوال الفارغة .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَٰطِئِنِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

هذا من قولهم بالسنتهم ما ليس في قلوبهم .
وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين ، أظهروا أنهم على طريقتهم ،
وأنهم معهم ، فإذا خلوا إلى شياطينهم — أى كبرائهم ورؤسائهم بالشر —
قالوا : إنا معكم في الحقيقة ، وإنما نحن مستهزون بالمؤمنين بإظهارنا لهم ،
أنا على طريقتهم .

فهذه حالهم الباطنة والظاهرة ، ولا يحق الذكر السوء إلا بأهله .

قال تعالى [الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون] .

وهذا جزاء لهم ، على استهزائهم بعباده .

فمن استهزأه بهم ، أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والأحوال
الخبثة ، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين ، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم .

ومن استهزأه بهم يوم القيامة ، أن يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً ،
فإذا مشى المؤمنون بنورهم ، طغى نور المنافقين ، وبقوا في الظلمة بعد النور
متحيرين ، فما أعظم اليأس بعد الطمع .

[ينادونهم ألم نكن معكم ، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم
وإرتبتم] الآية .

قوله [ويمدهم] أى يزيدهم [في طغيانهم] أى : فجورهم وكفرهم
[يعمهون] أى حائرون مترددون ، وهذا من استهزائه تعالى بهم .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ
تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦)

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم [أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين] .

أولئك ، أى : النافقون الموصوفون بتلك الصفات [الذين اشتروا الضلالة بالهدى] أى : رغبوا فى الضلالة ، رغبة المشتري فى الساعة ، التى — من رغبته فيها — يبذل فيها الأموال النفيسة .

وهذا من أحسن الأمثلة ، فإنه جعل الضلالة ، التى هى غاية الشر ، كالساعة .

وجعل الهدى ، الذى هو غاية الصلاح ، بمنزلة الثمن .

فبذلوا الهدى ، رغبة عنه فى الضلالة رغبة فيها .

فهذه تجارتهم ، فبئس التجارة ، وهذه صفقتهم ، فبئست الصفقة .

وإذا كان من يبذل دينارا فى مقابلة درهم خاسرا ، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهما؟! فكيف من بذل الهدى . . . فى مقابلة الضلالة ، واختار الشقاء على السعادة ، ورغب فى سافل الأمور وترك عاليها؟! فما ربحت تجارته ، بل خسر فيها أعظم خسارة .

[أولئك الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين] .

وقوله [وما كانوا مهتدين] تحقيق لضلالتهم ، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شئ ، فهذه أوصافهم القبيحة .

﴿مِثْلَهُمْ مِثْلُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ
مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧)
صَمَّ بكم عَمَى فهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ
حَذَرِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

ثم ذكر مثاهم فقال : [مثاهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت
ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عى فهم
لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم
في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق
يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء
الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شيء قدير] .

أى : مثاهم المطابق لما كانوا عليه ، كمثل الذي استوقد ناراً .

أى : كان في ظلمة عظيمة ، وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من
غيره ، ولم تكن عنده معدة ، بل هي خارجة عنه .

فلما أضاءت النار ما حوله ، ونظر المحل الذي هو فيه ، وما فيه من

المخاوف وأمنها ، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه ، وظن أنه قادر عليها ،
فبينما هو كذلك ، إذ ذبح الله بنوره ، فزال عنه النور ، وذهب معه
السرور ، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة ، فذهب ما فيها من الإشراق ،
وبقي ما فيها من الإحراق .

فبقي في ظلمات متعددة : ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ،
والظلمة الحاصلة بعد النور ، فكيف يكون حال هذا الموصوف ؟ .

فكذلك هؤلاء النافقون ، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ، ولم
تسكن صفة لهم ، فاستضاءوا بها مؤقتاً وانتفعوا ، فحقت بذلك دماؤهم ،
وسلمت أرواحهم ، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا .

فبينما هم كذلك ، إذ هجم عليهم الموت ، فسلبهم الانتفاع بذلك النور ،
وحصل لهم كل هم وغم وعذاب ، وحصل لهم ظلمة القبر ، وظلمة الكفر ،
وظلمة النفاق ، وظلمة العاصي على اختلاف أنواعها ، وبعد ذلك ظلمة النار ،
وبئس القرار .

فلهذا قال تعالى عنهم [صم] أى : عن سماع الخير [بكم] أى : عن
النطق به [عمى] أى : عن رؤية الحق [فهم لا يرجعون] لأنهم تركوا
الحق بعد أن عرفوه ، فلا يرجعون إليه .

بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال ، فإنه لا يعقل ، وهو أقرب
رجوعاً منهم .

ثم قال تعالى [أو كصيب من السماء] أى : كصاحب صيب وهو المطر
الذى يصوب ، أى : ينزل بكثرة .

[فيه ظلمات] ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمات المطر .

[ورعد] وهو : الصوت الذى يسمع من السحاب .

[وبرق] وهو الضوء اللامع المشاهد من السحاب .

[كلما أضاء لهم] البرق فى تلك الظلمات [مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم

قاموا] أى : وقفوا .

فهكذا حالة المنافقين ، إذا سمعوا القرآن وأوامره ، ونواهيه ، ووعدده ، ووعيده ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وأعرضوا عن أمره ونهيهِ ، ووعدده ووعيده ، فيروّطهم وعيده ، وتزعجهم وعوده .

فهم يرضون عنها غاية ما يمكنهم ، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذى يسمع الرعد ، فيجعل أصابعه فى أذنيه خشية الموت ، فهذا ربما حصلت له السلامة .

وأما المنافقون ، فأتى لهم السلامة ، وهو تعالى محيط بهم ، قدرة ، وعلماً فلا يفوتونه ولا يعجزونه ، بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويجازيهم عليها أتم الجزاء .

ولما كانوا مبتائين بالصمم ، والبكم ، والعنى المعنوى ، ومسدودة عليهم طرق الإيمان . قال تعالى :

[ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم] أى : الحسية .

ففيه تخويف لهم وتحذير من العقوبة الدنيوية ، ليحذروا ، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم .

[إن الله على كل شيء قدير] فلا يعجزه شيء .

يَسْأَلُهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا
وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا
لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

ومن قدرته ، أنه إذا شاء شيئاً ففعله من غير ممانع ولا معارض .
وفي هذه الآية وما أشبهها ، رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير
داخلة في قدرة الله تعالى ، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله [إن
الله على كل شيء قدير] .

هذا أمر عام لجميع الناس ، بأمر عام ، وهو العبادة الجامعة ، لامتنال
أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وتصديق خبره ، فأمرهم تعالى بما خلقهم له .
قال تعالى [وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون] .

ثم استدل على وجوب عبادته وحده ، بأنه ربكم ، الذي رباكم بأصناف
النعم ، خلقةكم بعد العدم ، وخلق الذين من قبلكم ، وأنعم عليكم بالنعم
الظاهرة والباطنة ، فجعل لكم الأرض قراراً تستقرون عليها ، وتنتفعون
بالأبنية ، والزراعة ، والحراثة ، والسلوك من محل إلى محل ، وغير ذلك من
وجوه الانتفاع بها .

وجعل السماء بناءً لمساكنكم ، وأودع فيها من المنافع ما هو من
ضرورتكم وحاجاتكم ، كالشمس ، والقمر ، والنجوم .

[وأنزل من السماء ماء] والسماء هو كل ما علا فوقك فهو سماء ، ولهذا
قال المفسرون : المراد بالسماء ههنا ، السحاب .

فأنزل منه تعالى ماء [فأخرج به من الثمرات] كالحبوب ، والثمار ،
من نخيل ، وفواكه ، وزروع وغيرها [رزقا لكم] به ترتزقون ، وتنتقون
وتعيشون وتفكهنون .

[فلا تجعلوا لله أنداداً] أى : أشباها ونظراء من المخلوقين ، فتعبدونهم
كما تعبدون الله ، وتحبونهم كما تحبونه ، وهم مثلكم ، مخلوقون ، مرزوقون
مدبرون ، لا يملكون مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا ينفعونكم
ولا يضرون .

[وأنتم تعلمون] أن الله ليس له شريك ، ولا نظير ، لافى الخلق ،
والرزق ، والتدبير ، ولا فى الألوهية والكمال .

فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك ؟ هذا من أعجب
العجب ، وأسفه السفه .

وهذه الآية ، جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن عبادة
ماسواه ، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته ، وبطلان عبادة ماسواه ،
وهو ذكر توحيد الربوبية ، المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير .

فإذا كان كل أحد ، مقراً بأنه ليس له شريك بذلك ، فكذلك فليكن
الإقرار بأن الله ليس له شريك فى عبادته ، وهذا أوضح دليل عقلى ، على
وحدانية البارئ تعالى ، وبطلان الشرك .

وقوله [لعلمكم تتقون] يحتمل أن المعنى أنكم إذا عبدتم الله وحده ،
اتقيتم بذلك سخطه وعذابه ، لأنكم أنتم بالسبب الدافع لذلك .

﴿٢٣﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾
فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٤﴾

ويحتمل أن يكون المعنى : أنكم إذا عبدتم الله ، صرتم من المتقين
الموصوفين بالتقوى ، وكلا المعنيين صحيح ، وهما متلازمان .
فمن أتى بالعبادة كاملة ، كان من المتقين .
ومن كان من المتقين ، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه .
وهذا دليل عتلى ، على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحة
ما جاء به فقال :

وإن كنتم — يامعشر المعاندين للرسول ، الرادين دعوته ، الزاعمين
كذبه — فى شك واشتباه ، مما نزلنا على عبدنا ، هل هو حق أو غيره ،
فهمنا أمر نصف فيه الفصلة بينكم وبينه .
وهو أنه بشر مثلكم ، ليس من جنس آخر ، وأنتم تعرفونه منذ نشأ
بينكم ، لا يكتب ولا يقرأ .
فأتاكم بكتاب ، أخبركم أنه من عند الله ، وقلتم أنتم ، إنه تقوله وافتراه .
فإن كان الأمر كما تقولون ، فأتوا بسورة من مثله ، واستعينوا بمن
تقدرون عليه من أعوانكم وشهداءكم ، فإن هذا أمر يسير عليكم ،
خصوصاً ، وأنتم أهل النصيحة والخطابة ، والعداوة العظيمة للرسول .

فإن جنتهم بسورة من مثله ، فهو كما زعمتم ، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز ، فهذا آية كبيرة ، ودليل واضح جلى على صدقه وصدق ما جاء به ، فيتعين عليكم اتباعه ، وانتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة والشدة ، أن كان وقودها الناس والحجارة ، ليست كنار الدنيا ، التي تتقد بالخطب ، وهذه النار الموصوفة ، معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسوله .

فاحذروا الكفر برسوله ، بعدما تبين لكم أنه رسول الله .
وهذه الآية ونحوها يسمونها آية التحدى ، وهو تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ويعارضوه بوجه .

قال تعالى [قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا] .

وكيف يقدر المخلوق من تراب ، أن يكون كلامه كلام رب الأرباب ؟ .

أم كيف يقدر الفقير الناقص من جميع الوجوه ، أن يأتي بكلام كلام الكامل ، الذي له الكمال المطلق ، والغنى الواسع من جميع الوجوه ؟ .

هذا ليس في الإمكان ، ولا في قدرة الإنسان .

وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام ، إذا وزن هذا القرآن بغيره من كلام البلغاء ، ظهر له الفرق العظيم .

وفي قوله [وإن كنتم في شك] إلى آخره ، دليل على أن الذى يرجى له الهداية من الضلالة ، هو الشاك الحائر الذى لم يعرف الحق من الضلالة .

فهذا الذى إذا بين له الحق حرى باتباعه ، وإن كان صادقاً فى طلب الحق .

وأما العائد الذى يعرف الحق ويتركه ، فهذا لا يمكن رجوعه ، لأنه ترك الحق بعد ما تبين له ، ولم يتركه عن جهل ، فلا حيلة فيه . وكذلك الشاك الذى ليس بصادق فى طلب الحق ، بل هو معرض ، غير مجتهد بطالبه ، فهذا — فى الغالب — لا يوفق .

وفى وصف الرسول بالعبودية فى هذا المقام العظيم ، دليل على أن أعظم أوصافه صلى الله عليه وسلم ، قيامه بالعبودية ، التى لا يلحظه فيها أحد من الأولين والآخرين .

كما وصفه بالعبودية فى مقام الإسرائ فقال [سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً] . وفى مقام تنزيل القرآن عليه فقال [تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليسكون للعالمين نذيراً] .

وفى قوله [أعدت للكافرين] ونحوها من الآيات ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الجنة والنار مخلوقتان ، خلافاً للمعتزلة .

وفىها أيضاً ، أن الموحدين — وإن ارتكبوا بعض الكبائر — لا يخلدون فى النار ، لأنه قال [أعدت للكافرين] .

فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها ، لم تكن معدة للكافرين وحدهم خلافاً للخوارج والمعتزلة .

وفىها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه ، وهو الكفر ، وأنواع المعاصى على اختلافها .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا
الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

ولما ذكر جزاء الكافرين ، ذكر جزاء المؤمنين ، أهل الأعمال
الصالحة ، كما هي طريقته تعالى في كتابه ، يجمع بين الترغيب والترهيب ،
ليكون العبد راغباً راهباً ، خائفاً راجياً فقال :

[وبشر] أى : أيها الرسول ، ومن قام مقامك .

[الذين آمنوا] بقلوبهم [وعملوا الصالحات] بجوارحهم ، فصدقوا
إيمانهم بأعمالهم الصالحة .

ووصفت أعمال الخير بالصلحات ، لأن بها تصلح أحوال العبد ، وأمور
دينه ودنياه ، وحياته الدنيوية والأخروية ، ويزول بها عنه فساد الأحوال ،
فيكون بذلك من الصالحين ، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

فبشرهم [أن لهم جنات] أى : بساتين جامعة للأشجار العجيبة ، والثمار
الأنيقة ، والظل اللديد ، والأغصان والأفنان ، وبذلك صارت جنة ، يجتن
بها داخلها ، وينعم فيها ساكنها .

[تجرى من تحتها الأنهار] أى : أنهار لئاء ، والذين ، والعسل ، والتمر
ينجرونها كيف شاءوا ، ويصرفونها أين أرادوا ، وتسقى منها تلك الأشجار
فتنبت أصناف الثمار .

[كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل]
أى: هذا من جنسه ، وعلى وصفه ، كلها متشابهة فى الحسن واللذة .
ليس فيها ثمرة خاصة ، وليس لهم وقت خال من اللذة ، فهم دائماً
متلذذون بأكلها .

وقوله [وأتوا به متشابهاً] قيل : متشابهاً فى الاسم ، مختلفاً فى الطعم .
وقيل : متشابهاً فى اللون ، مختلفاً فى الاسم .
وقيل : يشبه بعضه بعضاً ، فى الحسن ، واللذة ، والفكاهة ، ولعل
هذا أحسن .

ثم لما ذكر مسكنهم ، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم ،
ذكر أزواجهم ، فوصفهم بأكمل وصف وأوجزه ، وأوضحه فقال .
[ولهم فيها أزواج مطهرة] فلم يقل « مطهرة من العيب الفسلى » .
ليشمل جميع أنواع التطهير .

فهن مطهرات الأخلاق ، مطهرات الخلق ، مطهرات اللسان ، مطهرات
الأبصار .

فأخلاقهن ، أنهن عرب متحبات إلى أزواجهن باخلاق الحسن ،
وحسن التبعل ، والأدب القولى والفعل ، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس
والننى ، والبول والغائط ، والنخاط والبصاق ، والرائحة الكريهة .

ومطهرات الخلق أيضاً ، بكمال الجمال ، فليس فيهن عيب ، ولا دمامة
خاق ، بل هن خيرات حسان ، مطهرات اللسان والطرف .

قاصرات طرفهن على أزواجهن ، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح .

ففي هذه الآية الكريمة ، ذكر المبشر والمبشر ، والمبشر به ، والسبب الموصل لهذه البشارة .

فالمبشر ، هو الرسول صلى الله عليه وسلم ومن قام مقامه من أمته .
والمبشر ، هم المؤمنون العاملون الصالحات .

والمبشر به ، هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات .

والسبب الموصل لذلك ، هو الإيمان والعمل الصالح .

فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة ، إلا بهما .

وهذا أعظم بشارة حاصلة ، على يد أفضل الخلق ، بأفضل الأسباب .

وفيه استحباب بشارة المؤمنين ، وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها ، فإنها بذلك ، تخف وتسهل .

وأعظم بشرى حاصلة للإنسان ، توفيقه للإيمان والعمل الصالح .

فذلك أول البشارة وأصلها .

ومن بعده ، البشرى عند الموت .

ومن بعده ، الوصول إلى هذا النعيم المقيم . نسأل الله من فضله .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَخْلَقَ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَتَقَضُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧)

يقول تعالى [إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما] أى أى مثل كان [بعوضة فما فوقها] لاشتمال الأمثال على الحكمة ، وإيضاح الحق ، والله لا يستحي من الحق .

وكان فى هذا ، جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال فى الأشياء الحقيرة . واعترض على الله فى ذلك . فليس فى ذلك محل اعتراض . بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم . فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر . ولهذا قال : [فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم] فيفهمونها . ويتفكرون فيها .

فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل . ازداد بذلك علمهم وإيمانهم . وإلا علموا أنها حق . وما اشتملت عليه حق . وإن خفى عليهم وجه الحق فيها . لعلمهم بأن الله لم يضربها عبثاً . بل لحكمة بالغة . ونعمة سائغة .

[وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً] فيعترضون

ويتحيرون . فيزدادون كفرًا إلى كفرهم . كما ازداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم . ولهذا قال :

[يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً] .

فهذه حال المؤمنين والكافرين . عند نزول الآيات القرآنية .

قال تعالى [وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانًا . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون] .

فلا أعظم نعمة على العباد . من نزول الآيات القرآنية .

ومع هذا . تكون لقوم محنة . وحيرة . وضلالة . وزيادة شر إلى شرهم .
ولقوم منحة ؛ ورحمة ؛ وزيادة خير إلى خيرهم .

فسبحان من فاوت بين عباده ؛ وانفرد بالهداية والإضلال .

ثم ذكر حكمته وعدله في إضلاله من يضل فقال :

[وما يضل به إلا الفاسقين] أي : الخارجين عن طاعة الله ؛ المعاندين

لرسول الله ؛ الذين صار الفسق وصفهم ؛ فلا ييغون به بدلا .

فاقتضت حكمته تعالى ؛ إضلالهم ؛ لعدم صلاحيتهم للهدى .

كما اقتضى فضله وحكمته ؛ هداية من اتصف بالإيمان ؛ وتحلى بالأعمال

الصالحة .

والفسق نوعان : نوع مخرج من الدين ؛ وهو الفسق المقتضى للخروج

من الإيمان ؛ كالمذكور في هذه الآية ونحوها .

ونوع غير محرج من الإيمان كما في قوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا]
إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا] الآية .

ثم وصف الفاسقين فقال [الذين ينتقضون عهد الله من بعد ميثاقه] .
وهذا يعم العهد الذي بينهم وبين ربهم ؛ والذي بينهم وبين الخلق ؛
الذي أكدّه عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات .

فلإيالون بتلك المواثيق ؛ بل ينتقضونها ؛ ويتركون أوامره ويرتكبون
نواهيه ؛ وينتقضون العهود التي بينهم وبين الخلق .

[ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل] وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة .

فإن الله أمرنا ؛ أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به ؛ والقيام بعبوديته .

وما بيننا وبين رسوله ؛ بالإيمان به ؛ ومحبته ؛ وتعزيزه ؛ والقيام بحقوقه .

وما بيننا وبين الوالدين والأقارب ؛ والأصحاب ؛ وسائر الخلق بالقيام

بحقوقهم التي أمر الله أن نصلها .

فأما المؤمنون ؛ فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق ؛

وقاموا بها أتم القيام .

وأما الفاسقون ؛ فقطعوها ؛ ونبذوها وراء ظهورهم ؛ معتاضين عنها

بالفسق والقطيعة ؛ والعمل بالمعاصي ؛ وهو : الإفساد في الأرض .

[فأولئك] أي : من هذه صفته [هم الخاسرون] في الدنيا والآخرة .

فحصر الخسارة فيهم ؛ لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم ؛ ليس لهم

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨) ﴿

نوع من الربح ؛ لأن كل عمل صالح ؛ شرطه الإيمان ؛ فمن لا إيمان له ؛ لا عمل له ؛ وهذا الخسار ؛ هو خسار الكفر .

وأما الخسار الذى قد يكون كفراً ؛ وقد يكون معصية ؛ وقد يكون تفريطاً فى ترك مستحب المذكور فى قوله تعالى [إن الإنسان لفى خسر] فهذا عام لكل مخلوق ؛ إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح ؛ والتواصى بالحق ؛ والتواصى بالصبر ؛ وحقبة فوات الخير ؛ الذى كان العبد بصدده تحصيلاً وهو تحت إمكانه .

ثم قال تعالى [كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون] .

هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار .

أى : كيف يحصل منكم الكفر بالله ؛ الذى خالقكم من العدم ؛ وأنعم عليكم بأنصاف النعم ؛ ثم يميتكم عند استكمال آجالكم ؛ ويحياكم فى القبور ؛ ثم يحييكم بعد البعث والنشور ؛ ثم إليه ترجعون ؛ فيجازيكم الجزاء الأوفى .

فإذا كنتم فى تصرفه ؛ وتدييره ؛ وبره ؛ وتحت أوامره الدينية ؛ وبعد ذلك تحت دينه الجزائى ؛ أفياق بكم أن تكفروا به ؛ وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه كبير . ؟

بل الذى يلقى بكم ؛ أن تتقوه ؛ وتشكروه ؛ وتؤمنوا به ؛ وتخافوا عذابه ؛ وترجوا ثوابه .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩)

[هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا] أى : خلق لكم ، براً بكم ورحمة ، جميع ما على الأرض ، للانتفاع والاستمتاع ، والاعتبار .
وفي هذه الآية الكريمة ، دليل على أن الأصل في الأشياء ، الإباحة والطهارة ، لأنها سيقّت في معرض الامتنان .

يخرج بذلك ، الخبائث ، فإن تحريمها أيضاً ، يؤخذ من فحوى الآية ، وبيان المقصود منها ، وأنه خلقها لنفعنا ، فما فيه ضرر ، فهو خارج من ذلك .
ومن تمام نعمته ، منعنا من الخبائث ، تنزيها لنا .
وقوله : [ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم] .

﴿ معاني كلمة « استوى » ﴾

[استوى] : ترد في القرآن على ثلاثة معاني :

فتارة لا تعدى بالحرف . فيكون معناها ، الكمال والتمام ، كما في قوله عن موسى [ولما بلغ أشده واستوى] .

وتارة تكون بمعنى « علا » و « ارتفع » ، وذلك إذا عدت بـ « على » كقوله تعالى : [الرحمن على العرش استوى] ، [لتستووا على ظهوره] .

وتارة تكون بمعنى « قصد » كما إذا عدت بـ « إلى » كما في هذه الآية .
أى : لما خلق تعالى الأرض ، قصد إلى خلق السماوات ، فسواهن سبع سماوات ، فخلقها وأحكمها ، وأتقنها ، وهو بكل شيء عليم .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

فيعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، و [يعلم ما تسرون ، وما تعلنون] يعلم السر وأخفى .
وكثيراً ما يقرن بين خلقه ، وإثبات علمه كما في هذه الآية ، وكفى قوله تعالى : [ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير] لأن خلقه للمخلوقات ، أدل دليل على علمه ، وحكمته ، وقدرته .

[وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة] .

هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبى البشر ، وفضله ، وأن الله تعالى — حين أراد خلقه — أخبر الملائكة بذلك ، وأن الله مستخلفه في الأرض .

فقال الملائكة عليهم السلام : [أتجعل فيها من يفسد فيها] بالمعاصي [يوسفك الدماء] ، وهذا تخصيص بعد تعميم ، لبيان شدة مفسدة القتل .
وهذا بحسب ظنهم أن المجهول في الأرض ، سيعتد منه ذلك ، فزهاوا البارى عن ذلك ، وعظموه ، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من الفسدة فقالوا :

[ونحن نسبح بحمدك] أى : نزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك .

[ونقدس لك] يحتمل أن معناها : ونقدسك ، فتكون اللام مفيدة

للتخصيص والإخلاص .

الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَسَادُمُ أَنْبَهُمُ

ويحتمل أن تكون، وتقدس لك أنفسنا . أى: نظهرها بالأخلاق الجليلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه ، ونظهرها من الأخلاق الرذيلة .

قال الله للملائكة : [إني أعلم] من هذا الخليفة [ما لا تعلمون] .
لأن كلامكم بحسب ما ظننتم ، وأنا عالم بالظواهر والسرائر ، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة ، أضعاف أضعاف ما فى ضمن ذلك ، من الشر فلو لم يكن فى ذلك ، إلا أن الله تعالى أراد أن يحتجى منهم الأنبياء والصديقين ، والشهداء والصالحين ، ولتظهر آياته للخلق ، ويحصل من العبوديات التى لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة ، كالجهاد وغيره ، وليظهر ما كمن فى غرائز المكلفين من الخير والشر بالامتحان ، وليبين عدوه من وليه ، وحزبه من حربه ، وليظهر ما كمن فى نفس إبليس من الشر الذى انطوى عليه ، واتصف به ، فهذه حكم عظيمة ، يكفى بعضها فى ذلك .

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام ، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض ، أراد الله تعالى ، أن يبين لهم من فضل آدم ، ما يعرفون به فضله ، وكمال حكمة الله وعلمه فقال :

[وعلم آدم الأسماء كلها] أى: أسماء الأشياء ، وما هو مسمى لها .
فعلمه الاسم والمسمى ، أى : الألفاظ والمعانى ، حتى المصغر من الأسماء والكبير ، كالتصعة والتقصية .

بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

[ثم عرضهم] أى : عرض المسميات [على الملائكة] امتحاناً لهم ،
هل يعرفونها أم لا ؟ .

[فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين] فى قولكم وطنكم ،
أنكم أفضل من هذا الخليقة .

[قالوا سبحانك] أى : نزهك من الاعتراض منا عليك ، ومخالفة
أمرك .

[لا علم لنا] بوجه من الوجوه [إلا ما علمتنا] إياه ، فضلاً منك
وجوداً .

[إنك أنت العليم الحكيم] العليم الذى أحاط علماً بكل شئ ،
ولا يغيب عنه ، ولا يعزب مثقال ذرة فى السماوات والأرض ، ولا أصغر من
ذلك ولا أكبر .

الحكيم ، من له الحكمة التامة ، التى لا يخرج عنها مخلوق ، ولا يشذ
عنها مأمور .

فما خلق شيئاً إلا لحكمة ، ولا أمر بشئ إلا لحكمة .

والحكمة : وضع الشئ فى موضعه اللائق به .

فأقروا ، واعترفوا بعلم الله وحكمته ، وقصورهم عن معرفة أذى شئ .

واعترفواهم بفضل الله عليهم ؛ وتعليمه إياهم ما لا يعلمون .

فحينئذ قال الله : [يا آدم أنبئهم بأسمائهم] أى : أسماء المسميات التى

عرضها الله على الملائكة ؛ فعجزوا عنها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

[فلما أنبأهم بأسمائهم] تبين للملائكة فضل آدم عليهم ؛ وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة .

[قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض] وهو ما غاب عنا ؛ فلم نشاهده .

فإذا كان علما بالغيب ؛ فالشهادة من باب أولى .

[وأعلم ما تبدون] أى : تظهرون [وما كنتم تكتمون] .

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم ؛ إكراما له ونعتظيما ؛ وعبودية لله تعالى . فامثلوا أمر الله ؛ وبادروا كلهم بالسجود .

[إلا إبليس أبى] امتنع عن السجود ؛ واستكبر عن أمر الله وعلى آدم .
قال [أسجد لمن خلقت طينا] .

وهذا الإباء منه والاستكبار ؛ نتيجة الكبر الذى هو منطوق عليه ؛ فتبينت حينئذ عداوته لله ؛ ولآدم ؛ وكفره واستكباره .

وفى هذه الآيات من العبر والآيات ؛ إنبات الكلام لله تعالى ؛ وأنه لم يزل متكلمًا ؛ يقول ما شاء ؛ ويتكلم بما شاء ؛ وأنه عليم حكيم .

وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله فى بعض المخلوقات والأمورات فالواجب عليه ؛ التسليم ؛ واتهام عقله ؛ والإقرار لله بالحكمة .

وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة ؛ وإحسانه بهم ؛ بتعليمهم ما جهلوا ؛ وتبيينهم على ما لم يعلموه .

وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا
مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ

وفيه فضيلة العلم من وجوه :

منها : أن الله تعرف للملائكته ؛ بعلمه وحكمته .

ومنها : أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم ؛ وأنه أفضل صفة تكون
في العبد .

ومنها : أن الله أمرهم بالسجود لآدم ؛ إكراماً له ؛ لما بان فضل علمه .

ومنها : أن الامتحان للغير ؛ إذا عجزوا عما امتحنوا به ؛ ثم عرفه
صاحب الفضيلة ؛ فهو أكمل مما عرفه ابتداء .

ومنها الاعتبار بحال أبوى الإنس والجن ؛ وبيان فضل آدم ؛ وأفضال
الله عليه ؛ وعداوة إبليس له ؛ إلى غير ذلك من العبر .

لما خلق الله آدم وفضله ؛ أتم نعمته عليه ؛ بأن خلق منه زوجه ؛
ليسكن إليها ؛ ويستأنس بها ؛ وأمرها بسكنى الجنة ؛ والأكل منها رغداً ؛
أى : واسعاً هنيئاً .

[حيث شئتما] أى : من أصناف الثمار والفواكه ؛ وقال الله له :

[إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى . وأنتك لا تنظمأ فيها ولا تضحى] .

[ولا تقربا هذه الشجرة] نوع من أنواع شجر الجنة ؛ الله أعلم بها .

وإنما نهاهما عنها امتحاناً وابتلاءً ؛ أو لحكمة غير معلومة لنا .

[فتكونا من الظالمين] دل على أن النهى للتحريم ؛ لأنه رتب الظلم عليه .

الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَلَّهَمَّا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا
أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ
إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما ويزين لهما تناول ما نهيا عنه ؛ حتى أزلهما
أى : حملهما على الزلل بتزيينه .

[وقاهما] بالله [إنى لكما لمن الناصحين] فاعترا به وأطاعاه ؛ فأخرجهما
مما كانا فيه ؛ من النعيم والرغد ؛ وأهبطوا إلى دار التعب والنصب
والجاهدة .

[بعضكم لبعض عدو] أى : آدم وذريته ؛ أعداء لإبليس وذريته .
ومن المعلوم أن العدو ؛ يجد ويجتهد فى ضرر عدوه وإيصال الشر إليه
بكل طريق ؛ وحرمانه الخير بكل طريق .

ففى ضمن هذا ، تحذير بنى آدم من الشيطان كما قال تعالى [إن الشيطان
لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .]
[أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا] .
ثم ذكر منتهى الإهباط فقال [ولكم فى الأرض مستقر] أى : مسكن
وقرار .

[ومتاع إلى حين] انقضاء آجالكم ، ثم تنتقلون منها للدار التى خلقت
لها ، وخلقت لكم .

ففيها أن مدة هذه الحياة ، مؤقتة عارضة ، ليست مسكنا حقيقياً ، وإنما
هى معبر يتزود منها لتلك الدار ، ولا تعمر للاستقرار .

﴿فَتَأْتَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧)

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى
فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨)

[فتاى آدم] أى : تلقف وتلقن ، وألمه الله [من ربه كلمات] وهى
قوله [ربنا ظلمنا أنفسنا] الآية .

فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته [فتاب] الله [عليه] ورحمه [إياه]
هو التواب [لمن تاب إليه وأذاب .
وتوبته نوعان :

توفيقه أولاً ، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً .

[الرحيم] بعباده ، ومن رحمته بهم ، أن وفقهم للتوبة ، وعفا عنهم
وصفح .

كرر الإهباط ، ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله [فإما يأتينكم منى هدى]
أى : أى وقت وزمان جاءكم منى ، يا معشر الثقلين ، هدى ، أى :
رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم منى ، ويدنيكم منى ، ويدنيكم من رضى .
فمن تبع هداى منكم ، بأن آمن برسلى وكتبى ، واهتدى بهم ، وذلك
بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب ، والامتنال للأمر والاجتناب للنهى .
[فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون] .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

وفي الآية الأخرى [فمن اتبع هداى ، فلا يضل ولا يشقى] .

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء :

نقى الخوف ، والحزن ، والفرق بينهما ، أن المكروه إن كان قد مضى ،
أحدث الحزن ، وإن كان منتظراً ، أحدث الخوف .

فنفاهما عن اتباع الهدى وإذا انتفيا ، ثبت ضدما ، وهو الهدى والسعادة .

فمن اتبع هداه ، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى .

وانتفى عنه كل مكروه ، من الخوف ، والحزن ، والضلال ، والشقاء .

فحصل له الرغوب ، واندفع عند الرهوب .

وهذا عكس من لم يتبع هداه ، فكثرت به ، وكذب آياته .

فأولئك أصحاب النار ، أى : الملائمون لها ، ملازمة الصاحب لصاحبه ،

والغريم لغريمه .

[هم فيها خالدون] لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم

ينصرون .

وفي هذه الآيات وما أشبهها ، انقسام الخلق من الجن والإنس ، إلى

أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، وفيها صفات الفريقين والأعمال

الموجبة لذلك .

وأن الجن كالإنس فى انثواب والعقاب ، كما أنهم مثلهم ، فى الأمر

والنهى .

يٰۤاَيُّهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَاَوْفُوا بِعَهْدِيْ اَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَاِيَّيَّ فَاَرْهَبُوْنَ ﴿٤٠﴾ وَاٰمِنُوْا بِمَا

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمه عليهم وإحسانه فقال :

[يا بني إسرائيل] المراد بإسرائيل ، يعقوب عليه السلام .

والخطاب مع فرق بني إسرائيل ، الذين بالمدينة وما حولها ، ويدخل
فيهم من أتى بعدهم ، فأمرهم بأمر عام فقال [اذكروا نعمتي التي أنعمت
عليكم] ، وهو يشمل سائر النعم ، التي سيذكر في هذه السورة بعضها .
والمراد ذكرها بالقلب ، اعترافا ، وباللسان ، ثناء ، وبالجوارح ، باستعمالها
فيما يحبه ويرضيه .

[وأوفوا بعهدي] وهو ما عهده إليهم من الإيمان به ، وبرسله ،
وإقامة شرعه .

[أوف بعهدكم] وهو المجازاة على ذلك .

وللرأد بذلك : ما ذكره الله في قوله [ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل
وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم
الزكاة وآمنتم برسلي] إلى قوله [فقد ضل سواء السبيل] .
ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده ، وهو الرهبة منه تعالى ،
وخشيته وحده ، فإن من خشية ، أوجب له خشيته ، امثال أمره ،
واجتناب نهيه .

ثم أمرهم بالأمر الخاص ، الذي لا يتم إيمانهم ، ولا يصح إلا به فقال :
[وآمنوا بما أنزلت] وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله
عليه وسلم .

أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا

فَأمرهم بالإيمان به ، واتباعه ، ويستلزم ذلك ، الإيمان بمن أنزل عليه .
وذكر الداعي لإيمانهم فقال [مصدقا لما معكم] أى : موافقا له
لا مخالفاً ولا مناقضاً .

فإذا كان موافقا لما معكم من الكتب ، غير مخالف لها ، فلا مانع
لكم من الإيمان به ، لأنه جاء بما جاء به المرسلون ، فأنتم أولى من آمن
به وصدق به ، لكونكم أهل الكتب والعلم .

وأيضاً فإن في قوله [مصدقا لما معكم] إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا
به ، عاد ذلك عليكم ، بتكذيب ما معكم ، لأن ما جاء به هو الذى جاء به موسى
وعيسى وغيرهما من الأنبياء .

فتكذيبكم له تكذيب لما معكم .

وأيضاً ، فإن في الكتب التى بأيديكم ، صفة هذا النبى الذى جاء بهذا
القرآن والبشارة به .

فإن لم تؤمنوا به ، كذبتكم بعض ما أنزل إليكم ، ومن كذب ببعض
ما أنزل إليه ، فقد كذب بجميعه .

كما أن من كفر برسوله ، فقد كذب الرسل جميعهم .

فلما أمرهم بالإيمان به ، نهاهم وحذروهم عن ضده وهو الكفر به فقال :
[ولا تكونوا أول كافر به] أى : بالرسول والقرآن .

وقوله [أول كافر به] أبلغ من قوله [ولا تكفروا به] لأنهم إذا
كانوا أول كافر به ، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر ، عكس ما ينبغى منهم ،

بَيِّاتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم .
ثم ذكر المانع لهم من الإيمان ، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة
الأبدية فقال [ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً] وهو ما يحصل لهم من المناصب
والمآكل ، التي يتوهمون انقطاعها ، إن آمنوا بالله ورسوله ، فاشتروها
بآيات الله واستحبوها ، وآثروها .

[وإيأي] أى : لا غيرى [فاتقون] فإنكم إذا اتقيتم الله وحده ،
أوجبت لكم تقواه ، تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل .
كما أنكم ، إذا اخترتم الثمن القليل ، فهو دليل على ترحل التقوى من
قلوبكم .

ثم قال [ولا تلبسوا] أى : تخلطوا [الحق بالباطل وتكتموا الحق]
فهاهم عن شيئين ، عن خلط الحق بالباطل ، وكتان الحق ،
لأن المقصود من أهل الكتب والعلم ، تمييز الحق ، وإظهار الحق ،
ليهتدى بذلك المهتدون ، ويرجع الضالون ، وتقوم الحجة على المعاندين .
لأن الله فصل آياته ، وأوضح بيناته ، ليميز الحق من الباطل ، ولتستبين
سبيل المجرمين .

فن عمل بهذا من أهل العلم ، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم .
ومن لبس الحق بالباطل ، فلم يميز هذا من هذا ، مع علمه بذلك ، وكتّم
الحق الذى يعلمه ، وأسر بإظهاره ، فهو من دعاة جهنم ، لأن الناس لا يقتدون
فى أمر دينهم بغير علمائهم ، فاختراروا لأنفسكم إحدى الحالتين .

وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَارْكُوعًا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾
﴿٤٤﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنتُمْ
تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

ثم قال [وأقيموا الصلاة] أي: ظاهراً وباطناً [وآتوا الزكاة] مستحقيها.
[واركعوا مع الراكعين] أي: صلوا مع المصلين.

فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعتم بين
الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للعبود، والإحسان إلى عبيده
وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله [واركعوا مع الراكعين] أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر
بالجماعة للصلاة ووجوبها.

وفيه أن الركوع، ركن من أركان الصلاة لأنه عبر عن الصلاة بالركوع.
والتعبير عن العبادة بجزئها، يدل على فرضيته فيها.

[أتأمرون الناس بالبر] أي: بالإيمان والخير [وتنسون أنفسكم]
أي تتركونها عن أمرها بذلك، والحال [وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون].

وسمى العقل عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره.
وذلك أن العقل يحث صاحبه، أن يكون أول فاعل لما يأمر به،
وأول تارك لما ينهى عنه.

فمن أمر غيره بالخير ، ولم يفعله ، أو نهاه عن الشر فلم يتركه ، دل على عدم عقله وجهله ، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك ، قد قامت عليه الحجة . وهذه الآية ، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل ، فهي عامة لكل أحد لقوله تعالى :

[يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون] .

وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به ، أنه يترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين . وإلا فمن العلوم أن على الإنسان واجبين :

أمر غيره ونهيه ، وأمر نفسه ونهيه .

فترك أحدهما ، لا يكون رخصة في ترك الآخر .

فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين ، والنقص الكامل أن يتركهما .

وأما قيامه بأحدهما دون الآخر ، فليس في رتبة الأول ، وهو دون الأخير .

وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الاتقياد لمن يخالف قوله فعله .

فاقتدأهم بالأفعال ، أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة .

﴿٤٥﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّ هُمْ إِلَىٰ

أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه .
وهو الصبر عن معصية الله حتى يتركها ، والصبر على أقدار الله المؤلة
فلا يتسخطها .

فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه ، معونة عظيمة على
كل أمر من الأمور ، ومن يتصبر يصبره الله .

وكذلك الصلاة ، التي هي ميزان الإيمان ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ،
يستعان بها على كل أمر من الأمور [وإنها] أي : الصلاة [لكبيرة]
أي : شاقة [إلا على الخاشعين] .

فإنها سهلة عليهم خفيفة ، لأن الخشوع ، وخشية الله ، ورجاء ما عنده ،
يوجب له فعلها ، منشرحاً صدره ، لترقبه للثواب ، وخشيته من العقاب .

بخلاف من لم يكن كذلك ، فإنه لا داعي له يدعو إليها ، وإذا فعلها
صارت من أثقل الأشياء عليه .

والخشوع هو : خضوع القلب وطمانينته ، وسكوته لله تعالى ،
وانكساره بين يديه ، ذلاً وافتقاراً ، وإيماناً به وبلقائه .

ولهذا قال [الذين يظنون] أي : يستيقنون [أنهم ملاقو ربهم]
فيجازيهم بأعمالهم [وأنهم إليه راجعون] فهذا الذي خفف عليهم العبادات
وأوجب لهم التسلي في المصيبات ، ونفس عنهم الكربات ، وزجرهم عن فعل
السيئات .

رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَدْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ
عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات .

ومن لم يؤمن بقاء ربه ، كانت الصلاة وغيرها من العبادات ، من أشق
شيء عليه .

ثم كرر على بني إسرائيل التذكير بنعمته ، وعظماً لهم ، وتحذيراً وحثاً ،
وخوفهم بيوم القيامة الذي [لا تجزى] فيه أى : لا تغنى [نفس] ولو كانت
من الأنفس الكريمة كالأنبياء والصالحين [عن نفس] ولو كانت من
العشيرة الأقربين [شيئاً] لا كبيراً ولا صغيراً وإنما ينفع الإنسان عمله
الذي قدمه .

[ولا يقبل منها] أى : النفس ، شفاعة لأحد بدون إذن الله ورضاه
عن المشفوع له ، ولا يرضى منه العمل إلا ما أريد به وجهه وكان على
السبيل والسنة .

[ولا يؤخذ منها عدل] أى : فداء « ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض
جميعاً ومثله معه لافتقدوا به من سوء العذاب » ولا يقبل منهم ذلك [ولا هم
ينصرون] أى : يدفع عنهم المكروه .

فنفى الانتفاع من الخلق بوجه من الوجوه .

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ يُدَبِّجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ

فقوله [لا تجزى نفس عن نفس شيئاً] هذا فى تحصيل المنافع .
[ولا هم ينصرون] هذا فى دفع المضار ، فهذا النفى للأمر المستقبل
به النافع .

ولا تقبل منها شفاعه ، ولا يؤخذ منها عدل ، هذا نفى للنفع الذى يطلب
من يملكه بعوض ، كالعدل ، أو بغيره ، كالشفاعة .

فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالخلقين ، لعلمه أنهم
لا يملكون له مثقال ذرة من النفع ، وأن يعلقه بالله الذى يجلب المنافع ،
ويدفع المضار ، فيعبده وحده لا شريك له ويستعين على عبادته .

هذا شروع فى تعداد نعمه على بنى إسرائيل على وجه التفصيل فقال :
[وإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ] أى : من فرعون وملائه وجنوده وكانوا
قبل ذلك [يسومونكم] أى : يولونهم ويستعملونهم (والمعنى يذيقونكم) .
[سوء العذاب] أى أشده بأن كانوا [يذبحون أبناءكم] خشية نموكم .

[ويستحيون نساءكم] أى : فلا يقتلونهن فأنتم بين قتل ومذل
بالأعمال الشاقة مستحي على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة
فن الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقر أعينهم .

[وفى ذلك] أى : الإنجاء [بلاء] أى : إحسان [من ربكم عظيم] .
فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره .

ثم ذكر مفته عليهم بوعد موسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة
المتضمنة للنعم العظيمة والمصالح العميمة .

مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا
 آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
 ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ
 مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَّا كُمُ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ
 وَالْفُرْقَانَ لَعَّا كُمُ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ
 إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ
 فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
 إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ
 حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾

ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده ،
 أي ذهابه .

[وأنتم ظالمون] تعلمون بظلمكم ، قد قامت عليكم الحجة ، فهو أعظم
 جرماً وأكبر إثماً .

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً فعفا
 الله عنكم بسبب ذلك [لعلكم تشكرون] الله .

[وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة] وهذا غاية
 الجرأة على الله وعلى رسوله .

[فأخذتكم الصاعقة] إما الموت أو العنيفة العظيمة .

[وأنتم تنظرون] وقوع ذلك ، كل ينظر إلى صاحبه .

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾
وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا أَلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ

[ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون].

ثم ذكر نعمته عليهم في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق
فقال [وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن] وهو اسم جامع لكل رزق
يحصل بلا تعب ومنه الزنجبيل والكأء والخبز وغير ذلك .

[والسلوى] طائر صغير يقال له السمانى طيب اللحم فكان ينزل عليهم
من المن والسلوى ما يكفيهم ويقتيهم [كلوا من طيبات ما رزقناكم]
أى : رزقا لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين ، فلم يشكروا هذه النعمة ،
واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب .

[وما ظلمونا] يعنى بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره
معصية العاصين ، كما لا تنفعه طاعات الطائعين .

[ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] فيعود ضرره عليهم .

وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه ، فأمرهم بدخول قرية
تكون لهم عزا ووطنا ومسكنا ، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد وأن يكون

خَطَايَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ قَبَدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ
الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يُفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ

دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل ، وهو دخول الباب سجداً ، أى :
خاضعين ذليلين .

وبالقول ، وهو أن يقولوا [حطة] أى أن يحط عنهم خطاياهم بسؤالهم
إياه مغفرته .

[يغفر لكم خطاياكم] بسؤالكم المغفرة .

[وسنزيد المحسنين] بأعمالهم ، أى جزاء عاجلاً وآجلاً .

[فبدل الذين ظلموا] منهم ، ولم يقل فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلوا
[قولاً غير الذى قيل لهم] فقالوا بدل حطة حبة فى حنطة استهانة بأمر الله ،
واستهزاء وإذا بدلوا القول مع خفته فتبدلهم للفعل من باب أولى وأحرى .

ولهذا دخلوا يزحفون على أديبارهم ، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب
لوقوع عقوبة الله بهم قال [فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا « منهم » رِجْزًا] .

أى : عذاباً [من السماء بما كانوا يفسقون] بسبب فسقهم وبغيهم .

استسقى ، أى : طلب لهم ماء يشربون منه .

[قُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ] إما حجر مخصوص معلوم عنده ،
وإما اسم جنس .

الْحَجَرَ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدْسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ

[فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا] وقبائل بنى إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة.
[قد علم كل أناس مشربهم] أى: محلهم الذى يشربون عليه من هذه
الآعين، فلا يزاحم بعضهم بعضا، بل يشربونه متهئين لا متكدرين،
ولهذا قال [كلوا واشربوا من رزق الله] أى: الذى آتاكم من غير سعى
ولا تعب.

[ولا تعموا فى الأرض] أى: تخربوا على وجه الإفساد.
أى: واذكروا، إذ قلتم لموسى، على وجه التملل لنعم الله والاحتقار لها.
[لن نصبر على طعام واحد] أى: جنس من الطعام، وإن كان كما
تقدم أنواعا، لكنها لا تتغير.

[فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها] أى: نباتها
الذى ليس بشجر يقوم على ساقه.

[وقشائها] وهو الخيار [وفومها] أى ثومها، (وعدسها وبصلها)
والمدس والبصل معروف.

أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ
وَالْمُسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

قال لهم موسى [أتستبدلون الذى هو أدنى] وهو الأطعمة المذكورة .
[بالذى هو خير] وهو المن والسلوى ، فهذا غير لائق بكم .
فإن هذه الأطعمة التى طلبتموها ، أى مصر هبطتموه وجدتموها .
وأما طعامكم الذى من الله به عليكم ، فهو خير الأطعمة وأشرفها ،
فكيف تطلبون به بدلا ؟
ولما كان الذى جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم
لأوامر الله ونعمه ، جازاهم من جنس عملهم فقال [وضربت عليهم الذلة]
التي تشاهد على ظاهر أبدانهم [والمسكنة] بقلوبهم .
فلم تكن أنفسهم عزيزة ، ولا لهم همم عالية ، بل أنفسهم أنفس
مهينة ، وهمهم أردأ الهمم .
[وباءوا بغضب من الله] أى : لم تكن غنيمتهم التى رجعوا بها
وفازوا ، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم ، فبئست الغنيمة غنيمتهم ، وبئست
الحالة حالهم .
[ذلك] الذى استحقوا به غضبه [بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله]
الدالات على الحق الموضحة له ، فلما كفروا بها ، عاقبهم بغضبه عليهم ، وبما
كانوا [يقتلون النبيين بغير حق] .

وقوله [بغير حق] زيادة شناعة ، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبيين ، لا يكون بحق ، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم .

[ذلك بما عصوا] بأن ارتكبوا معاصي الله [وكانوا يعتدون] على عباد الله ، فإن المعاصي يجر بعضها بعضا .

فالفلة ينشأ عنها الذنب الصغير ، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير ، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك ، فنسأل الله العافية من كل بلاء .

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بنى إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن ، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم ، ونسبت لهم لفوائد عديدة .

منها أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم ، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به .

فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تقررت عندهم ، مايبين به لكل واحد منهم ، أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ، ومعالي الأعمال .

فإذا كانت هذه حالة سلفهم — مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ، ممن بعدهم — فكيف الظان بالخطابين ؟ !! .

ومنها أن نعمة الله على المتقدمين منهم ، نعمة واصله إلى المتأخرين ، والنعمة على الآباء ، نعمة على الأبناء .

فخوطبوا بها ، لأنها نعم تشملهم وتعمهم .

ومنها أن الخطاب لم بأفعال غيرهم ، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على

﴿٦٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

دين تتكافل وتتساعد على مصالحها ، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت
واحد ، وكان الحادث من بعضهم حادثا من الجميع .

لأن ما يعمل به بعضهم من الخير ، يعود بمصلحة الجميع ، وما يعمل من
الشر يعود بصمر الجميع .

ومنها : أن أفعالهم أكثرها لم ينكرها ، والراضى بالمعصية شريك
للعاصي .

إلى غير ذلك من الحكم ، التي لا يعدها إلا الله .

ثم قال تعالى حاكما بين الفرق الكتابية [إن الذين آمنوا والذين هادوا
والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فاهم أجروهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون] .

وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة ، لأن الصابئين ، الصحيح ،
أنهم من جملة فرق النصارى .

فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة ، واليهود والنصارى ، والصابئين
من آمن بالله واليوم الآخر ، وصدقوا رسالهم ، فإن لهم الأجر العظيم ،
والأمن ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وأما من كفر منهم بالله ورساله واليوم الآخر ، فهو بضد هذه الحال ،
فعليه الخوف والحزن .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَاءً اتَّيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف ، من حيث هم ، لا بالنسبة
إلى الإيمان بمحمد ، فإن هذا ، إخبار عنهم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم
وأن هذا مضمون أحوالهم .

وهذه طريقة القرآن ، إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات
بعض الأوهام ، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم ، لأنه تنزيل ممن يعلم
الأشياء قبل وجودها ، ومن رحمته وسعت كل شيء .

وذلك — والله أعلم — أنه لما ذكر بنى إسرائيل وذمهم ، وذكر
معاصيهم وقبائحهم ، ربما وقع في بعض النفوس ، أنهم كلهم يشابهونهم .
فأراد الباري تعالى أن يبين من لا يلحقه الذم منهم بوصفه .

ولما كان أيضاً ، ذكر بنى إسرائيل خاصة ، يوم الاختصاص بهم ،
ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها ، ليتضح الحق ، ويزول التوهم
والإشكال .

فسبحان من أودع في كتابه ، ما بهر عقول العالمين .

ثم عاد تبارك وتعالى يوضح بنى إسرائيل بما فعل سلفهم فقال :

[وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ] الآية .

أى : واذكروا [إذ أخذنا ميثاقكم] وهو العهد الثقيل المؤكد

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥) ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٦٦) ﴿

بالتخويف لهم ، برفع الطور فوقهم وقيل لهم [خذوا ما آتيناكم] من التوراة [بقوة] أى : بجهد واجتهاد ، وصبر على أوامر الله .

[واذكروا ما فيه] أى : ما فى كتابكم ، بأن تتلوه وتتعلموه .

[لعلكم تتقون] عذاب الله وسخطه ، أو لتكونوا من أهل التقوى .

فبعد هذا التأكيد البليغ [توليتهم] وأعرضتم ، وكان ذلك موجبا لأن يحل بكم أعظم العقوبات .

ولكن [لولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين] .

[ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت] أى : ولقد تقرر عندهم

حالة [الذين اعتدوا منكم فى السبت] وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسطة فى سورة الأعراف فى قوله [واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت] الآيات .

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم ، أن غضب الله عليهم ، وجعلهم [قردة خاسئين] حثيرين ذليلين .

وجعل الله هذه العقوبة [نكالا لما بين يديها] أى : لمن حضرها من

الأمم ، وبلغه خبرها ، ممن هو فى وقتهم .

[وما خلفها] أى : من بعدها ، فتقوم على العباد حجة الله ، وليرتدعوا

عن معاصيه ، ولاكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين .

وأما من عداهم ، فلا ينتفعون بالآيات

﴿١٧﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ

أى : واذكروا ما جرى لكم مع موسى ، حين قتلتم قتيلا ، فادارتم فيه ، أى : تدافعتم واختلتم في قاتله ، حتى تفاقم الأمر بينكم وكاد — لولا تبين الله لكم — يحدث بينكم شر كبير .
فقال لكم موسى في تبين القاتل : اذبحوا بقرة .

وكان من الواجب، المبادرة إلى امتثال أمره ، وعدم الاعتراض عليه .
ولكنهم أبوا إلا الاعتراض ، فقالوا : [أتتخذنا هزوا] فقال نبي الله [أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين] .

فإن الجاهل هو الذى يتكلم بالكلام الذى لا فائدة فيه ، وهو الذى يستهزئ بالناس .

وأما العاقل ، فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل ، استهزائه بمن هو آدمي مثله . وإن كان قد فضل عليه ، فتفضيله يقتضى منه الشكر لربه ، والرحمة لعباده .

فلما قال لهم موسى ذلك ، علموا أن ذلك صدق فقالوا [ادع لنا ربك يبين لنا ما هي] أى : ما سنها [قال إنه يقول : إنها بقرة لا فارض] أى : كبيرة [ولا بكر] أى : صغيرة [عوان بين ذلك] أى : متوسطة بين السنين ، المذكورين سابقا . وهما الصغر والكبر .

وَلَا يَكُرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ مُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظَّارِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ مُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ

[فافعلوا ما تؤمرون] واطرکوا التشديد والتعنت .

[قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال : إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها] أى : شديد [تسر الناظرين] من حسنها .

[قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا] فلم نهتد إلى ما تريد [وإنا إن شاء الله لمهتدون] . قال : إنه يقول إنها بقرة لا ذلول أى مذلة بالعمل .

[تشير الأرض] بالحراثة [ولا تسقى الحرث] أى : ليست بسانية [مسلمة] من العيوب أو من العمل [لاشية فيها] أى : لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم .

[قالوا الآن جئت بالحق] أى : بالبيان الواضح .

وهذا من جهلهم ، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة .

فلو أنهم اعترضوا أى بقرة ، لحصل المقصود ، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم ، ولو لم يقولوا « إن شاء الله » لم يهتدوا أيضاً إليها . [فذبحوها] أى : البقرة التي وصفت بتلك الصفات .

[وما كادوا يفعلون] بسبب التعنت الذي جرى منهم .

فلما ذبحوها ، قلنا لهم اضربوا القليل ببعضها ، أى : بعضو منها ،

تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا آلَيْنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْنَا اضْرِبُوهُ بِيَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ

إما بعضو معين ، أو أى عضو منها ، فليس فى تعيينه فائدة ، فضر به ببعضها فأحياء الله ، وأخرج ما كانوا يكتمون ، فأخبر بقاتله .

وكان فى إحيائه — وهم يشاهدون — ما يدل على إحياء الله الموتى .
لعلكم تعقلون ، فتزجرون عن ما يضركم .

[ثم قست قلوبكم] أى : اشتدت وغلظت ، فلم تؤثر فيها الموعظة .
[من بعد ذلك] أى : من بعد ما أنعم الله عليكم بالنعم العظيمة ،
وأراكم الآيات .

ولم يكن ينبغى أن تقسو قلوبكم ، لأن ما شاهدتم ، مما يوجب رقة القلب وانقياده .

ثم وصف قسوتها بأنها [كالْحِجَارَةِ] التى هى أشد قسوة من الحديد .
لأن الحديد والرصاص إذا أذيب فى النار ، ذاب ، بخلاف الأحجار .
وقوله [أو أشد قسوة] أى : إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار .

وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

ولست «أو» بمعنى «بل» .

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم فقال [وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله] فهذه الأمور فضلت قلوبكم .

ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد فقال [وما الله بغافل عما تعملون] بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها ، وسيجازيكم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه .
واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله ، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بنى إسرائيل ، ونزلوا عليها الآيات القرآنية ، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله ، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ﴾ .

والذى أرى أنه ، وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه ، تكون مفردة غير مقرونة ، ولا منزلة على كتاب الله ، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن مرتبتها كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴾ .

فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها ، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به وانقطع بالفاظه ومعانيه .

﴿٧٥﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ
قَالُوا اتَّخَذُوا آلَهُمُ الْبِرِّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ

فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة ، التي يغلب
على الظن كذبها ، أو كذب أكثرها ، معاني لكتاب الله ، متطوعا بها ،
ولا يستريب بهذا أحد .

ولكن بسبب الغفلة عن هذا ، حصل ما حصل . والله الموفق .

هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب ، أى : فلا تطمعوا
فى إيمانهم .

وأخلاقهم لا تقتضى الطمع فيهم ، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من
بعد ما عقلوه وعلوه ، فيضعون له معانى ، ما أرادها الله ، ليوهما الناس
أنها من عند الله ، وما هى من عند الله .

فإذا كانت حالهم فى كتابهم الذى يرونه شرفهم ودينهم يصدون به
الناس عن سبيل الله ، فكيف يرجى منهم إيمان لكم ؟ ! .
فهذا من أبعد الأشياء .

ثم ذكر حال منافق أهل الكتاب فقال [وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا
آمنّا] فأظهروا لهم الإيمان قولا بالسنتهم ، ما ليس فى قلوبهم .

وَمَا يُعَانُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ
وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

[وإذا خلا بعضهم إلى بعض] فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم
قال بعضهم لبعض : [أتحدثونهم بما فتح الله عليكم] أى : أتظهرون لهم
الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم ، فيكون ذلك حجة لهم عليكم ؟ .
يقولون : إنهم قد أقرؤا بأن ما نحن عليه حق ، وما هم عليه باطل ،
فيحتجون عليكم بذلك عند ربهم .

[أفلا تعقلون] أى : أفلا يكون لكم عقل ، فتتركون ما هو حجة
عليكم ؟ . هذا يقوله بعضهم لبعض .

[أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون] فهم وإن أسروا
ما يعتقدونه فيما بينهم ، وزعموا أنهم بإسرارهم ، لا يتطرق إليهم حجة
للمؤمنين ، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير ، فإن الله يعلم سرهم وعلمهم ،
فيظهر لعباده ما هم عليه .

[ومنهم] أى : من أهل الكتاب [أميون] أى : عوام ، وليسوا
من أهل العلم .

[لا يعلمون الكتاب إلا أمانى] أى : ليس لهم حظ من كتاب الله
إلا التلاوة فقط ، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة
حالم ، وهؤلاء ، إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم .

فذكر في هذه الآيات علماءهم ، وعوامهم ، ومناقبيهم ، ومن لم ينافق
منهم ، فالعلماء منهم ، متمسكون بما هم عليه من الضلال .

والعوام مقلدون لهم ، لا بصيرة عندهم فلا مطعم لكم في الطائفتين .

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩)

توعد تعالى المحرفين للكتاب ، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون [هذا من عند الله] وهذا فيه إظهار الباطل وكنم الحق ، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم [ليشتروا به ثمنًا قليلًا] .
والدنيا كلها - من أولها إلى آخرها ثمن - قليل .
فجعلوا باطلهم شركا يصطادون به ما في أيدي الناس ، فظلموهم من وجهين :

من جهة تلبيس دينهم عليهم ، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق ، بل بأبطل الباطل ، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبا وسرقة ونحوها .
ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال [فويل لهم مما كتبت أيديهم]
أى : من التحريف والباطل [وويل لهم مما يكسبون] من الأموال .
والويل : شدة العذاب والحسرة ، وفي ضمنها الوعيد الشديد .

قال شيخ الإسلام^(١) لما ذكر هذه الآيات من قوله (أفنطمعون) إلى (يكسبون) : فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة ، على ما أصله من البدع الباطلة .
وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، وهو متناول لمن ترك سر تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه .

ومتناول لمن كتب كتابا بيده ، مخالفاً لكتاب الله ، لينال به دنيا

(١) هو ابن تيمية رحمه الله ورضى عنه .

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَإِنْ يُخَافِ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ

وقال : إنه من عند الله ، مثل أن يقول : هذا هو الشرع والدين ، وهذا معنى الكتاب والسنة ، وهذا معقول السلف والأئمة ، وهذا هو أصول الدين ، الذى يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية .
ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة ، لئلا يحتج به مخالفه فى الحق الذى يقوله .

وهذه الأمور كثيرة جداً فى أهل الأهواء جملة ، كالرافضة ، وتفصيلاً مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء . انتهى .

ذكر أفعالهم القبيحة ، ثم ذكر - مع هذا - أنهم يزكون أنفسهم ، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله ، والفوز بثوابه ، وأنهم لم تمسهم النار إلا أياماً معدودة ، أى : قليلة تعد بالأصابع ، فجمعوا بين الإساءة والأمن .
ولما كان هذا مجرد دعوى ، رد الله تعالى عليهم فقال :

[قل] لهم ، يا أيها الرسول [أتخذتم عند الله عهداً] أى بالإيمان به وبرسوله وبطاعته ، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذى لا يتغير ولا يتبدل .

[أم تقولون على الله ما لا تعلمون] ؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم ومتوقف على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما .

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً ، فتكون دعواهم صحيحة .
وإما أن يكونوا متعواين عليه ، فتكون كاذبة ، فيكون أبلغ لحزبهم عذابهم .

مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٢﴾

وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً ، امتكذيبهم كثيراً من
الأنبياء ، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم ، ولنكولهم عن
طاعة الله ونقضهم المواثيق .

فتمعين بذلك ، أنهم متقولون مختلفون ، قائلون عليه ما لا يعلمون .

والقول عليه بلا علم ، من أعظم المحرمات ، وأشنع القبيحات .

ثم ذكر تعالى ، حكماً عاماً لكل أحد ، يدخل فيه بنو إسرائيل وغيرهم ،
وهو الحكم الذي لا حكم غيره ، لا أمانيتهم ودعاويهم بصفة الهالكين
والناجين فقال : [بلى] أى : ليس الأمر كما ذكرتم ، فإنه قول لا حقيقة له .
ولكن [من كسب سيئة] وهو نكرة في سياق الشرط ، فيعم الشرك
فما دونه .

والمراد به : - هنا - الشرك ، بدليل قوله [وأحاطت به خطيئته] أى : أحاطت
بعامليها ، فلم تدع له منفذاً ، وهذا لا يكون إلا الشرك ، فإن من معه الإيمان
لا تحيط به خطيئته .

[فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] وقد احتج بها الخوارج على
كفر صاحب العصية ، وهى حجة عليهم كما ترى ، فإنها ظاهرة فى الشرك ،
وهكذا كل مبطل يحتج بآية ، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن
يكون فيما احتج به حجة عليه .

وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ

[والذين آمنوا] بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .
[وعملوا الصالحات] ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين :
أن تكون خالصة لوجه الله ، متبعاً بها سنة رسوله .
فأصل هاتين الآيتين ، أن أهل النجاة والفوز ، هم أهل الإيمان
والعمل الصالح .

والهالكون أهل النار هم المشركون بالله ، الكافرون به .
فهذه الشرائع من أصول الدين ، التي أمر الله بها في كل شريعة ،
لاشتمالها على المصالح العامة ، في كل زمان ومكان ، فلا يدخلها نسخ ، كأصل
الدين .

ولهذا أمرنا بها في قوله [واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً] إلى
آخر الآية .

فقوله [وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل] هذا من قسوتهم أن كل أمر
أمروا به ، استعصوا (١) فلا يقبلونه إلا بالآيمان الغليظة ، والعهود الموثقة .
[لا تعبدون إلا الله] هذا أمر بعبادة الله وحده ، ونهى عن الشرك به .
وهذا أصل الدين ، فلا تقبل الأعمال كلها ، إن لم يكن هذا أساسها ،
فهذا حق الله تعالى على عباده ، ثم قال :

(١) قوله (أن كل أمر أمروا به . إلخ) هكذا في الأصل ، والعبارة
قلقة كما ترى والأوضح أن يقال (أنهم كلما أمروا بأمر ، استعصوا . إلخ) .

حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

[وبالوالدين إحسانا] أى : أحسنوا بالوالدين إحسانا .
وهذا يعنى كل إحسان ، قولى ، وفعلى ، مما هو إحسان إليهم .
وفيه النهى عن الإساءة إلى الوالدين ، أو عدم الإحسان والإساءة .
لأن الواجب ، الإحسان ، والأمر بالشئ ، نهى عن ضده .
وللإحسان ضدان : الإساءة ، وهى أعظم جرما .
وترك الإحسان بدون إساءة ، وهذا محرم ، لكن لا يجب أن
يلحق بالأول .

وكذا يقال فى صلة الأقارب واليتامى ، والمساكين .
وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد ، بل تكون بالحد ، كما تقدم .
ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموما فقال : [وقولوا للناس حسنا] ومن
القول الحسن أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليمهم العلم ، وبذل
السلام ، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب .
ولما كان الإنسان لا يسمع الناس بماله ، أمر بأمر يقدر به على الإحسان
إلى كل مخلوق ، وهو الإحسان بالقول ، فيكون فى ضمن ذلك ، النهى عن
الكلام القبيح للناس حتى للكفار ، ولهذا قال تعالى : [ولا تجادلوا أهل
الكتاب إلا بالتي هى أحسن] .

ومن أدب الإنسان الذى أدب الله به عباده ، أن يكون الإنسان نزيها
فى أقواله وأفعاله ، غير فاحش ولا بذيء ، ولا شاتم ، ولا مخاصم .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤)

بل يكون حسن الخلق ، واسع الحلم ، مجاملا لكل أحد ، صبرا على ما يناله من أذى الخلق ، امتثالا لأمر الله ، ورجاء لثوابه .

ثم أمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود ، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد .

ثم بعد هذا الأمر لكم ، بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل ، عرف أن من إحسان الله على عباده ، أن أمرهم بها ، وتفضل بها عليهم ، وأخذ الواثيق عليكم [ثم توليتهم] على وجه الإعراض .

لأن التولى قد يتولى ، وله نية رجوع إلى ما تولى عنه .

وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر .

فنعوذ بالله من الخذلان .

وقوله [إلا قليلا منكم] هذا استثناء ، لثلاث يوم أنهم تولوا كلهم .

فأخبر أن قليلا منهم ، عصمهم الله وثبتهم .

وهذا الفعل المذكور في هذه الآية ، فعل للذين كانوا في زمن الوحي

بالمدينة .

وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي

صلى الله عليه وسلم مشركين ، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية .

فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود ، بنو قريظة ، وبنو النضير ،

وبنو قينفاع .

ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظْهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ تَقْدُواهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِّنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ

فكل فرقة منهم ، حالفت فرقة من أهل المدينة .

فكانوا إذا اقتتلوا ، أعان اليهودى حليفه على مقاتليه ، الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود ، فيقتل اليهودى اليهودى ، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب .

ثم إذا وضعت الحرب أوزارها ، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضا .

والأمور الثلاثة كلها ، قد فرضت عليهم .

ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض ، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، وإذا وجدوا أسيراً منهم ، وجب عليهم فداؤه .

فعملوا بالأخير وتركوا الأولين ، فأنكر الله عليهم ذلك فقال :

[أفْتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ] وهو فداء الأسير [وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ] وهو القتل والإخراج .

وفيه دليل على أن الإيمان ، يقتضى فعل الأوامر ، واجتناب النواهي وأن للأمورات من الإيمان قال تعالى :

[فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] وقد وقع ذلك .

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

فأخزاهم الله ، وسلط رسوله عليهم ، فقتل من قتل ، وسبي من سبي
منهم ، وأجلى من أجلى .

[ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب] أى : أعظمه [وما الله بغافل
عما تعملون] .

ثم أخبر تعالى عن السبب الذى أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب ،
والإيمان ببعضه فقال : [أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة] توهّموا
أنهم إن لم يعمينوا حلفاءهم حصل لهم عار ، فاختاروا النار على العار .

فلهذا قال : [فلا يخفف عنهم العذاب] بل : هو باق على شدته ،
ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات .

[ولا هم ينصرون] أى : يدفع عنهم مكروهه .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ
أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِّقَهَا كَذَبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

يمتن تعالى على بنى إسرائيل ، أن أرسل لهم كلمه موسى ، وآتاه
التوراة ، ثم تابع بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة ، إلى أن ختم أنبياءهم
بعيسى عليه السلام .

وآتاه من الآيات البينات ، ما يؤمن على مثله البشر .

[وأيدناه بروح القدس] أى : قواه الله بروح القدس .

قال أكثر المفسرين : إنه جبريل عليه السلام ، وقيل : إنه الإيمان
الذى يؤيد الله به عباده .

ثم مع هذه النعم التى لا يقدر قدرها ، لما أتوكم [بما لا تهوى أنفسكم
استكبرتم] عن الإيمان بهم .

[ففرقاً] منهم [كذبتم وفرقاً تقتلون] قدمتم الهوى على الهدى ،
وآثرتم الدنيا على الآخرة .

وفىها من التوبيخ والتشديد ، ما لا يخفى .

﴿١٨﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾

﴿١٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْهِجُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ بَشَرًا اشْتَرُوا بِهِ

أى : اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه ، يا أيها الرسول ، بأن قلوبهم غلف ، أى : عايبها غلاف وأغطية ، فلا تفقه ما تقول .

يعنى ، فيكون لهم — بزعمهم — عذر لعدم العلم ، وهذا كذب منهم .
فلهذا قال تعالى : [بل لعنهم الله بكفرهم] أى : أنهم مطرودون ملعونون ، بسبب كفرهم .

فقالوا ، المؤمن منهم ، أو قليلا ، إيمانهم . وكفرهم هو الكثير .
أى : ولما جاءهم من عند الله على يد أفضل الخلق ، وخاتم الأنبياء ، الكتاب المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة ، وقد علموا به ، وتيقنوه على أنهم إذا كان وقع بينهم وبين المشركين فى الجاهلية حروب ، استنصروا بهذا النبي ، وتوعدوهم بخروجه ، وأنهم يقاتلون المشركين معه .

فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذى عرفوا ، كفروا به ، بغيا وحسداً ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .

فإنهم الله ، وغضب عايبهم غضباً بعد غضب ، لكثرة كفرهم ، وتوالى شكهم وشركهم .

أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءً وَبَغْضٍ عَلَى الْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا
أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ

[ولهم في الآخرة عذاب مهين] أى : مؤلم موجع ، وهو صلى الجحيم ،
وفوت النعيم المقيم .

فبئس الحال حالهم ، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله
وكتبه ورسله ، الكفر به ، وبكثيره ، وبرسله ، مع علمهم وتيقنهم ، فيكون
أعظم لعذابهم .

أى : وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله ، وهو القرآن
استكبروا وعتوا ، و [قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه]
أى : بما سواه من الكتب .

مع أن الواجب أن يؤمنوا بما أنزل الله مطلقاً ، سواء أنزل عليهم ،
أو على غيرهم ، وهذا هو الإيمان النافع ، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسله .

وأما التفريق بين الرسل والكتب ، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض ،
فهذا ليس بإيمان ، بل هو الكفر بعينه ، ولهذا قال تعالى :

[إن الذين يكفرون بالله ورسله يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله

فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ

ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً] .

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ، رداً شافياً ، وأزهمهم إلزاماً لا محيد لهم عنه ، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين فقال : [وهو الحق] ، فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات ، والأوامر والنواهي ، وهو من عند ربهم ، فالكفر به — بعد ذلك — كفر بالله ، وكفر بالحق الذي أنزله .

ثم قال [مصداقاً لما معهم] أى : موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيئنا عليه .

فلم تؤمنوا بما أنزل عليكم ، وتسكفرون بنظيره ؟ .

هل هذا إلا تعصب ، واتباع للهوى لا للهدى ؟

وأيضاً ، فإن كون القرآن مصداقاً لما معهم ، يقتضى أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب ، فلا سبيل لهم إلى إبطالها إلا به .

فإذا كفروا به وجحدوه ، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينه ، ليس له غيرها ، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته ، ثم يأتي هو لبينته وحجته ، فيمدح فيها ويكذب بها ، أليس هذا من الحماقة والجنون ؟

فكان كفرهم بالقرآن ، كفراً بما في أيديهم ونقضاً له .

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله :

[قل] لهم [فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ . ولقد

جاءكم موسى بالبينات] أى : بالأدلة الواضحات المبينة للحق .

مُوسَىٰ بِأَلَيْسَتْ لَكُمْ أَن تَخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ
قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

ثم اتخذتم العجل من بعده [أى : بعد مجيئه] وأنتم ظالمون [فى ذلك
ليس لكم عذر .

[وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة
واسمعوا] أى : سماع قبول وطاعة واستجابة .

[قالوا سمعنا وعصينا] أى : صارت هذه حالتهم [وأشربوا فى قلوبهم
العجل] أى : صبغ حب العجل ، وحب عبادته ، فى قلوبهم ، وشربها
بسبب كفرهم .

[قل بئسما يأمركم به إيمانكم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] أى : أنتم تدعون
الإيمان وتتمدحون بالدين الحق ، وأنتم قتلتم أنبياء الله ، واتخذتم العجل
إلهاً من دون الله ، لما غاب عنكم موسى ، نبي الله ، ولم تقبلوا أوامره
ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم ، فالتزمت بالقول ،
ونقضتم بالفعل .

فما هذا الإيمان الذى ادعيتم ، وما هذا الدين ؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم ، فبئس الإيمان الداعى صاحبه إلى
الطغيان ، والكفر برسل الله ، وكثرة العصيان .

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً
مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ
أَبَدًا يَا قَدِّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ
أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ
أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْمَذَابِ إِنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٩٦)

وقد عهد أن الإيمان الصحيح ، بأمر صاحبه بكل خير ، وينهاه عن كل شر .

فوضح بهذا كذبهم ، وتبين تناقضهم .

* أى: [قل] لهم على وجه تصحيح دعواهم [إن كانت لكم الدار الآخرة] يعني الجنة [خالصة من دون الناس] كما زعمتم ، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، وأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة .

فإن كنتم صادقين في هذه الدعوى [فتمنوا الموت] وهذا نوع مباهلة بينهم ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم ، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله .

وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم ، وهو تمنى الموت الذى يوصلهم إلى الدار التى هى خالصة لهم ، فاهتمنوا من ذلك .

فلم كل أحد أنهم فى غاية المعاندة والحادة لله ورسوله ، مع علمهم بذلك .

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٧)
 مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ
 عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

ولهذا قال تعالى [ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم] من الكفر والمعاصي ، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة .
 فالموت أكره شيء إليهم ، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس ، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب .
 ثم ذكر شدة محبتهم الدنيا فقال : [يود أحدهم لو يعمر ألف سنة] .
 وهذا أبلغ ما يكون من الحرص ، تمنوا حالة هي من المحالات .
 والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور ، لم يغن عنهم شيئا ولا دفع عنهم من العذاب شيئا .

[والله بصير بما يعملون] تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم .
 * أي : قل لهؤلاء اليهود ، الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك ، أن وليك جبريل عليه السلام ، ولو كان غيره من ملائكة الله ، لآمنوا بك وصدقوا : إن هذا الزعم منكم ، تناقض وتهافت ، وتسكبر على الله .
 فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل القرآن من عند الله على قلبك ، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك ، والله هو الذي أمره ، وأرسله بذلك ، فهو رسول محض .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ يَبَيِّنُ مَا يَكْفُرُ بِهَا
 إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾
 أَوْ كَلَّمَآ عَهْدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

مع أن هذا الكتاب الذى نزل به جبريل - مصداقاً لما تقدمه من
 الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض ، وفيه الهداية التامة من أنواع
 الضلالات ، والبشارة بالخير الدنيوى والأخروى ، لمن آمن به .
 فالعداوة لجبريل ، الموصوف بذلك ، كفر بالله وآياته ، وعداوة لله
 ولرسله وملائكته .

فإن عداوتهم لجبريل ، لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله من الحق ،
 على رسل الله .

فيتضمن الكفر والعداوة ، للذى أنزله وأرسله ، والذى أرسل به ،
 والذى أرسل إليه ، فهذا وجه ذلك .

* يقول لنبىه صلى الله عليه وسلم [ولقد أنزلنا إليك آيات بينات] تحصل
 بها الهداية لمن استهدى ، وإقامة الحجة على من عاند ، وهى فى الوضوح
 والدلالة على الحق ، قد باغت مبلغاً عظيماً ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها
 إلا من فسق عن أمر الله ، وخرج عن طاعة الله ، واستكبر غاية التكبر .

وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم ، وعدم صبرهم على الولاء بها .

* فـ [كلما] تفيد التكرار ، فكلماء وجد العهد ترتب عليه النقض .
 ما السبب فى ذلك ؟ .

السبب أن أكثرهم لا يؤمنون .

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ
نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَاهُ ظُهُورِهِمْ
كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ
سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ

فعدم إيمانهم هو الذى أوجب لهم نقض العهد .
ولو صدق إيمانهم ، لكانوا مثل من قال الله فيهم :
[من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه] .

* أى : ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق
لما معهم وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم ، فلما كفروا بهذا
الرسول وبما جاء به .

[نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله] الذى أنزل إليهم
أى طرحوه رغبة عنه [وراء ظهورهم] وهذا أبلغ فى الإعراض كأنهم فى
فعلهم هذا من الجاهلين وهم يعلمون صدقه وحقيقة ما جاء به ، تبين بهذا أن
هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق فى أيديهم شئ حيث لم يؤمنوا بهذا
الرسول ، فصار كفرهم به كفرا بكتابهم من حيث لا يشعرون .

ولما كان من العوائد القدسية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه
وأمكنه الاتفاف به ولم ينفع ، ابتلى بالاشتغال بما يضره ، فمن ترك عبادة
الرحمن ، ابتلى بعبادة الأوثان ، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه ، ابتلى
بمحبة غير الله وخوفه ورجائه ، ومن لم ينفق ماله فى طاعة الله أنفقه فى طاعة
الشیطان ، ومن ترك الذل لربه ، ابتلى بالذل للعبيد .

السَّحَرِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ
مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا
مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ
إِلَّا يَأْذَنُ اللَّهُ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ

ومن ترك الحق ابتلى بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نبدوا كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين
وتخلف من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر
وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله وبه حصل له الملك العظيم .

وهم كذبة في ذلك فلم يستعمله سليمان بل نزهه الصادق في قبله :

[وما كفر سليمان] أى : بتعلم السحر ، فلم يتعلمه .

[ولكن الشياطين كفروا] فى ذلك .

[يعلمون الناس السحر] من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم

وكذلك اتبع اليهود السحر الذى أنزل على المسكين السكائين بأرض

بابل من أرض العراق أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاء من الله لعباده
فيعلمانهم السحر .

[وما يعلمان من أحد حتى] ينصحا ، و [يقولان إنما نحن فتنة

فلا تكفر] أى : لا تتعلم السحر فإنه كفر فينهيانه عن السحر ويخبرانه عن

مرتبته ، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال ونسبته وترويجه

إلى من برأه الله منه وهو سليمان عليه السلام .

وتعليم المسكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة .

أَشْتَرْتُهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين ، والسحر الذي
يعلمه الملوك ، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين ،
وكل يصبو إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفاسد السحر فقال : [فيتعلمون منها ما يفرقون به بين الرء
وزوجه] مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما ، لأن الله قال في حقهما
[وجعل بينكم مودة ورحمة] وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة وأنه
يضر بإذن الله أى بإرادة الله ، والإذن نوعان :

إذن قدرى وهو المتعلق بمشيئة الله ، كما فى هذه الآية .

وإذن شرعى كما فى قوله تعالى فى الآية السابقة .

[فإنه نزل على قلبك بإذن الله] وفى هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب
مهما بلغت فى قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة فى التأثير ،
ولم يخالف فى هذا الأصل من فرق الأمة غير القدريّة فى أفعال العباد زعموا
أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة ، فأخرجوها عن قدرة الله .

نخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضرّة محضة ، ليس فيه منفعة لادنيوية ولا دنيوية
كما يوجد بعض المنافع الدنيوية فى بعض المعاصى .

كما قال تعالى فى الحجر والميسر [قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما
أكبر من نفعهما] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رُعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا
وَأَسْمِعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ أَلِيمٍ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ

فهذا السحر مضرة محضة ، فليس له داع أصلا ، فالنهيات كلها
إما مضرة محضة ، أو شرها أكبر من خيرها .

كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها .

[ولقد علموا] أى اليهود [لمن اشتراه] أى : رغب فى السحر رغبة
المشتري فى السلعة .

[ما له فى الآخرة من خلاق] أى : نصيب ، بل هو موجب للعقوبة ،
فلم يكن فعلهم إياه جهلا ، ولسكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .
[ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون] علما يشمر العمل
ما فعلوه .

* كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين
[راعنا] أى : راع أحوالنا ، فيقصدون بها معنى صحيحاً .

وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً ، فانتهزوا الفرصة ، فصاروا
يخاطبون الرسول بذلك ، ويقصدون المعنى الفاسد .

فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة ، سداً لهذا الباب .

ففيه النهى عن الجائز ، إذا كان وسيلة إلى محرم .

مَنْ رَبَّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

وفيه الأدب ، واستعمال الألفاظ ، التي لا تتحمل إلا الحسن ، وعدم
الفحش ، وترك الألفاظ القبيحة ، أو التي فيها نوع تشويش واحتمال لأمر
غير لائق .

فأمرهم بلفظة ، لا تتحمل إلا الحسن فقال [وقولوا انظروا] .

فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور .

[واسمعوا] لم يذكر المسوع ، ليعم ما أمر باستماعه .

فيدخل فيه سماع القرآن ، وسماع السنة التي هي الحكمة ، لنظماً ومعنى ،
واستجابة .

ففيه الأدب والطاعة .

ثم توعّد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجه ، وأخبر عن عداوة اليهود
المشركين للمؤمنين ، أنهم ما يودون [أن ينزل عليكم من خير] .

أى : لا قليلاً ولا كثيراً [من ربكم] حسداً منهم ، وبفضاً لكم أن
يختصكم بفضله فإنه [ذو الفضل العظيم] .

ومن فضله عليكم ، أنزل الكتاب على رسولكم ، ليزكيكم ، ويعلمكم
الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فله الحمد والمنة .

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٠٦) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٠٧) ﴿

النسخ ، هو النقل ، حقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع ، إلى حكم آخر ، أو إلى إسقاطه .

وكان اليهود ينكرون النسخ ، ويزعمون أنه لا يجوز ، وهو مذكور عندهم في التوراة ، فإنكارهم له ، كفر وهوى محض .

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ فقال :

[ما ننسخ من آية أو ننسها] أى : ننسها العباد ، فنزيلها من قلوبهم .

[نأت بخير منها] وأنفع لكم [أو مثلها] .

فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصالحة لكم من الأول ، لأن فضله تعالى يزداد ، خصوصاً على هذه الأمة ، التي سهل عليها دينها ، غايه التسهيل .

وأخبر أن من قدح في النسخ ، قدح في ملكه وقدرته فقال :

[ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض] .

فإذا كان مالكا لكم ، متصرفا فيكم ، تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهيه ، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير ، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام .

فالعبد مدبر مسخر تحت أوامره الدينية والقدرية ، فما له والاعتراض؟

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ
مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٠٨)

وهو أيضاً ، ولى عباده ، ونصيرهم .

فيتولاهم في تحصيل منافعهم ، وينصرهم في دفع مضارهم .

فمن ولايته لهم ، أن يشرع لهم من الأحكام ، ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم .

ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ ، عرف بذلك حكمة الله

ورحمته عباده ، وإيصالهم إلى مصالحهم ، من حيث لا يشعرون بلطفه .

* ينهى الله المؤمنين ، أو اليهود ، بأن يسألوا رسوله [كما سئل موسى

من قبل] .

والمراد بذلك ، أسئلة التعنت والاعتراض ، كما قال تعالى :

[يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا

موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة] .

وقال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم

تسؤلكم] .

فهذه ونحوها ، هي المنهى عنها .

وأما سؤال الاسترشاد والتعليم ، فهذا محمود قد أمر الله به كما قال تعالى

[فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون] .

ويقرهم عليه ، كما في قوله [يسئلونك عن الحمر والميسر] و [يسألونك

عن اليتامى] ونحو ذلك .

ولما كانت المسائل المنهى عنها مذمومة ، قد تصل بصاحبها إلى الكفر

قال : [ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل] .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا
حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا
حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب ، وأنهم بلغت بهم الحال ،
أنهم ودوا [لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا] وسعوا في ذلك ،
وعملوا المكائد ، وكيدهم راجع عليهم كما قال تعالى :

[وقالت طائفة من أهل الكتاب ، آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا
وجه النهار وا كفروا آخره لعلهم يرجعون] وهذا من حسدهم الصادر من
عند أنفسهم .

فأمرهم الله بتقابلة من أساء إليهم بالعفو عنهم ، والصفح ، حتى يأتي
الله بأمره .

ثم بعد ذلك ، أتى الله بأمره بإيهم بالجهاد ، فشفى الله أنفس المؤمنين
منهم ، فقتلوا من قتلوا ، واسترقوا من استرقوا ، وأجلوا من أجلوا
[إن الله على كل شيء قدير] .

ثم أمرهم الله بالاشتغال بالوقت الحاضر ، بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة
وفعل كل القربات .

ووعدهم أنهم ، مهما فعلوا من خير ، فإنه لا يضيع عند الله ، بل يجدونه
عنده وافرأ موفراً قد حفظه [إن الله بما تعملون بصير] .

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾
 تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ
 أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴿﴾

أى : قال اليهود ، لن يدخل الجنة إلا من كان هودا .
 وقالت النصارى ، لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى .
 فحكموا لأنفسهم بالجنة وخدمهم ، وهذا مجرد أمانى غير مقبولة ،
 إلا بحجة وبرهان ، فأتوا بها إن كنتم صادقين .
 وهكذا كل من ادعى دعوى ، لابد أن يقيم البرهان على صحة دعواه .
 وإلا ، فلو قلبت عليه دعواه ، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان
 لكان لا فرق بينهما .

فالبرهان ، هو الذى يصدق الدعوى أو يكذبها .
 ولما لم يكن بأيديهم برهان ، علم كذبهم بتلك الدعوى .
 ثم ذكر تعالى البرهان الجلى العام لكل أحد ، فقال : [بلى] أى : ليس
 بأمانيتكم ودعاويكم ، ولكن [من أسلم وجهه لله] أى : أخلص لله أعماله ،
 متوجها إليه بقلبه .

[وهو] مع إخلاصه [محسن] فى عبادة ربه ، بأن عبده بشره ،
 فأولئك هم أهل الجنة وخدمهم .

[فله أجره عند ربه] وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم
 [ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون] فحصل لهم المرغوب ، ونجوا من المرهوب .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَبَسْتَ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ
النَّصْرَىٰ لَبَسْتَ الْيَهُودَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

ويفهم منها ، أن من ليس كذلك ، فهو من أهل النار المالكين .

فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول .

وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد ، إلى أن بعضهم ضل
بعضاً ، وكفر بعضهم بعضاً ، كما فعل الأميون من مشركي العرب
وغيرهم .

فكل فرقة تضال الأخرى ، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه
العدل ، الذي أخبر به عباده ، فإنه لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع
الأنبياء والمرسلين ، وامتلأ أوامر ربه ، واجتنب نواهيه ، ومن عدام ،
فهو هالك .

* أى : لا أحد أظلم ، وأشد جرماً ، ممن منع مساجد الله ، عن
ذكر الله فيها ، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات .

[وسعى] أى : اجتهد وبذل وسعه [فى خرابها] الحسى والعنوى .

فالخراب الحسى : هدمها وتخريبها ، وتقديرها .

والخراب العنوى ، منع الذاكرين لاسم الله فيها .

وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

وهذا عام ، لكل من اتصف بهذه الصفة ، فيدخل في ذلك أصحاب
الفيل ، وقریش ، حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية ، والنصارى حين
أخربوا بيت المقدس ، وغيرهم من أنواع الظلمة ، الساعين في خرابها ، محادة
لله ، ومشاقة .

فجازاهم الله ، بأن منعهم دخولها شرعاً وقدرأً ، إلا خائفين ذليلين ،
فلما أخافوا عباد الله ، أخافهم الله .

فالمشركون الذين صدوا رسوله ، لم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلا يسيراً ، حتى أذن الله له في فتح مكة .

ومنع المشركين من قربان بيته ، فقال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا
إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] .

وأصحاب الفيل ، قد ذكر الله ما جرى عليهم .

والنصارى ، سلط الله عليهم المؤمنين ، فأجلوهم .

وهكذا كل من اتصف بوصفهم ، فلا بد أن يناله قسطه ، وهذا من
الآيات العظيمة ، أخبر بها الباري قبل وقوعها ، فوَقَّعت كما أخبر .

واستدل العلماء بالآية الكريمة ، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من
دخول المساجد .

[لهم في الدنيا خزي] فضيحة كما تقدم [ولهم في الآخرة عذاب عظيم] .

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، فلا أعظم
إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية ، كما قال تعالى :
[إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ] .
بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها ، فقال تعالى :
[فِي بُيُوتِ أَذُنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمِهِ] .
والمساجد أحكام كثيرة ، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات
الكريمة .

أى : [والله المشرق والمغرب] .
خصهما بالذكر ، لأنهما محل الآيات العظيمة ، في مطالع الأنوار
ومغاربها .
فإذا كان مالكا لها ، كان مالكا لكل الجهات .

[فأينما تولوا] وجوهكم من الجهات ، إذا كان توليكم إياها بأمره ،
إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت
القدس ، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها ، فإن القبلة حينما
توجه العبد أو تشتبه القبلة ، فيتحرى الصلاة إليها ، ثم يتبين له الخطأ ، أو
يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك .

فهذه الأمور ، إما أن يكون العبد فيها معذوراً أو مأموراً .
وبكل حال ، فما استقبل جهة من الجهات ، خارجة عن ملك ربه .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا
قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

[ثم وجه الله إن الله واسع عليم] فيه إثبات الوجه لله تعالى ، على
الوجه اللائق به تعالى ، وأن لله وجهاً لا تشبهه الوجوه ، وهو — تعالى —
واسع الفضل والصفات عظيمها ، عليم بسر أئركم ونياتكم .
فمن سعته وعلمه ، وسع لكم الأمر ، وقبل منكم للأمور ، فله الحمد
والشكر .

[وقالوا] أى : اليهود والنصارى والمشركون ، وكل من قال ذلك .
[اتخذ الله ولداً] فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله ، وأساءوا كل الإساءة ،
وظلموا أنفسهم .

وهو — تعالى — صابر على ذلك منهم ، قد حلم عليهم ، وعافاهم ،
ورزقهم مع تنقصهم إياه .

[سبحانه] أى : تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون
ما لا يليق بجلاله .

فسبحان من له الكمال المطلق ، من جميع الوجوه ، الذى لا يعتريه نقص
بوجه من الوجوه .

ومع رده لقولهم ، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك فقال :
[بل له ما فى السموات والأرض] أى : جميعهم ملكه وعبيده ،
يتصرف فيهم تصرف المالك بالماليك ، وهم قاترون له مستخرون تحت تدبيره .

فإذا كانوا كلهم عبيده ، مفتقرين إليه ، وهو غنى عنهم ، فكيف يكون منهم أحد ، يكون له ولداً ، والولد لابد أن يكون من جنس والده ، لأنه جزء منه .

والله تعالى المالك القاهر ، وأنتم المملوكون المقهورون ، وهو الغنى وأنتم الفقراء .

فكيف مع هذا ، يكون له ولد ؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه .
والقنوت نوعان : قنوت عام وهو قنوت الخلق كلهم ، تحت تدبير الخالق .
وخاص ، وهو قنوت العبادة .
فالنوع الأول كما في هذه الآية .

والنوع الثانى كما فى قوله تعالى [وقوموا لله قانتين] .

ثم قال [بديع السموات والأرض] أى : خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق .

[وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون] فلا يستعصى عليه ، ولا يمتنع منه .

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا
آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبِهْتُمْ قُلُوبُهُمْ قَدْ

أى : قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم : هل يكلمنا الله ، كما
كلم الرسل .

[أوتأتينا آية] ، يعنون آيات الاقتراح ، التى يقترحونها بعقولهم
الفاسدة ، وآرائهم الكسادة ، التى تجرأوا بها على الخالق ، واستكبروا
على رسله كقولهم .

[لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة] ، [يسألك أهل الكتاب أن تنزل
كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك] الآية .

[وقالوا لولا نزل عليه ملك فيكون معه نذيراً] ، أو يلقي إليه كنز ،
أو تكون له جنة من نخيل وعنب] الآيات .

وقوله [وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً] الآيات .
فهذا دأبهم مع رسلهم ، يطلبون آيات التعنت ، لا آيات الاسترشاد ،
ولم يكن قصدهم تبين الحق .

فإن الرسل ، قد جاءوا من الآيات ، بما يؤمن على مثله البشر ، ولهذا
قال تعالى [قد بينا الآيات لقوم يوقنون] .

فكل موقن ، فقد عرف من آيات الله الباهرة ، وبراهينه الظاهرة ،
ما حصل له به اليقين ، واندفع عنه كل شك وريب .

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه
صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به فقال :

يَنبَأُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلُّ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

[إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً] فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها ، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور :

الأول ، في نفس إرساله ، والثاني ، في سيرته وهديه ودله .

والثالث ، في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة .

فالأول والثاني ، قد دخلا في قوله : [إنا أرسلناك] .

والثالث في قوله [بالحق] .

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته صلى الله عليه وسلم وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران ، والصلبان ، وتبديلهم للأديان ، حتى كانوا في ظلمة من الكفر ، قد عمتهم وشماتهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، قد انقضوا قبيل البعثة .

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى ، ولم يتركهم هملا ، لأنه حكيم عليم ، قدير رحيم .

فمن حكمته ورحمته بعباده ، أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم ، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له ، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه ، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله .

وأما الثاني ، فمن عرف النبي صلى الله عليه وسلم معرفة تامة ، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة ، ونشوءه على أكمل الخصال ، ثم من بعد ذلك ، قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة المناظرين ، فمن عرفها ، وسبر

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ
مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

أحواله ، عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين ، لأنه تعالى
جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم .

وأما الثالث ، فهو معرفة ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الشرع العظيم ،
والقرآن الكريم ، الشتمل على الإخبارات الصادقة ، والأوامر الحسنة ،
والنهي عن كل قبيح ، والمعجزات الباهرة ، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة .

قوله [بشيراً] أى لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية .

[ونذيراً] لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوى والأخروى .

[ولا تسأل عن أصحاب الجحيم] أى : لست مسئولاً عنهم ، إنما عليك

البلاغ ، وعلينا الحساب .

يخبر تعالى رسوله ، أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصارى ، إلا باتباعه

دينهم ، لأنهم دعاة إلى الدين الذى هم عليه ، ويزعمون أنه الهدى .

فقل لهم [إن هدى الله] الذى أرسلت به [هو الهدى] .

وأما ما أنتم عليه ، فهو الهوى بدليل قوله [ولئن اتبعت أهواءهم بعد

الذى جاءك من العلم مالك من الله ولى ولا نصير] .

فهذا فيه النعى العظيم ، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى ، والتشبه

بهم فيما يختص به دينهم .

والخطاب - وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم - فإن أمته داخله

في ذلك .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ
أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١)
يَدْنِي إِسْرَآئِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي
فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ
نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب .

كما أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

ثم قال : [الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ،
ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون . يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي
أنعمت عليكم وأنى فضاتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس
شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون] .

ينخبز تعالى أن الذين آتاهم الكتاب ، ومن عليهم به منة مطلقة ، أنهم
[يتلونه حق تلاوته] أى : يتبعونه حق اتباعه ، والتلاوة : الاتباع .

فيحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويعملون بحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه .
وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب ، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها ،
وآمنوا بكل الرسل ، ولم يفرقوا بين أحد منهم .

فهؤلاء ، هم المؤمنون حقاً ، لا من قال منهم « نؤمن بما أنزل علينا
ويكفرون بما وراهم » .

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي
جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

ولهذا توعدهم بقوله [ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون] وقد تقدم
تفسير الآية التي بعدها .

يخبر تعالى ، عن عبده وخليله ، إبراهيم عليه السلام ، المتفق على إمامته
وجلالته ، الذي كل من طوائف أهل الكتاب تدعيه ، بل وكذلك
المشركون : أن الله ابتلاه وامتحنه بكلمات ، أى : بأوامر ونواهي ، كما هي
عادة الله في ابتلائه لعباده ، ليتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء ،
والامتحان من الصادق ، الذي ترتفع درجته ، ويزيد قدره ، ويزكو عمله ،
ويخلص ذنبه .

وكان من أجلهم في هذا المقام ، الخليل عليه السلام .
فأتم ما ابتلاه الله به ، وأكمله ووفاه ، فشكر الله له ذلك ، ولم يزل الله
شكوراً فقال :

[إني جاعلك للناس إماماً] أى : يقتدون بك في الهدى ، ويمشون
خلفك إلى سعادتهم الأبدية ، ويحصل لك الثناء الدائم ، والأجر الجزيل ،
والتعظيم من كل أحد .

وهذه - لعمر الله - أفضل درجة ، تنافس فيها المتنافسون ، وأعلى مقام ،
شمر إليه العاملون ، وأكمل حالة حصلها أولو العزم من المرسلين وأتباعهم ،
من كل صديق متبع لهم ، داع إلى الله وإلى سبيله .

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام ، وأدرك هذا ، طلب ذلك لذريته ، ليعملوا
درجته ودرجة ذريته .

وإِذْ جَعَلْنَا آيَاتِنَا مِثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

وهذا أيضاً من إمامته ، ونصحه لعباد الله ، ومحبته أن يكثر فيهم المرشدون .

فله عظمة هذه الهمم العالية ، والمقامات السامية .

فأجابه الرحيم اللطيف ، وأخبر بالمانع من نبيل هذا المقام فقال :

[لا ينال عهدي الظالمين] أى : لا ينال الإمامة فى الدين ، من ظلم نفسه وضررها ، وحط قدرها ، لمنافاة الظلم لهذا المقام ، فإنه مقام ، آلتة الصبر واليقين .

ونتيجه أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة ، والأخلاق الجميلة ، والشئائل السديدة ، والحجة التامة ، والخشية والإناية .

فأين الظالم وهذا المقام ؟

ودل مفهوم الآية ، أن غير الظالم ، سينال الإمامة ، ولكن مع إتيانه بأسبابها .

ثم ذكر تعالى ، أنموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم ، وهو : هذا البيت الحرام الذى جعل قصده ، ركناً من أركان الإسلام ، حاطاً للذنوب والآثام .

وفيه من آثار الخليل وذريته ، ما عرف به إمامته ، وتذكرت به حالته فقال :

[وإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ] أى : مرجعاً يثوبون إليه .، لحصول منافهم الدينية والدينية ، يترددون إليه ، ولا يقضون منه وطراً .

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا يَبْتَنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَفِّينَ
وَالرُّكْعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

وجعله [أمنًا] يأمن به كل أحد ، حتى الوحش ، وحتى الجمادات
كالأشجار .

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونّه أشد الاحترام ،
ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم ، فلا يهيجّه .

فلما جاء الإسلام ، زاده حرمة وتعظيمًا ، وتشريفًا وتكريمًا .

[واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى] يحتل أن يكون المراد بذلك ،

المقام المعروف الذى قد جعل الآن ، مقابل باب السكبة .

وأن المراد بهذا ، ركعتا الطواف ، يستحب أن تكونا خلف مقام

إبراهيم ، وعليه جمهور المفسرين .

ويحتمل أن يكون المقام مفردًا مضافًا ، فيعم جميع مقامات إبراهيم

في الحج .

وهى المشاعر كلها ، من الطواف ، والسعى ، والوقوف بعرفة ، ومزدلفة

ورمى الجمار والنحر ، وغير ذلك من أفعال الحج .

فيكون معنى قوله : [مصلًى] أى : معبدًا ، أى : اقتدوا به في شعائر الحج .

ولعل هذا المعنى أولى ، لدخول المعنى الأول فيه ، واحتمال اللفظ له .

[وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا يبتى] أى : أوحينا إليهما ،

وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك ، والكفر والمعاصى ، ومن الرجس

والنحاسات ، والأقذار ، ليكون [لطايفين] فيه [والعاكفين والركع

السجود] أى : المصلين .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

قدم الطواف ، لاختصاصه بالمسجد الحرام .
ثم الاعتكاف ، لأن من شرطه ، المسجد مطلقاً .
ثم الصلاة ، مع أنها أفضل ، لهذا المعنى .
وأضاف الباري البيت إليه لفوائد .
منها : أن ذلك يقتضى شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره ، لكونه
بيت الله .

فيذلان جهدهما ، ويستغرقان وسعهما في ذلك .
ومنها : أن الإضافة ، تقتضى التشريف والإكرام .
ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه .
ومنها : أن هذه الإضافة ، هى السبب الجالب للقلوب إليه .
أى : وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت ، أن يجعله الله بلداً آمناً ، ويرزق
أهله من أنواع الثمرات .

ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين ، تأديباً مع الله ، إذ كان دعاؤه
الأول ، فيه الإطلاق ، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم .

فلما دعا لهم بالرزق ، وقيده بالمؤمن ، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن
والكافر ، والعاصى والطائع ، قال تعالى :

وَاِذْ يَرْفَعُ اِبْرٰهِيْمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ اَنْبِيَاۡتٍ وَّاسْمٰعِيْلُ رَبَّنَا
تَقَبَّلْ مِنَّا اِنَّكَ اَنْتَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاَجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا اُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَاَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا اِنَّكَ

[ومن كفر] أى : أرزقهم كلهم ، مسلمهم وكافرهم .

أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله ، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة .
وأما الكافر ، فيتمتع فيها قليلا [ثم أضطره] أى : أُلجئه وأخرجه
مكرهاً [إلى عذاب النار وبئس المصير] .

أى : واذكر إبراهيم وإسماعيل ، فى حالة رفعهما القواعد من البيت .
الأساس ، واستمرارهما على هذا العمل العظيم .

وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء ، حتى إنهما - مع هذا العمل -
دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما ، حتى يجعل فيه النفع العميم .
ودعوا لأنفسهما ، وذريتهما بالإسلام ، الذى حقيقته ، خضوع القلب ،
وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح .

[وأرنا مناسكنا] أى : علمناها على وجه الإرادة والشاهدة ،
ليكون أبلغ .

يحتمل أن يكون المراد بالمناسك : أعمال الحج كلها ، كما يدل عليه
السياق والمقام .

ويحتمل أن يكون المراد : ما هو أعظم من ذلك ، وهو الدين كله ،
والعبادات كلها ، كما يدل عليه عموم اللفظ ، لأن النسك : التعبد ، ولكن
غلب على متعبدات الحج ، تظليماً عرفياً .

أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

فيكون حاصل دعائهما ، يرجع إلى التوفيق للعلم النافع ، والعمل الصالح .
ولما كان العبد - مهما كان - لا بد أن يعتريه التقصير ، ويحتاج إلى
التوبة قالوا :

[وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم] أى :
في ذريتنا [رسولا منهم] ليكون أرفع لدرجتهم ، ولينقادوا له ، وليعرفوه
حقيقة المعرفة .

[يتلو عليهم آياتك] لنظاً ، وحفظاً ، وتخفيضاً [ويعلمهم الكتاب
والحكمة] معنى .

[ويزكيهم] بالتربية على الأعمال الصالحة والتبلى من الأعمال الردية ،
التي لا تزكى النفس معها .

[إنك أنت العزيز] أى : القاهر لكل شيء ، الذى لا يمتنع على
قوته ، شيء .

[الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها .

فبعزتك وحكمتك ، ابعث فيهم هذا الرسول .

فاستجاب الله لها ، فبعث الله هذا الرسول الكريم ، الذى رحم الله به
ذريتهما خاصة ، وسائر الخلق عامة :

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « أنا دعوة أبى إبراهيم » .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
 اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ
 لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ
 بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

ولما عظم الله إبراهيم هذا التعظيم ، وأخبر عن صفاته الكاملة قال
 تعالى : [ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه
 في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب
 العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لسكنى الدين
 فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال
 لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل
 وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون . تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم
 ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون] .

أى : ما يرغب [عن ملة إبراهيم] بعد ما عرف من فضله [إلا من سفه
 نفسه] أى : جهأها وامتنعها ، ورضى لها بالدون ، وباعها بصفة المغبون كما
 أنه لا أرشد وأبكل ، ممن يرغب في ملة إبراهيم .
 ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة فقال :

[ولقد اصطفيناه في الدنيا] أى : اخترناه ووفقناه للأعمال ، التى صار
 بها ، من المصطفين-الأخيار .

[وإنه في الآخرة لمن الصالحين] الذين لهم ، أعلى الدرجات .

وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ
إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

[إذ قال له ربه أسلم قال] امثالاً لربه [أسلمت لرب العالمين] .
إخلاصاً وتوحيداً ، ومحبة ، وإجابة فكان التوحيد لله نعمته .
ثم ورثه في ذريته ، ووصاهم به ، وجعلها كلمة باقية في عقبه ، وتوارثت
فيهم ، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه .

فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوك بالخصوص ، فيجب عليكم
كمال الاتقياء ، واتباع خاتم الأنبياء قال :

[يا بني إن الله اصطفى لكم الدين] أى : اختاره وتمخيره لكم ، رحمة
بكم ، وإحساناً إليكم ، فتقوموا به ، واتصفوا بشرائعه ، وانصبغوا بأخلاقه ،
حتى تستمروا على ذلك فلا يأتىكم الموت إلا وأنتم عليه ، لأن من عاش على
شيء ، مات عليه ، ومن مات على شيء ، بعث عليه .

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ، ومن بعده يعقوب ،
قال تعالى منكرأ عليهم :

[أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ] أى : حضوراً [إذ حضر يعقوب للموت] .
أى : مقدماته وأسبابه .

فقال لبنيه على وجه الاختبار ، ولتقر عينه في حياته بامثالهم ما وصاهم به .
[ماتعبدون من بعدى] فأجابوه بما قرت به عينه فقالوا :
[نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً] .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴿١٣٥﴾

فلا نشرك به شيئاً ، ولا نعدل به .

[ونحن له مسلمون] لجمعوا بين التوحيد والعمل .

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب ، لأنهم لم يوجدوا بعد .

فإذا لم يحضروا ، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنبيه بالحنيفية ، لا باليهودية ..

ثم قال تعالى : [تلك أمة قد خلت] أي : مضت [لها ما كسبت ولكم

ما كسبتم] أي : كل له عمله ، وكل سيجازى بما فعله ، لا يؤاخذ أحد بذنب

أحد ولا ينفع أحداً إلا بإيمانه وتقواه .

فاشتغالكم به وادعائكم ، أنكم على ملتهم ، والرضا بمجرد القول ، أمر

فارغ لا حقيقة له .

بل الواجب عليكم ، أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها ، هل تصلح

للنجاة أم لا .

أي : دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم ،

زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال .

قال له مجيباً جواباً شافياً [بل] تتبع [ملّة إبراهيم حنيفاً] أي : مقبلاً

على الله ، معرضاً عما سواه ، قائماً بالتوحيد ، تاركاً للشرك والتنديد .

فهذا الذي في اتباعه الهداية ، وفي الإعراض عن ملته ، الكفر والغواية ..

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا
إِنْزَاهِمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى
وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦)

هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به .
واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام ، بهذه الأصول ، وإقراره
التضمن لأعمال القلوب والجوارح .
وهو - بهذا الاعتبار - يدخل فيه الإسلام ، وتدخل فيه الأعمال
الصالحة كلها .

فهي من الإيمان ، وأثر من آثاره .
فحيث أطاق الإيمان ، دخل فيه ما ذكر .
وكذلك الإسلام ، إذا أطاق دخل فيه الإيمان .
فإذا قرن بينهما ، كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق .
والإسلام ، اسماً للأعمال الظاهرة .
وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة .
فقوله تعالى : [قُولُوا] أى : بألسنتكم ، متواطئة عليها قلوبكم .
وهذا هو القول التام ، لئلا يترتب عليه الثواب والجزاء .
فكما أن النطق باللسان ، بدون اعتقاد القلب ، نفاق وكفر .
فالقول الخالي من العمل عمل القلب ، عديم التأثير ، قليل الفائدة ،
وإن كان العبد يؤجر عليه ، إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان .

لـسـكـن فـرق بـيـن القـول الـمـجـرـد ، و الـمـقـترـن بـه عـمـل القـلب .
و فـي قـولـه [قـولـوا] إـشـارـة إـلـى الإـعـلـان بـالعـقـيـدـة ، و الصـدع بـهـا ، و الدـعـوة
لـها ، إذ هـي أـصـل الدـيـن و أسـاسـه .

و فـي قـولـه : [آمـنـا] و نـحوـه ، مـمـا فـيـه صـدـور الفـعـل ، مـنـسـوباً إـلـى جـمـيع
الـأـمـة ، إـشـارـة إـلـى أـنـه يـجـب عـلـى الـأـمـة ، الـاعـتـصـام بـحـبـل الله جـمـيعاً ، و الـحـث
عـلـى الـائـتـلـاف حـتـى يـكـون دـاعـيـهـم و احـدأ ، و عـمـلـهـم مـتـحـدأ ، و فـي ضـمـنـه النـهـي
عـن الـافـتـراق .

و فـيـه : أن الـمـؤـمـنـيـن كـالـجـسـد الـواـحـد .

و فـي قـولـه : [قـولـوا آمـنـا بالله] الـحـ دلـالـة عـلـى جـواز إـضـاـفـة الإـنـسـان إـلـى
نـفـسـه الإـيـمـان ، عـلـى و جـه التـقـيـيـد ، بـل عـلـى و جـوب ذـلـك .

بـخـلـاف قـولـه « أنا مؤـمـن » و نـحوـه ، فـإنـه لا يـقـال إـلـا مـقـروناً بـالـاسـتـثـنـاء
بـالـمـشـيـئـة ، لـمـا فـيـه مـن تـزكـيـة النـفـس ، و الشـهـادـة عـلـى نـفـسـه بالإـيـمـان .

فـقـولـه : [آمـنـا بالله] أـى : بـأنـه و اـجـب الـوـجـود ، و احـد أـحـد ، مـتـصـف
بـكـل صـفـة كـمـال ، مـنـزـه عـن كـل نـقـص و عـيـب ، مـسـتـحـق لإـفـراده بـالـعـبـادـة
كـلـها ، و عـدم الإـشـراك بـه فـي شـيء مـنـها ، بـوـجـه مـن إلـوـجـوه .

[و ما أنـزل إلـيـنـا] يـشـمـل القـرآن و الـسـنـة لـقـولـه تـعـالـى :

[و أنـزل الله عـلـيـك الـكـتـاب و الـحـكـمـة] فـيـدخـل فـيـه الإـيـمـان بـما تـضـمـنـه
كـتـاب الله و سـنـة رـسـولـه ، مـن صـفـات البـارـى ، و صـفـات رـسـلـه ، و الـيـوم
الـآخـر ، و الـغـيـوب لـلـماضـيـة و الـمـسـتـقـبـلـة ، و الإـيـمـان بـما تـضـمـنـه ذـلـك مـن الأـحـكـام
الـأـمـريـة الشـرعيـة ، و أـحـكـام الجـزـاء و غـيـر ذـلـك .

.

[وما أنزل إلى إبراهيم] إلى آخر الآية .

فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء .

والإيمان بالأنبياء عموماً وخصوصاً ، ما نص عليه في الآية ، لشرفهم ولإتيانهم بالشرائع الكبار .

فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب ، أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول .

ثم ما عرف منهم بالتفصيل ، وجب الإيمان به مفصلاً .

وقوله : [لا نفرق بين أحد منهم] أى : بل تؤمن بهم كلهم .

هذه خاصية المسلمين ، التي انفردوا بها عن كل من يدعى أنه على دين .

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما

يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره .

فيفرقون بين الرسل والكتب ، بعضها يؤمنون به وبعضها يكفرون به .

وينقض تكذيبهم تصديقهم .

فإن الرسول الذي زعموا ، أنهم قد آمنوا به ، قد صدق سائر الرسل

وخصوصاً محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا كذبوا محمداً ، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به ، فيكون

كفرأ برسولهم .

وفي قوله : [وما أوتى النبيون من ربهم] دلالة على أن عطية الدين ،

هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية .

لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتى الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك .
بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع .
وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله ، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ
دينه ، ليس لهم من الأمر شيء .

وفي قوله : [من ربهم] إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده ، أن
ينزل عليهم الكتب ، ويرسل إليهم الرسل ، فلا تقتضى ربوبيته ، تركهم
سدى ولا هملاً .

وإذا كان ما أوتى النبيون ، إنما هو من ربهم ، ففيه الفرق بين
الأنبياء وبين من يدعى النبوة ، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة
ما يدعون إليه .

فالرسل لا يدعون إلا إلى الخير ، ولا ينهون إلا عن كل شر .
وكل واحد منهم ، يصدق الآخر ، ويشهد له بالحق ، من غير تحالف
ولا تناقض لكونه من عند ربهم [ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافاً كثيراً] .

وهذا بخلاف من ادعى النبوة ، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم
ونواهيهم ، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع ، وعرف ما يدعون إليه .
فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به ، عموماً وخصوصاً ، وكان القول لا يغنى
عن العمل قال :

[ونحن له مسلمون] أى : خاضعون لعظمته ، متقادون لعبادته ، بباطننا
وظاهرنا ، مخلصون له العبادة .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَآمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ ءُهْتَدَوْا ﴾

بدليل تقديم المعمول ، وهو [له] على العامل وهو [مسلمون] .

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل ، وجميع الكتب .

وعلى التخصيص الدال على الفضل ، بعد التعميم .

وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك .

وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ، ومن ادعى النبوة من الكاذبين .

وعلى تعليم الباري عباده ، كيف يقولون ، ورحمته وإحسانه عليهم

بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة .

فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

أي : فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به - يا معشر المؤمنين -

من جميع الرسل ، وجميع الكتب ، الذين أول من دخل فيهم ، وأولى خاتمهم

وأفضاهم محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وأسألو الله وحده ، ولم يفرقوا

بين أحد من الرسل [فقد اهتدوا] للصراط المستقيم ، الموصل لجنت النعيم .

أي : فلا سبيل لهم إلى الهداية ، إلا بهذا الإيمان .

ولا كما زعموا بقولهم « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » .

فزعموا أن الهداية ، خاصة بما كانوا عليه .

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

و « الهدى » هو العلم بالحق ، والعمل به ، وصده ، الضلال عن العلم ،
والضلال عن العمل بعد العلم ، وهو الشقاق الذى كانوا عليه ، لما تولوا
وأعرضوا .

فالشقاق ، هو الذى يكون فى شق والله ورسوله ، فى شق .
ويلزم من المشاقة ، الحادة ، والعداوة البليغة ، التى من لوازمها ، بذل
ما يقدرون عليه من أذية الرسول .
فلهذا وعد الله رسوله ، أن يكفيه إياهم ، لأنه السميع لجميع الأصوات ،
باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم ،
بالغيب والشهادة ، بالظواهر والبواطن .
فإذا كان كذلك ، كفاك الله شرم .

وقد أنجز الله لرسوله وعده ، وسلطه عليهم ، حتى قتل بعضهم ، وسبي
بعضهم ، وأجلى بعضهم ، وشردهم كل مشرد .
ففيه معجزة من معجزات القرآن ، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه ،
فوقع طبق ما أخبر .

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ

عَبْدُونَ﴾ (١٣٨)

أى : الزموا صبغة الله ، وهو دينه ، وقوموا به قياماً تاماً ، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة ، وجميع عقائده فى جميع الأوقات ، حتى يكون لكم صبغة ، وصفة من صفاتكم .

فإذا كان صفة من صفاتكم ، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره ، طوعاً واختياراً ومحبة ، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذى صار له صفة ، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية ، لحث الدين على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ومعالي الأمور .

فلهذا قال - على سبيل التعجب المبتدر للقول الزكية - :

[ومن أحسن من الله صبغة] أى : لا أحسن صبغة من صبغته .

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ ، فقس الشئ بضده .

فكيف ترى فى عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً ، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح .

فلم يزل يتعالى بكل وصف حسن ، وفعل جميل ، وخلق كامل ، ونعت جليل .

ويتغلى من كل وصف قبيح ، ورذيلة وعيب .

فوصفه ، الصدق فى قوله وفعله ، والصبر والحلم ، والعفة ، والشجاعة ،

والإحسان القولى والفعلى ، ومحبة الله وخشيته ، وخوفه ، ورجاؤه .

فحاله الإخلاص للمعبود ، والإحسان لعبيده .

فقسه بعبد كفر بربه ، وشرده عنه ، وأقبل على غيره من المخلوقين .

فاتصف بالصفات القبيحة ، من الكفر ، والشرك والكذب ، والخيانة ،
والسكر ، والخداع ، وعدم العفة ، والإساءة إلى الخلق ، فى أقواله ، وأفعاله .

فلا إخلاص للمعبود ، ولا إحسان إلى عبيده .

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما ، ويتبين لك أنه لا أحسن من
صبغة الله ، وفى ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه .

وفى قوله : [ونحن له عابدون] بيان لهذه الصبغة ، وهى القيام بهذين
الأصاين ، الإخلاص والمتابعة ، لأن « العبادة » اسم جامع لكل ما يحبه الله
ويرضاه ، من الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة .

ولا تكون كذلك ، حتى يشرعها الله على لسان رسوله .

والإخلاص أن يقصد العبد وجه الله وحده ، فى تلك الأعمال .

فتقديم الممول ، يؤذن بالحرص .

وقال : [ونحن له عابدون] فوصفهم باسم التفاعل الدال على الثبوت
والاستقرار ، ليدل على اتصافهم بذلك .

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا
أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩) ﴿

الحاجة هي : المجادلة بين اثنين فأكثر ، تتعلق بالمسائل الخلافية ، حتى
يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله ، وإبطال قول خصمه .

فكل واحد منهما ، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك .

والمطلوب منها ، أن تكون بالتي هي أحسن ، بأقرب طريق يرد الضال
إلى الحق ، وقيم الحجة على المعاند ، ويوضح الحق ، ويبين الباطل .

فإن خرجت عن هذه الأمور ، كانت ممارسة ، ومخاصمة لا خير فيها ،
وأحدثت من الشر ما أحدثت .

فكان أهل الكتاب ، يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين ، وهذا
مجرد دعوى ، تفقر إلى برهان ودليل .

فإذا كان رب الجميع واحداً ، ليس رباً لَكُمْ دوننا ، وكل منا ومنكم ،
له عمله ، فاستوينا نحن وأنتم بذلك . فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين
أولى بالله من غيره .

لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء ، من غير فرق مؤثر ، دعوى باطلة ،
وتفريق بين متماثلين ، ومكابرة ظاهرة .

وإنما يحصل التفضيل ، بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده .

وهذه الحالة ، وصف المؤمنين وحدهم ، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم
لأن الإخلاص ، هو الطريق إلى الخلاص .

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
كُتِبَ عَلَيْهِ شَهَادَةُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٠)

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، بالأوصاف الحقيقية ،
التي يسلمها أهل العقول ، ولا ينزع فيها إلا كل مكابر جهول .

ففي هذه الآية ، إرشاد لطيف لطريق الحاجة ، وأن الأمور مبنية على
الجمع بين المتماثلين ، والفرق بين المختلفين .

وهذه دعوى أخرى منهم ، ومحااجة في رسل الله ، زعموا أنهم أولى
بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين .

فرد الله عليهم بقوله [أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ] فإله يقول : [ما كان إبراهيم
يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين] وهم
يقولون : بل كان يهودياً أو نصرانياً .

فإما أن يكونوا ، هم الصادقين العالمين ، أو يكون الله تعالى هو الصادق
العالم بذلك ، فأحد الأمرين متعين لا محالة .

وصورة الجواب مبهم ، وهو في غاية الوضوح والبيان
حتى إنه - من وضوحه - لم يحتاج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق ،
ونحو ذلك ، لانجلائه لكل أحد .

كما إذا قيل : الليل أنور ، أم النهار ؟ والنار أحر أم الماء ؟ والشرك
أحسن أم التوحيد ؟ ونحو ذلك .

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ
وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤١)

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك ،
ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء ، لم يكونوا هوداً ولا نصارى ،
فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة ، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم .

ولهذا قال تعالى : [ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله] ففى
شهادة عندهم ، مودعة من الله ، لا من الخلق ، فيقتضى الاهتمام بإقامتها ،
فكتموها ، وأظهروا ضدها .

جمعوا بين كتم الحق ، وعدم النطق به ، وإظهار الباطل ، والدعوة إليه .
أليس هذا ، أعظم الظلم ؟ بلى والله ، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة .
فلهذا قال : [وما الله بغافل عما تعملون] بل قد أحصى أعمالهم ، وعدّها
وادخر لهم جزاءها ، فبئس الجزاء جزاؤهم ، وبئس النار ، مثوى للظالمين .
وهذه طريقة القرآن فى ذكر العلم والقدرة ، عقب الآيات المتضمنة للأعمال
التي يجازى عليها .

فيفيد ذلك الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .
وفيد أيضاً ، ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام ، أن الأمر الدينى
والجزائى ، أثر من آثارها ، وموجب من موجباتها ، وهى مقتضية له .

ثم قال تعالى : [تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت وإسكم ما كسبتكم ،
ولا تسألون عما كانوا يعملون] تقدم تفسيرها ، وكررها ، لتقطع العلق
بالخلقين ، وأن المعول عليه ، ما اتصف به الإنسان ، لا عمل أسلافه وآبائه .
فالنفع الحقيقى بالأعمال ، لا بالانتساب الجرد للرجال .

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي
كَانُوا عَلَيْهَا قُلُوبَ اللَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

قد اشتملت الآية الأولى ، على معجزة ، وتسليية ، وتطمين قلوب المؤمنين ،
واعتراض وجوابه ، من ثلاثة أوجه ، وصفة المعترض ، وصفة المسلم
لحكم الله دينه .

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس ، وهم الذين لا يعرفون
مصالح أنفسهم ، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن ، وهم اليهود والنصارى ،
ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه .

وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس ، مدة
مقامهم بمكة .

ثم بعد الهجرة إلى المدينة ، نحو سنة ونصف - لما لله في ذلك من الحكم
التي سيشير إلى بعضها ، وكانت حكمته تقتضى أمرهم باستقبال الكعبة .

فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس [ما ولاهم عن قبلتهم
التي كانوا عليها] وهى استقبال بيت المقدس .

أى : أى شيء صرفهم عنه ؟ .

وفى ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه ، وفضله وإحسانه .

فسلام ، وأخبر بوقوعه ، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه ، قليل العقل ،
والحم ، والديانة .

فلا تبالوا بهم ، إذ قد علم مصدر هذا الكلام .

مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾

فالعاقل لا يبالى باعتراض السفیه ، ولا يلقى له ذهنه .
ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله ، إلا سفیه جاهل معاند .
وأما الرشید المؤمن العاقل ، فيتلقى أحكام ربه بالقبول ، والالتقاد ،
والتسليم كما قال تعالى : [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله
أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم] .

[فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم] الآية .
[إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن
يقولوا سمعنا وأطعنا] .

وقد كان في قوله « السفهاء » ما يغنى عن رد قولهم ، وعدم المبالاة به .
ولكنه تعالى — مع هذا — لم يترك هذه الشبهة ، حتى أزالها وكشفها
مما سيمعرض لبعض القلوب من الاعتراض ، فقال تعالى : [قل] لم محبياً
[لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم] .

أى : فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله ، ليس جهة من الجهات
خارجة من ملكه ، ومع هذا يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ومنه
هدايتكم إلى هذه القبلة التى هى من ملة إبراهيم — فلائى شيء يعترض للمعترض
بتولييتكم قبلة داخلة تحت ملك الله ، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له ؟
فهذا يوجب التسليم لأمره ، بمجرد ذلك .

فكيف ، وهو من فضل الله عليكم ، وهدايته وإحسانه ، أن هذاكم
لذلك . فالمعترض عليكم ، معترض على فضل الله ، حسداً لكم وبغياً .

ولما كان قوله [يهـدى من يشاء إلى صراط مستقيم] مطلقاً ، والمطلق يحمل على التقيد ، فإن الهداية والضلال ، لهما أسباب أوجبتهما حكمة الله وعدله ، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية ، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى كما قال تعالى [يهـدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام] ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية ، ومنة الله عليها فقال :

[وكذلك جعلناكم أمة وسطاً] أى : عدلاً خياراً .

وماعدا الوسط ، فالأطراف داخلة تحت الخطر .

فجعل الله هذه الأمة ، وسطاً في كل أمور الدين .

وسطاً في الأنبياء ، بين من غلا فيهم ، كالنصارى ، وبين من جفاهم ، كاليهود ، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك .

ووسطاً في الشريعة ، لا تشديدات اليهود وآصارهم ، ولا تهاون النصارى .

وفى باب الطهارة والمطاعم ، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا فى بيعهم وكنائسهم ، ولا يطرهم الماء من النجاسات ، وقد حرمت عليهم الطيبات ، عقوبة لهم .

ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً ، ولا يحرمون شيئاً ، بل أباحوا ما دبح ودرج .

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها .

وأباح الله لهم الطيبات من الطعام والشارب والملابس والنكاح ، وحرم عليهم الخبائث من ذلك .

فلهذه الأمة من الدين ، أكمله ، ومن الأخلاق أجابها ، ومن الأعمال أفضلها .

ووهبهم الله من العلم والحلم ، والعدل والإحسان ، ما لم يهبه لأمة سواهم .
فلذلك كانوا [أمة وسطاً] كاملين معتدلين ، ليكونوا [شهداء على الناس] بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط ، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان ، ولا يحكم عليهم غيرهم .

فما شهدت له هذه الأمة بالقبول ، فهو مقبول ، وما شهدت له بالرد ، فهو مردود .

فإن قيل كيف يقبل حكمهم على غيرهم ، والحال أن كل مختصين ، غير مقبول قول بعضهم على بعض ؟

قيل : إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين ، لوجود التهمة .

فأما إذا انتفت التهمة ، وحصلت العدالة التامة ، كما في هذه الأمة ، فإنما المقصود ، الحكم بالعدل والحق .

وشرط ذلك ، العلم والعدل ، وهما موجودان في هذه الأمة ، فقبل قولها .
فإن شك شاك في فضلها ، وطلب مزيداً لها ، فهو أكمل الخلق ، نبينهم صلى الله عليه وسلم .

فلهذا قال تعالى [ويكون الرسول عليكم شهيداً] .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم ، أنه إذا كان يوم القيامة ، وسأل الله المرسلين عن تبليغهم ، والأمم الكاذبة عن ذلك ، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم — استشهد الأنبياء بهذه الأمة ، وزكاهم نبيها .

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة ، حجة قاطعة ، وأنهم معصومون عن الخطأ ، لإطلاق قوله [وسطاً] .

فلو قدر اتفاقهم على الخطأ ، لم يكونوا وسطاً ، إلا في بعض الأمور ، وفيها اشتراط العدالة في الحكم ، والشهادة ، والفتيا ، ونحو ذلك .

* يقول تعالى : [وما جعلنا القبلة التي كنت عليها] وهي استقبال بيت المقدس أولاً [إلا لنعلم] أى : علماً يتعلق به الثواب والعقاب ^(١) ، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها .

(١) قوله (أى علماً يتعلق به الثواب . الخ) هذه العبارة مبهمة تحتاج إلى إيضاح ، ونذكر ما أفاده الأئمة : النسفي ، وأبو السعود ، وابن كثير في تفاسيرهم ، وأبو حيان في بحره ، فنقول : (لنعلم) أى لتمييز التابع من الناكص ، وينكشف أمرهم وحالهم للرسول وللمؤمنين ، كما قال تعالى [حتى يميز الخبيث من الطيب] فوضع العلم موضع التمييز لأن العلم يقع به التمييز ، وهو سببه فأطلق السبب — الذى هو العلم — وأراد المسبب — الذى هو التمييز — ويؤيد ما قلنا قراءة [ليعلم] بالياء وبالبناء للجهول ، وإنما أسند علمهم إلى ذاته ، لأنهم خواصه . أو هو ملاطفة الخطاب كقولك لمن ينكر ثوب الذهب : فأنلقه في النار لنعلم أيذوب الذهب أم لا ؟ اهـ .

يَذْبَعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا

ولكن هذا العلم ، لا يعلق عليه ثوابا ولا عقابا ، لتمام عدله ، وإقامة الحجة على عباده .

بل إذا وجدت أعمالهم ، ترتب عليها الثواب والعقاب .

أى : شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن [من يتبع الرسول] ويؤمن به ، فيتبعه على كل حال ، لأنه عبد مأمور مذكر .

= وفى البحر المحيط لأبى حيان : وظاهر قوله [لنعلم] ابتداء العلم ، وليس المعنى على الظاهر إذ يستحيل حدوث علم الله تعالى فأول على حذف مضاف ، أى : ليعلم رسولنا والمؤمنون . وأسند علمهم إلى ذاته لأنهم خواصه وأهل الزلفى لديه ، فيكون هذا من مجاز الحذف أو على إطلاق العلم على معنى التمييز ، لأن بالعلم يقع التمييز ، أى : لتمييز التابع من الناكص ، كما قال تعالى : [حتى يميز الخبيث من الطيب] ويكون هذا من مجاز إطلاق السبب ، ويراد به المسبب ، وحكى هذا التأويل عن ابن عباس رضى الله عنهما أو على أنه أراد ذكر علمه وقت موافقتهم الطاعة أو المعصية إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب . أو أريد بالمستقبل هنا الماضى والتقدير : لما علمنا أو لعلمنا من يتبع الرسول ممن يخالف . اهـ . بتصرف .

واقصر ابن كثير فى تفسيره على جعل المعنى ليعلم المؤمنون وينكشف حال ضعاف الإيمان فقال (يقول تعالى : إنا شرعنا لك يا محمد ، التوجه أولا إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ، ا يظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك ، حيثما توجهت ، ممن ينقلب على عقبيه) . اهـ .

عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة ، أنه يستقبل الكعبة .

فالنصف الذى مقصوده الحق ، مما يزيده ذلك إيماناً ، وطاعة الرسول .
وأما من انقلب على عقبيه ، وأعرض عن الحق ، واتبع هواه ، فإنه
يزداد كفرأ إلى كفره ، وحيرة إلى حيرته ، ويدلى بالحجة الباطلة ، المبنية
على شبهة لا حقيقة لها .

[وإن كانت] أى : صرفك عنها [لكبيرة] أى : شاقة [إلا على
الذين هدى الله] فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم ، وشكروا ، وأقروا له
بالإحسان ، حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم ، الذى فضله على سائر
بقاع الأرض .

وجعل قصده ، ركنأ من أركان الإسلام ، وهادماً للذنوب والآثام ،
فلهذا خف عليهم ذلك ، وشق على من سواهم .

ثم قال تعالى [وما كان الله ليضيع إيمانكم] أى : ما ينبغي له ولا يليق
به تعالى ، بل هو من الممتنعات عليه .

فأخبر أنه ممتنع عليه ، ومستحيل ، أن يضيع إيمانكم .
وفى هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان ، بأن الله
سيحفظ عليهم إيمانهم ، فلا يضيعه ، وحفظه نوعان :

حفظ عن الضياع والبطلان ، بعصمته لهم عن كل مفسد ومزید له ،
ومتنص من الحن المقلقة ، والأهواء الصادة .

وحفظ بتنميته له ، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ، ويتم به إيمانهم .
فكما ابتدأكم ، بأن هذاكم للإيمان ، فسيحفظه لكم ، ويتم نعمته ،
بتنميته وتنمية أجره ، وثوابه ، وحفظه من كل مكدر .

بل إذا وجدت الحن المقصود منها ، تبين المؤمن الصادق من الكاذب
فإنها تمحص المؤمنين ، وتظهر صدقهم .

وكأن في هذا احترازاً ، عما قد يقال ، إن قوله : [وما جعلنا القبلة التي
كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه] قد يكون
سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم ، فدفع هذا الوهم بقوله [وما كان الله
ليضيع إيمانكم] بتقديره لهذه الحنة أو غيرها .

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة ، فإن الله
لا يضيع إيمانهم ، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها .
وطاعة الله ، امتثال أمره في كل وقت ، بحسب ذلك .

وفي هذه الآية ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، أن الإيمان تدخل
فيه أعمال الجوارح .

وقوله [إن الله بالناس لرءوف رحيم] أى : شديد الرحمة بهم عظيمها .
فمن رآفته ورحمته بهم ، أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها .
وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه .
وأن امتحنهم امتحاناً ، زاد به إيمانهم ، وارتفعت به درجاتهم .
وأن وجههم إلى أشرف البيوت ، وأجلها .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٤)

يقول الله لنبيه [قد نرى تقليب وجهك في السماء] أى : كثرة تردده في جميع جهاته ، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة .
وقال [وجهك] ولم يقل « بصرك » لزيادة اهتمامه ، ولأن تقليب الوجه مستلزم لتقليب البصر .

[فلنوليئك] أى : نوجهك لولايتنا إياك .

[قبله ترضاها] أى : تحبها ، وهى الكعبة .

وفى هذا بيان لفضله وشرفه صلى الله عليه وسلم ، حيث إن الله تعالى ، يسارع فى رضاه ، ثم صرح له باستقبالها فقال :

[فول وجهك شطر المسجد الحرام] والوجه : ما أقبل من بدن الإنسان .

[وحيثما كنتم] أى : من بر وبحر ، وشرق وغرب ، جنوب وشمال .

[فولوا وجوهكم شطره] أى : جهته .

ففيها اشتراط استقبال الكعبة ، للصلوات كلها ، فرضها ، وفعلها ، وأنه إن أمكن استقبال عينها ، وإلا فيكفى شطرها وجهتها .

وأن الالتفات بالبدن ، مبطل للصلاة ، لأن الأمر بالشئ نهى عن ضده .

ولما ذكر تعالى فيما تقدم ، المعتضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم

﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ
مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَنَصُّهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةٍ

وذكر جوابهم ، ذكر هنا ، أن أهل الكتاب والعلماء منهم ، يعلمون أنك
في ذلك على حق واضح ، لما يجدونه في كتبهم ، فيعترضون عناداً وبغياً .
فإذا كانوا يعمون بخطاهم ، فلا تبالوا بذلك .

فإن الإنسان إنما يغمه ، اعتراض من اعترض عليه ، إذا كان الأمر
مشتبهاً ، وكان ممكناً أن يكون معه صواب .

فأما إذا تيقن أن الصواب والحق مع المعارض عليه ، وأن المعارض
معاند ، عارف ببطلان قوله ، فإنه لا محل للبالاة ، بل ينتظر بالمعارض ،
العقوبة الدنيوية والأخروية ، فلماذا قال تعالى [وما الله بغافل عما يعملون]
بل يحفظ عليهم أعمالهم ، ويحازيهم عليها .

وفيها وعيد للمعارضين ، وتسلية للمؤمنين .

كان النبي صلى الله عليه وسلم — من كمال حرصه على هداية الخلق —
يذل غاية ما يقدر عليه من النصيحة ، ويتلطف بهدايتهم ، ويحزن إذا لم
ينقادوا لأمر الله .

فكان من الكفار ، من تمرد عن أمر الله ، واستكبر على رسل الله ،
وترك الهدى ، عمداً وعدواناً .

فمنهم : اليهود والنصارى ، أهل الكتاب الأول ، الذين كفروا بمحمد
صلى الله عليه وسلم عن يقين ، لا عن جهل .

بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا
لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

فلهذا أخبره الله تعالى أنك [لئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل
آية] أى : بكل برهان ودليل ، يوضح قولك ، ويبين ما تدعو إليه .
[ما تبعوا قبلتك] أى : ما تبعوك ، لأن اتباع القبله ، دليل على اتباعه .
ولأن السبب هو شأن القبله .
وإنما كان الأمر كذلك ، لأنهم معاندون ، عرفوا الحق وتركوه .
فالآيات إنما ينتفع بها ، من يتطلب الحق ، وهو مشتبه عليه ، فتوضح
له الآيات البينات .

وأما من جزم بعدم اتباع الحق ، فلا حيلة فيه .
وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم ، حاصل ، وبعضهم ، غير تابع قبله بعض .
فليس بغريب منهم — مع ذلك — أن لا يتبعوا قبلتك يا محمد ، وهم
الأعداء الحسدة حقيقة ، وقوله [ما أنت بتابع قبلتهم] أبلغ من قوله
[ولا تتبع] لأن ذلك يتضمن أنه صلى الله عليه وسلم انصف بمخالفتهم ،
فلا يمكن وقوع ذلك منه .

ولم يقل « ولو أتوا بكل آية » لأنهم لا دليل لهم على قولهم .
وكذلك إذا تبين الحق بأدلتهم اليقينية ، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه
الواردة عليه ، لأنها لا حد لها ، ولأنه يعلم بطلانها ، للعلم بأن كل ما نافي
الحق الواضح ، فهو باطل ، فيكون حل الشبه من باب التبرع .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ

[ولئن اتبعت أهواءهم] إنما قال «أهواءهم» ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس، حتى هم — في قلوبهم — يعلمون أنه ليس بدين . ومن ترك الدين ، اتبع الهوى ، لا محالة .

قال تعالى : [أفرأيت من اتخذ إلهه هواه]

[من بعد ما جاءك من العلم] بأنك على الحق ، وهم على الباطل .

[إنك إذا] أى : إن اتبعتمهم ، فهذا احتراز ، لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها ، ولو فى الأفهام .

[لن الظالمين] أى : داخل فيهم ، ومندرج فى جملتهم .

وأى ظلم أعظم ، من ظلم ، من علم الحق والباطل ، فأثر الباطل على الحق . وهذا ، وإن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم ، فإن أمته داخلة فى ذلك .

وأيضاً ، فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم لو فعل ذلك — وحاشاه — صار ظالماً مع علو مرتبته ، وكثرة إحسانه — فغيره من باب أولى وأحرى .

* ثم قال تعالى [الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون] الحق من ربك ، فلا تكونن من الممتريين .

يخبر تعالى : أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم ، وعرفوا أن محمداً رسول الله ، وأن ما جاء به ، حق وصدق ، وتيقنوا ذلك ، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتهون بغيره .

فمعرفةهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون .

أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾
 الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

ولكن فريقاً منهم — وهم أكثرهم — الذين كفروا به ، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها ، وهم يعلمون [ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله] . وفي ضمن ذلك ، تسلية للرسول والمؤمنين ، وتحذير له من شرهم وشبههم . وفريق منهم ، لم يكتموا الحق وهم يعلمون .

فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر به ، جهلاً . فالعالم ، عليه إظهار الحق ، وتبينه وتزيينه ، بكل ما يقدر عليه من عبارة وبرهان ، ومثال ، وغير ذلك ، وإبطال الباطل وتمييزه عن الحق ، وتشيينه ، وتقييجه للنفوس ، بكل طريق مؤد لذلك .

فهؤلاء السكاتون ، عكسوا الأمر ، فانعكست أحوالهم . [الحق من ربك] أى : هذا الحق الذى هو أحق أن يسمى حقاً من كل شيء ، لما اشتمل عليه من المطالب العالية ، والأوامر الحسنة ، وتركية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ، ودفع مفاسدها ، لصدوره من ربك ، الذى — من جملة تربيته لك ، أن أنزل عليك هذا القرآن الذى فيه تربية العقول والنفوس ، وجميع المصالح .

[فلا تكونن من الممترين] أى : فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه . بل تفكر فيه . وتأمل ، حتى تصل بذلك إلى اليقين ، لأن التفكر فيه لا محالة ، دافع للشك ، موصل لليقين .

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ
أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾ (١٤٨)

أى : كل أهل دين وملة ، له وجهة يتوجه إليها فى عبادته .
وليس الشأن فى استقبال القبلة ، فإنه من الشرائع التى تتغير بها
الأزمنة والأحوال ، ويدخلها النسخ والنقل ، من جهة إلى جهة .
ولكن الشأن كل الشأن ، فى امتثال طاعة الله ، والتقرب إليه ،
وطاب الزانى عنده .

فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية .
وهو الذى إذا لم تتصف به النفوس ، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة .
كما أنها إذا اتصفت به ، فهى الراجحة على الحقيقة ، وهذا أمر متفق عليه
فى جميع الشرائع ، وهو الذى خلق الله له الخلق ، وأمرهم به .
والأمر بالاستباق إلى الخيرات ، قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات .
فإن الاستباق إليها ، يتضمن فعلها ، وتكملها ، وإيقاعها على أكمل
الأحوال ، والمبادرة إليها .

ومن سبق فى الدنيا إلى الخيرات ، فهو السابق فى الآخرة إلى الجنات ،
فالسابقون أعلى الخلق درجة .

والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل ، من صلاة ، وصيام ، وزكاة
وحج ، وعمره ، وجهاد ، ونفع متعد وقاصر .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتُ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير ، وينشطها ،
مارتب الله عليها من الثواب قال : [أيما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن
الله على كل شيء قدير] فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته ، فيجازي كل عامل
بعمله [ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسن].

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل .
كالصلاة في أول وقتها ، والمبادرة إلى إبراء الذمة ، من الصيام ، والحج ،
والعمرة ، وإخراج الزكاة ، والإتيان بسنن العبادات وآدابها ، فله ما أجمعها
وأنفعها من آية !! .

* أى : [ومن حيث خرجت] فى أسفارك وغيرها ، وهذا للعموم ،
[قول وجهك شطر المسجد الحرام] أى : جهته .

ثم خاطب الأمة عموماً فقال [وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره] ،
وقال : [وإنه للحق من ربك] أكده بـ « إن » واللام ، لثلاث يقع لأحد
فيه أدنى شبهة ، ولثلاث يظن أنه على سبيل التشبهى لا الامتثال .

[وما الله بغافل عما تعملون] بل هو مطلع عليكم فى جميع أحوالكم ،
فتأدبوا معه ، وراقبوه بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

فإن أعمالكم غير مغفول عنها ، بل مجازون عليها أتم الجزاء ، إن خيراً
نغير ، وإن شراً ، فشر .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوُؤُلُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لَثَلَا يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ

وقال هنا [لثلا يكون للناس عليكم حجة] أى : شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة ، لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين . فإنه لو بقى مستقبلا لبيت المقدس ، لتوجهت عليه الحجة . فإن أهل الكتاب ، يحدون فى كتابهم أن قبلته المستقرة ، هى الكعبة البيت الحرام .

والمشركون يرون أن من مفاخرهم ، هذا البيت العظيم ، وأنه من ملة إبراهيم ، وأنه إذا لم يستقبله محمد صلى الله عليه وسلم ، توجهت نحوه حججهم ، وقالوا : كيف يدعى أنه على ملة إبراهيم ، وهو من ذريته ، وقد ترك استقبال قبلته ؟

فباستقبال القبلة ، قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين ، وانقطعت حججهم عليه .

[إلا الذين ظلموا منهم] أى : من احتج منهم بحجة ، هو ظالم فيها ، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم ، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه .

وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التى يوردونها على سبيل الاحتجاج ، محلا يؤبه لها ، ولا يلقى لها بال ، فلماذا قال تعالى :

[فلا تخشوهم] لأن حجبتهم باطلة ، والباطل كاسمه ، مخذول ، مخذول صاحبه .

وهذا بخلاف صاحب الحق ، فإن للحق صولة وعزا ، يوجب خشية من هو معه ، وأمر تعالى بخشيته ، التى هى رأس كل خير .

حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمِ نِعْمَتِي
عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

فمن لم يخش الله ، لم ينكف عن معصيته ، ولم يمتثل أمره .
وكان صرف المسلمين إلى الكعبة ، مما حصلت فيه فتنة كبيرة ، أشاعها
أهل الكتاب ، والنافقون ، والمشركون ، وأكثروا فيها من
الكلام والشبه .

فلهذا بسطها الله تعالى ، وبينها أكل بيان ، وأكدها بأنواع من
التأكيدات ، التي تضمنتها هذه الآيات .

منها : الأمر بها ، ثلاث مرات ، مع كفاية المرة الواحدة .
ومنها : أن المعهود ، أن الأمر ، إما أن يكون للرسول ، فتدخل فيه
الأمة ، أو للأمة عموماً .

وهذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله [قول وجهك] .
والأمة عموماً في قوله [قولوا وجوهكم] .
ومنها أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة ، التي أوردها أهل العناد
وأبطلها شبهة شبهة ، كما تقدم توضيحها .

ومنها : أنه قطع الأطاع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب .
ومنها قوله [وإنه للحق من ربك] .
فجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف ، ولكن مع هذا قال :
[وإنه للحق من ربك] .

ومنها : أنه أخبر — وهو العالم بالخفيات — أن أهل الكتاب مقرر
عندهم ، صحة هذا الأمر ، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم .

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة ، نعمة عظيمة ، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته ، لم يزل يتزايد ، وكلما شرع لهم شريعة ، فهي نعمة عظيمة قال [ولأتم نعمتي عليكم] .

فأصل النعمة ، الهداية لدينه ، بإرسال رسوله ، وإنزال كتابه . ثم بعد ذلك ، النعم المتمتات لهذا الأصل ، لا تعد كثرة ، ولا تحصر ، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا .

وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم ، وأعطى أمته ، ما أتم به نعمته عليه وعليهم ، وأنزل الله عليه [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً] .

فله الحمد على فضله ، الذي لا نبغ له عدا ، فضلاً عن القيام بشكره .

[واعلمكم تهتدون] أى : تعلمون الحق ، وتعاملون به .

فالله تبارك وتعالى — من رحمته — بالعباد ، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير ، ونبههم على سلوك طرقها ، وبينها لهم ، أتم تبين .

حتى أن في جملة ذلك ، أنه يقيض للحق ، المعاندين له فيجادلون فيه ، فيتضح بذلك الحق ، وتظهر آياته وأعلامه ، ويتضح بطلان الباطل ، وأنه لا حقيقة له .

ولولا قيامه في مقابلة الحق ، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق .

وبضدها تبين الأشياء . فلولا الليل ، ما عرف فضل النهار .

ولولا القبيح ، ما عرف فضل الحسن .

ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور .

ولولا الباطل ، ما اتضح الحق اتضحاً ظاهراً . فله الحمد على ذلك .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ
آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمُ

يقول تعالى : إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع ،
والنعم المتعممة ، ليس ذلك بيدع من إحساننا ، ولا بأوله ، بل أنعمنا عليكم
بأصول النعم ومتمماتها ، فأبلغها ، إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم ،
تعرفون نسبه وصدقه ، وأمانته وكلامه ونصحه .

[يتلو عليكم آياتنا] وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها .

فهو يتلو عليكم الآيات المينة للحق من الباطل ، والهدى من الضلال ،
التي دلتكم أولا ، على توحيد الله وكلامه ، ثم على صدق رسوله ، ووجوب
الإيمان به ، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب ، حتى حصل لكم
الهداية التامة ، والعلم اليقيني .

[ويَزَكِّيكُمْ] أى يطهر أخلاقكم ونفوسكم ، بتريتها على الأخلاق الجميلة ،
وتنزيها عن الأخلاق الرذيلة ، وذلك كتزكيتهم من الشرك ، إلى التوحيد
ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الخيانة إلى
الأمانة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق ،
ومن التباغض والتهاجر والتماضع ، إلى التجارب والتواصل والتوادر ،
وغير ذلك من أنواع التزكية .

[ويعلمكم الكتاب] أى : القرآن ، ألفاظه ومعانيه .

[والحكمة] قيل : هى السنة ، وقيل : الحكمة ، معرفة أسرار الشريعة
والفقه فيها ، وتنزيل الأمور منازلها .

مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا
لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

فيكون — على هذا — تعليم السنة داخلاً في تعليم الكتاب ، لأن
السنة ، تبين القرآن وتفسره ، وتعبر عنه .

[ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون] لأنهم كانوا قبل بعثته ، في ضلال
مبين ، لا علم ولا عمل .

فكل علم أو عمل ، نالته هذه الأمة فعلى يده صلى الله عليه وسلم ،
وبسببه كان .

فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق ، وهي أكبر نعم ينعم بها على
عباده . فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها .

فلهذا قال تعالى [فأذكركم] فأمر تعالى بذكره ، ووعد عليه
أفضل جزاء ، وهو ذكره لمن ذكره ، كما قال تعالى على لسان رسوله
﴿من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ﴾
خير منهم ﴿ .

وذكر الله تعالى ، أفضله ، ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وهو الذي
يشعر معرفة الله ومحبته ، وكثرة ثوابه .

والذكر هو رأس الشكر ، فلهذا أمر به خصوصاً ، ثم من بعده أمر
بالشكر عموماً فقال : [واشكروا لي] أي : على ما أنعمت عليكم بهذه النعم
ودفعت عنكم صنوف النقم .

والشكر يكون بالقلب ، إقراراً بالنعم ، واعترافاً ، وباللسان ، ذكراً
وثناءً ، وبالجوارح ، طاعة لله وانقياداً لأمره ، واجتناباً لنهييه .

فالشكر فيه بقاء^(١) النعمة الموجودة ، وزيادة في النعم المفقودة .

قال تعالى [لئن شكرتم لأزيدنكم] .

وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية ، من العلم وتركية الأخلاق والتوفيق للأعمال ، بيان أنها أكبر النعم ، بل هي النعم الحقيقية ، التي تدوم ، إذا زال غيرها .

وأنه ينبغي لمن وفقوا العلم أو عمل ، أن يشكروا الله على ذلك ، ليزيدهم من فضله ، وليندفع عنهم الإعجاب ، فيشتغلوا بالشكر .

ولما كان الشكر ضد الكفر ، نهى عن ضده فقال [ولا تكفرون] المراد بالكفر ههنا ، ما يقابل الشكر ، فهو كفر النعم وجدها ، وعدم القيام بها .

ويحتمل أن يكون المعنى عاما ، فيكون الكفر أنواعا كثيرة ، أعظمه الكفر بالله ، ثم أنواع المعاصي ، على اختلاف أنواعها وأجناسها ، من الشرك ، فما دونه .

(١) قوله : (فالشكر فيه بقاء النعم الخ) عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم (الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود) .

يَسَّأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

أمر الله تعالى المؤمنين ، بالاستعانة على أمورهم الدنيوية [بالصبر
والصلاة] .

فالصبر هو : حبس النفس وكفها عما تكره ، فهو ثلاثة أقسام :
صبرها على طاعة الله ، حتى تؤديها ، وعن معصية الله حتى تتركها ،
وعلى أقدار الله المؤلة فلا تدسخطها .

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر ، فلا سبيل لغير الصابر ، أن
يدرك مطلوبه .

وخصوصاً ، الطاعات الشاقة المستمرة ، فإنها مفتقرة أشد الافتقار ، إلى
تحمل الصبر ، وتجرع المرارة الشاقة .

فإذا لازم صاحبها الصبر ، فاز بالنجاح ، وإن رده المكروه والمشقة ،
عن الصبر والملازمة عليها ، لم يدرك شيئاً ، وحصل على الحرمان .

وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل
قدرة العبد .

فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم ، وكف لدواعي قلبه ونوازعها ،
لله تعالى ، واستعانة بالله على العصية منها ، فإنها من الفتن الكبار .

وكذلك البلاء الشاق ، خصوصاً إن استمر ، فهذا تضعف معه القوى
النفسانية والجسدية ، ويوجد مقتضاها ، وهو التسخط ، إن لم يقاومها
صاحبها بالصبر لله ، والتوكل عليه ، واللجأ إليه ، والافتقار على الدوام .

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد ، بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله .

فلهذا أمر الله تعالى به ، وأخبر أنه [مع الصابرين] أى : مع من كان الصبر لهم خلقا ، وصفة ، وملكة — بمعونته وتوفيقه ، وتسديده .

فهانت عليهم بذلك ، المشاق والمكاره ، وسهل عليهم كل عظيم ، وزالت عنهم كل صعوبة .

وهذه معية خاصة ، تقتضى محبته ومعونته ، ونصره وقربه ، وهذه منقبة عظيمة للصابرين .

فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله ، لكفى بها فضلا وشرفا .

وأما المعية العامة ، فهى معية العلم والقدرة ، كافى قوله تعالى : [وهو معكم أينما كنتم] وهذه عامة للخلق .

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هى عماد الدين ، ونور المؤمنين ، وهى الصلة بين العبد وبين ربه .

فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة ، مجتمعا فيها ما يلزم فيها ، وما يسر ، وحصل فيها حضور القلب ، الذى هو لبها فصار العبد إذا دخل فيها ، استشعر دخوله على ربه ، ووقوفه بين يديه ، موقف العبد الخادم المتأدب ، مستحضرا لكل ما يقوله وما يفعله ، مستغرقا بمناجاة ربه ودعائه — لاجرم أن هذه الصلاة ، من أكبر المعونة على جميع الأمور فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ
وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

ولأن هذا الحضور الذى يكون فى الصلاة ، يوجب للعبد فى قلبه ،
وصفا ، وداعياً يدعوهُ إلى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .
هذه هى الصلاة التى أمر الله ، أن نستعين بها على كل شئ .

✽ لما ذكر تبارك وتعالى ، الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأحوال ،
ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه ، وهو الجهاد فى سبيله ، وهو أفضل
الطاعات البدنية ، وأشقها على النفوس ، لمشتته فى نفسه ، ولكونه مؤدياً
للقتل ، وعدم الحياة ، التى إنما يرغب الراغبون فى هذه الدنيا لحصول
الحياة ولوازمها .

فكل ما يتصرفون به ، فإنه سعى لها ، ودفع لما يضادها .
ومن المعلوم ، أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم .
فأخبر تعالى : أن من قتل فى سبيله ، بأن قاتل فى سبيل الله ، لتكون
كلمة الله هى العليا ، ودينه الظاهر ، لا لغير ذلك من الأغراض ، فإنه لم تفته
الحياة المحبوبة ، بل حصل له حياة أعظم وأكمل ، مما تظنون وتحسبون .

فالشهداء [أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله
ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون .
يستبشرون بنعمة من الله وفضل . وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين] .

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى ، وتمتعهم برزقه
البدنى فى المأكولات والمشروبات اللذيذة ، والرزق الروحى ، وهو الفرح .
وهو الاستبشار ، وزوال كل خوف وحزن .

وهذه حياة برزخية ، أكمل من الحياة الدنيا .

بل قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش .

وفي هذه الآية ، أعظم حث على الجهاد في سبيل الله ، وملازمة الصبر عليه .

فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب ، لم يتخلف عنه أحد .

ولم يكن عدم العلم اليقيني التام ، هو الذى فتر العزائم ، وزاد نوم النائم ، وأفات الأجور العظيمة والغنائم .

لم لا يكون كذلك والله تعالى قد [... اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون] .

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس ، تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله ، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم .

ولهذا لا يتمنى الشهداء - بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه - إلا أن يردوا إلى الدنيا ، حتى يقتلون في سبيله مرة بعد مرة .

وفي الآية ، دليل على نعم البرزخ وعذابه ، كما تكاثرت بذلك النصوص -

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ
مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا

أخبر تعالى ، أنه لا بد أن يبتلى عباده بالحن ، ليتبين الصادق من
الكاذب ، والجازع من الصابر ، وهذه سنته تعالى في عباده .

لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ، ولم يحصل معها محنة ، لحصل
الاختلاط الذى هو فساد ، وحكمة الله تقتضى تمييز أهل الخير من أهل الشر .
هذه فائدة الحن ، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان ، ولا ردهم عن
دينهم ، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين .

فأخبر فى هذه الآية أنه سيبتلى عباده [بشيء من الخوف] من الأعداء
[والجوع] أى : بشيء يسير منهما .

لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله ، أو الجوع ، هلكوا ، والحن تمحص
لا تهلك .

[ونقص من الأموال] وهذا يشمل جميع النقص المعترى للأموال ،
من جوائح سماوية ، وغرق ، وضياع ، وأخذ الظالمة للأموال من الملوك
الظالمة ، وقطاع الطريق وغير ذلك .

[والأنفس] أى ذهاب الأحباب ، من الأولاد ، والأقارب ،
والأصحاب ، ومن أنواع الأمراض فى بدن العبد ، أو بدن من يحبه .

[والثمرات] أى الحبوب ، وثمار النخيل ، والأشجار كلها ،
والخضر يبرد ، أو برد ، أو حرق ، أو آفة سماوية ، من جراد ونحوه .

فهذه الأمور لا بد أن تقع ، لأن العلم الخبير ، أخبر بها ، فوقعت كما أخبر .

أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ
صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَذَكَّرُونَ ﴿١٥٧﴾

فاذا وقعت ، انقسم الناس قسمين : جازعين وصابرين .
فالجازع ، حصلت له المصيبتان ، فوات المحبوب ، وهو وجود هذه المصيبة .
وفوات ما هو أعظم منها ، وهو الأجر بامتنال أمر الله بالصبر .
ففاز بالخسارة والحرمان ، وتقص ما معه من الإيمان .
وفاته الصبر والرضا والشكران ، وحصل له السخط الدال على شدة
النقصان .

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب ، فحبس نفسه عن
التسخط ، قولاً وفعلًا ، واحتسب أجرها عند الله ، وعلم أن ما يدركه من
الأجر بصبره ، أعظم من المصيبة التي حصلت له ، بل المصيبة تكون
نعمة في حقه ، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها ، فقد
امتنل أمر الله ، وفاز بالثواب .

فلهذا قال تعالى [وبشر الصابرين] أى : بشرهم بأنهم يوفون أجرهم
بغير حساب .

فالصابرين ، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة ، والمنحة الجسيمة .
ثم وصفهم بقوله [الذين إذا أصابتهم مصيبة] وهى كل ما يؤلم القلب ،
أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره .

[قالوا إنا لله] أى : مملوكون لله ، مدبرون تحت أمره وتصريفه ،
فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء .

فإذا ابتلانا بشيء منها ، فقد تصرف أرحم الراحمين ، بماليكه وأموالهم ، فلا اعتراض عليه .

بل من كمال عبودية العبد ، علمه ، بأن وقوع البلية من المالك الحكيم ، الذى هو أرحم بعبد من نفسه .

فيوجب له ذلك ، الرضا عن الله ، والشكر له على تديره ، لما هو خير لعبد ، ، وإن لم يشعر بذلك .

ومع أننا نملوكون لله ، فإننا إليه راجعون يوم المعاد ، فجاز كل عامل بعمله . فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجراً موفوراً عنده .

وإن جزعنا وسخطنا ، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر .

فكون العبد لله ، وراجعاً إليه ، من أقوى أسباب الصبر .

[أولئك] الموصوفون بالصبر المذكور [عليهم صلوات من ربهم]
أى : ثناء وتنويه بحالهم [ورحمة] عظيمة .

ومن رحمته إياهم ، أن وفقهم للصبر الذى ينالون به كمال الأجر .

[وأولئك هم المهتدون] الذين عرفوا الحق ، وهو فى هذا الموضع ، علمهم بأنهم لله ، وأنهم إليه راجعون ، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله .

ودلت هذه الآية ، على أن من لم يصبر ، فله ضد ما لهم ، فحصل له الذم من الله ، والعقوبة ، والضلال والخسارة .

فما أعظم الفرق بين الفريقين « وما أقل تعب الصابرين ، وأعظم عناء الجازعين » .

فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها ، لتخف وتسهل ، إذا وقعت .

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ
أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ
شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨)

وبيان ما تقابل به ، إذا وقعت ، وهو الصبر .
وبيان ما يعين على الصبر ، وما للصابرين من الأجر .
ويعلم حال غير الصابر ، بضد حال الصابر .
وأن هذا الابتلاء والامتحان ، سنة الله التي قد خلت ، ولن تجد
لسنة الله تبديلاً .

وبيان أنواع المصائب .
* يخبر تعالى [إن الصفا والمروة] وهما معروفان [من شعائر الله] أى
أعلام دينه الظاهرة ، التي تعبد الله بها عباده ،
وإذا كانا من شعائر الله ، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال [ومن
يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب] .
فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله ، وأن تعظيم شعائره ، من
تقوى القلوب .

والتقوى واجبة على كل مكلف ، وذلك يدل على أن السعى بهما فرض
لازم للحج والعمرة ، كما عليه الجمهور ، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله
النبي صلى الله عليه وسلم وقال « خذوا عني مناسككم » .

[فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما] .
هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما ،
لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام .

فنفى تعالى الجناح لدفع هذا الوهم ، لا لأنه غير لازم .
ودل تقييد نفى الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة ، أنه لا يتطوع
بالسعى مفردا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة .
بخلاف الطواف بالبيت ، فإنه يشرع مع العمرة والحج ، وهو عبادة
مفردة .

فأما السعى والوقوف بعرفة ومزدلفة ، ورمى الجمار فإنها تتبع النسك .
فلو فعلت غير تابعة للنسك ، كانت بدعة ، لأن البدعة نوعان .
نوع يتعبد لله بعبادة ، لم يشرعها أصلا .
ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة ، فتفعل على غير
تلك الصفة ، وهذا منه .

وقوله [ومن تطوع] أى : فعل طاعة مخلصا بها لله تعالى [خيرا]
من حج وعمرة ، وطواف ، وصلاة ، وصوم وغير ذلك [فهو خير له] .
فدل هذا ، على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله ، ازداد خيره وكاله ،
ودرجته عند الله ، لزيادة إيمانه .

ودل تقييد التطوع بالخير ، أن من تطوع بالبدع ، التي لم يشرعها الله
ولا رسوله ، أنه لا يحصل له إلا العناء ، وليس بخير له ، بل قد يكون شرا له
إن كان متعمدا عالما بعدم^(١) مشروعية العمل .

(١) فى الأصل (لعدم) وهو خطأ لأن (علم) لا تتعدى إلا بالباء
كما قال تعالى (والله عليم بذات الصدور) .

[فإن الله شاكر عليم] الشاكر والشكور ، من أسماء الله تعالى ،
الذى يقبل من عباده اليسير من العمل ، ويحازيهم عليه ، العظيم من الأجر ،
الذى إذا قام عبده بأوامره ، وامثل طاعته ، أعانه على ذلك ، وأثنى عليه
ومدحه ، وجازاه فى قلبه نورا وإيمانا ، وسعة ، وفى بدنه قوة ونشاطا ،
وفى جميع أحواله زيادة بركة ونماء ، وفى أعماله زيادة توفيق .

ثم بعد ذلك ، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملا . موفرا ، لم
تنقصه هذه الأمور .

ومن شكره لعبده ، أن من ترك شيئا لله ، عوضه الله خيرا منه .

ومن تقرب منه شبرا ، تقرب منه ذراعا ، ومن تقرب منه ذراعا ،
تقرب منه باعا ، ومن أتاه يمشى ، أتاه هرولة ، ومن عامله ، ربح عليه أضعافا
مضاعفة .

ومع أنه شاكر ، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل ، بحسب
نيته وإيمانه وتقواه ، ممن ليس كذلك .

عليم بأعمال العباد ، فلا يضيعها ، بل يحدونها أوفر ما كانت ، على
حسب نياتهم التى اطلع عاينها العليم الحكيم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْهُدَىٰ
مِنْ بَعْدِ مَا يَبَيِّنُهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللَّهُنَّ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ

هذه الآية ، وإن كانت نازلة في أهل الكتاب ، وما كتموا من شأن
الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته ، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتما
ما أنزل الله [من البينات] الدالات على الحق المظهرات له .

[والهدى] وهو العلم الذى تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم ،
ويتبين به طريق أهل النعيم ، من طريق أهل الجحيم .

فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم ، بأن يبينوا للناس ما من الله به
عليهم من علم الكتاب ولا يكتُموه .

فمن نبذ ذلك وجع بين المفسدين ، كتم ما أنزل الله ، والغش لعباد الله
فأولئك (يلعنهم الله) أى : يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته .

[ويلعنهم اللاعنون] وهم جميع الخليقة ، فتقع عليهم اللعنة من جميع
الخليقة ، لسعيهم فى غش الخلق وفساد أديانهم ، وإبعادهم من رحمة الله ،
فجوزوا من جنس عملهم .

كما أن معلم الناس الخير ، يصلى الله عليه وملائكته ، حتى الحوت
فى جوف الماء ، لسعيه فى مصلحة الخلق ، وإصلاح أديانهم ، وقربهم
من رحمة الله ، فجوزى من جنس عمله .

فالكاتم لما أنزل الله ، مضاد لأمر الله ، مشاق لله ، يبين الله الآيات
للناس ويوضحها .

عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

وهذا يسعى في طمسها وإخفائها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد .
[إلا الذين تابوا] أى رجعوا عما هم عليه من الذنوب ، ندما وإقلاعا ،
وعزما على عدم المعاودة (وأصاحوا) ما فسد من أعمالهم .
فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن .
ولا يكفي ذلك فى الكاتم أيضا ، حتى يبين ما كتبه ، ويبدى ضد
ما أخفى .

فهذا يتوب الله عليه ، لأن توبة الله غير محجوب عنها .
فن أتى بسبب التوبة ، تاب الله عليه ، لأنه [التواب] أى . الرجاء
على عباده بالعتو والصفح ، بعد الذنب إذا تابوا ، وبالإحسان والنعم بعد
المنع ، إذا رجعوا .

[الرحيم] الذى اتصف بالرحمة العظيمة ، التى وسعت كل شئ .
ومن رحمته ، أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأتابوا ، ثم رحمهم
بأن قبل ذلك منهم ، لطفاً وكرماً ، هذا حكم التائب من الذنب .
وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه ، ولم
ينب إليه ، ولم يتب عن قريب فأولئك [عليهم لعنة الله والملائكة والناس
أجمعين] .

لأنه لما صار كفرهم وصفا ثابتاً ، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً
لا تزول ، لأن الحكم يدور مع علته ، وجوداً وعدماً .

وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ (١٦٣)

و [خالد بن فيها] أى : فى اللعنة ، أو فى العذاب ، وهما متلازمان .
و[ولا يخفف عنهم العذاب] بل عذابهم دائماً شديداً مستمراً [ولاهم ينظرون]
أى : يميلون ، لأن وقت الإمهال — وهو الدنيا — قد مضى ، ولم يبق
لهم عذر فيعتذرون .

* يخبر تعالى — وهو أصدق القائلين — أنه [إله واحد] أى : متوحد
متفرد فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله .

فليس له شريك فى ذاته ، ولا سى له ولا كفو له ، ولا مثل ، ولا نظير ،
ولا خالق ، ولا مدبر غيره .

فإذا كان كذلك ، فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادات ،
ولا يشرك به أحد من خلقه ، لأنه [الرحمن الرحيم] المتصف بالرحمة
العظيمة ، التى لا يماثلها رحمة أحد ، فقد وسعت كل شىء وعمت كل حى .
فبرحمته وجدت المخلوقات ، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات .

وبرحمته اندفع عنها كل نقمة .

وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه ، وبين لهم كل ما يحتاجون
إليه من مصالح دينهم ودنياهم ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة ، فمن الله ، وأن أحداً من المخلوقين ،
لا ينفع أحداً — علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادات ، وأن يفرد
بالحبة والخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والتوكل ، وغير ذلك من أنواع
الطاعات .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾

وأن من أظلم الظلم ، وأقبح القبيح ، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد ، وأن يشرك المخلوقين من تراب ، برب الأرباب ، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه ، مع الخالق المدبر القادر القوي . الذى قهر كل شىء . ودان له كل شىء .

ففى هذه الآية ، إثبات وحدانية البارى وإلهيته . وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التى من آثارها وجود جميع النعم ، واندفاع جميع النقم . فهذا دليل إجمالى على وحدانيته تعالى .

ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال :

[إن فى خلق السموات الأرض . الآية] .

✽ أخبر تعالى أن فى هذه المخلوقات العظيمة ، آيات أى أدلة على وحدانية

البارى وإلهيته . وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته .

واسكنها [لقوم يعقلون] أى : لمن لهم عقول يعملونها . فيما خلقت له .

فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل ، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتديبره .

ففى [خلق السموات] فى ارتفاعها واتساعها ، وإحكامها ، وإتقانها ،

وما جمل الله فيها من الشمس والقمر ، والنجوم ، وتنظيمها لمصالح العباد .

وفى خلق [الأرض] مهادا للخلق ، يمكنهم التقرار عليها ، والانتفاع

مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ

بما عليها ، والاعتبار ، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير ، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها ، وحكمته التي بها أتقنها ، وأحسنها ونظمها ، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع ، من منافع الخلق ومصالحهم ، وضروراتهم وحاجاتهم .

وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله ، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة ، لانفراده بالخلق والتدبير ، والقيام بشئون عباده .

وفي [اختلاف الليل والنهار] ، وهو تعاقبهما على الدوام ، إذا ذهب أحدهما ، خلفه الآخر .

وفي اختلافهما في الحر ، والبرد ، والتوسط ، وفي الطول ، والقصر ، والتوسط ، وما ينشأ عن ذلك من الفصول ، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم ، وجميع ما على وجه الأرض ، من أشجار ونباتات .

كل ذلك بانتظام وتدبير ، وتسخير ، تنبهر له العقول ، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول ، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها ، وعلمه وحكمته ، ورحمته الواسعة ، ولطفه الشامل ، وتصريفه وتدييره ، الذي تفرد به ، وعظمته ، وعظمة ملكه وسلطانه ، مما يوجب أن يؤله ويعبد ، ويفرد بالحبية والتعظيم ، والخوف والرجاء ، وبذل الجهد في محابه ومراضيه .

وفي [الفلك التي تجرى في البحر] وهي السفن والراكب ونحوها ، مما ألهم الله عباده صنعها ، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ، ما أقدرهم عليها .

ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح ، التي تحملها بما فيها من الركاب

دَابَّةٌ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
لَا يَأْتِ الْقَوْمَ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

والأموال ، والبضائع التي هي من منافع الناس ، وبما تقوم به مصالحهم
وتنتظم معاشهم .

فمن الذي ألهمهم صنعها ، وأقدرهم عليها ، وخلق لهم من الآلات ما به
يعملونها ؟ .

أم من الذي سخر لها البحر ، تجري فيه بإذنه وتسخيره ، والرياح ؟ .

أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية ، النار والمعادن المعينة على
حملها ، وحمل ما فيها من الأموال ؟

فهل هذه الأمور ، حصلت اتفاقاً ، أم استعمل بعملها هذا المخلوق
الضعيف العاجز ، الذي خرج من بطن أمه ، لا علم له ولا قدرة ؟ ثم خلق له
ربه القدرة ، وعلمه ما يشاء تعليمه ؟

أم المسخر لذلك رب واحد ، حكيم عليم ، لا يعجزه شيء ، ولا يمتنع
عليه شيء ؟

بل الأشياء قد دانت بربوبيته ، واستكانت لعظمته ، وخضعت لجبروته ؟
وغاية العبد الضعيف ، أن يجعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب ، التي
بها وجدت هذه الأمور العظام ، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه ،
وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له ، والخوف والرجاء ، وجميع الطاعة ،
والذل والتعظيم .

[وما أنزل الله من السماء من ماء] وهو المطر النازل من السحاب .

[فأحيا به الأرض بعد موتها] فأظهرت من أنواع الأقوات ،
وأصناف النباتات ، ماهو من ضرورات الخلائق ، التى لا يعيشون بدونها .
أليس ذلك دليلا على قدرة من أنزله ، وأخرج به ما أخرج ورحمته ،
واطفه بعباده ، وقيامه بمصالحهم ، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من
كل وجه ؟

أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم ؟
أليس ذلك دليلا على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم ؟
[وبث فيها] أى : فى الأرض [من كل دابة] أى : نشر فى أقطار
الأرض من الدواب المتنوعة ، ماهو دليل على قدرته وعظمته ، ووحدانيته
وسلطانه العظيم .

وسخرها للناس ، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع .
ففيها : ما يأكلون من لحمه ، ويشربون من دره .
ومنها : ما يركبون .
ومنها : ماهو ساع فى مصالحهم وحراستهم ، ومنها مايعتبر به .
ومنها : أنه بث فيها من كل دابة .
فإنه سبحانه ، هو القائم بأرزاقهم ، التـكفل بأقواتهم .
فما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها
وفى [تصريف الرياح] باردة وحارة ، وجنوبا وشمالا ، وشرقا ودبوراً
وبين ذلك .

وتارة تثير السحاب ، وتارة تؤلف بينه ، وتارة تلقحه ، وتارة تدره ،
وتارة تمزقه وتزيل ضرره ، وتارة تكون رحمة ، وتارة ترسل بالعذاب .
فن الذى صرفها هذا التصريف ، وأودع فيها من منافع العباد ،
مالا يستغنون عنه ؟

وسخرها ، ليعيش فيها جميع الحيوانات ، وتصلح الأبدان والأشجار ،
والحبوب والنباتات^(١) ، إلا العزيز الحكيم الرحيم ، اللطيف بعباده المستحق
لكل ذل وخضوع ، ومحبة وإناابة وعبادة ؟

وفى تسخير السحاب بين السماء والأرض — على خفته ولطافته — يحمل
الماء الكثير ، فيسوقه الله إلى حيث شاء .

(١) فى الأصل (النوبات) وهو خطأ فى التعبير ، قال فى القاموس :
والنوبات : الأغمار من الأحداث ، والأغمار : مفرد (غمر) بضم الغين
وسكون الميم ، أى : من لم يجرب الأمور ، بين الغمارة ، من قوم أغمار . ١ هـ
صاح بتصرف يسير .

وفى المصباح : ورجل غمر ، لم يجرب الأمور ، وقوم أغمار ، مثل قفل
وأققال ، والمرأة غمرة بضم الغين وسكون الميم ، يقال فى الفعل غمر بضم الميم
فى الماضى والمضارع ومصدره « غمارة » بفتح الغين ، وبنو عقيل تقول : غمر
من باب تعب ، وأصله : الصبى الذى لا عقل له . ١ هـ بتصرف ، ومن هنا
يعلم خطأ استعمال (النوبات) مراداً بها (النباتات) .

فيحيي به البلاد والعباد ، ويروى التلول والوهاد ، وينزله على الخلق
وقت حاجتهم إليه .

فإذا كان يضرهم كثرتهم ، أمسكه عنهم ، فينزله رحمة ولطفاً ، ويصرفه
عناية وعطفاً .

فما أعظم سلطانه ، وأغزر إحسانه ، وألطف امتنانه !!

أليس من القبيح بالعباد ، أن يتمتعوا برزقه ، ويعيشوا بيره وهم
يستمعون بذلك على مساخطه ومعاصيه .

أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره ، وعفوه وصفحه ، وعظيم لطفه ؟
فهو الحمد أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

والحاصل ، أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات ، وتغلغل فذكره
في بدائع المبتدعات ، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر
والحكمة ، علم بذلك ، أنها خلقت للحق وبالحق ، وأنها صحائف آيات ،
وكتب دلالات ، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته ، وما أخبرت
به الرسل من اليوم الآخر ، وأنها مسخرات ، ليس لها تدبير ولا استعصاء
على مدبرها ومصرفها .

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون ، وإليه صامدون
وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات .

فلا إله إلا الله ، ولا رب سواه .

ثم قال تعالى [ومن الناس] إلى [وما هم بخارجين من النار] .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ

* ما أحسن اتصال هذه الآية بالتى قبلها .

فإنه تعالى ، لما بين وحدانيته وأداتها القاطعة ، وبراهايتها الساطعة
الموصلة إلى علم اليقين ، المزية لكل شك .

ذكر هنا أن [من الناس] مع هذا البيان التام [من يتخذ من دون
الله أندادا] لله أى : نظراء ومثلاء ، يساويهم فى الله بالعبادة والحجة ،
والتعظيم والطاعة .

ومن كان بهذه الحالة — بعد إقامة الحجة ، وبيان التوحيد — علم
أنه معاند لله ، مشاق له ، أو معرض عن تدبر آياته والتفكر فى مخلوقاته ،
فليس له أدنى عذر فى ذلك ، بل قد حقت عليه كلمة العذاب .

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله ، لا يسوونهم بالله فى الخلق
والرزق والتدبير ، وإنما يسوونهم به ، فى العبادة ، فيعبدونهم
ليقربوهم إليه .

وفى قوله « اتخذوا » دليل على أنه ليس لله ند .

وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له ، تسمية مجردة ،
ولفظاً فارغاً من المعنى . كما قال تعالى .

[وجعلوا لله شركاء قل سمواهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم
بظاهر من القول] .

[إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان
إن يتبعون إلا الظن] .

يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

فالمخلوق ليس ندأ لله لأن الله هو الخالق ، وغيره مخلوق ، والرب هو الرازق . ومن عداه مرزوق ، والله هو الغني وأنتم الفقراء .

وهو السكامل من كل الوجوه ، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه .

والله هو النافع الضار ، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء .

فعلم علماً يقيناً ، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً .

سواء كان ملكاً أو نبياً ، أو صالحاً ، صنماً ، أو غير ذلك .

وأن الله هو المستحق للعبادة الكاملة ، والذل التام .

فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله [والذين آمنوا أشد حبا لله] أى: من أهل الأنداد لأندادهم ، لأنهم أخلصوا محبتهم له ، وهؤلاء أشركوا بها .

ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذى محبته هى عين صلاح العبد وسعادته وفوزه .

والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً ، ومحبته عين شقاء العبد وفساده ، وتشتت أمره .

فلهذا توعدهم الله بقوله .

[ولو يرى الذين ظلموا] باتخاذ الأنداد والانتقياد لغير رب العباد وظلموا الخالق بصددهم عن سبيل الله ، وسعيهم فيما يضرهم .

الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا

[إذ يرون العذاب] أى : يوم القيامة عياناً بأبصارهم .

[أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب] أى : لعلمو علماً جازماً ، أن القوة والقدرة لله كلها ، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء .

فتبين لهم في ذلك في اليوم ، ضعفها وعجزها ، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا ، وظنوا أن لها من الأمر شيئاً ، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه .

نقاب ظنهم ، وبطل سعيهم ، وحق عليهم شدة العذاب ، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً ، ولم تكن عنهم مثقال ذرة من النفع .

بل يحصل لهم الضرر منها ، من حيث ظنوا نفعها .

وتبرأ المتبعون من التابعين ، وتقطعت بينهم الوصل ، التي كانت في الدنيا ، لأنها كانت لغير الله ، وعلى غير أمر الله ، ومتعلقة بالباطل الذي لاحقيقة له ، فاضمحلت أعمالهم ، وتلاشت أحوالهم .

وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين ، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها ، انقلبت عليهم حسرة وندامة ، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً .

فهل بعد هذا الخسران خسران ؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل ، ورجوا غير مرجو ، وتعلقوا بغير متعلق ، فبطلت الاعمال ببطلان متعلقها .

ولما بطلت ، وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها ، ففترتهم غاية الضرر .

تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ
بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المدين ، وأخلص العمل لوجهه ،
ورجا نفعه .

فهذا قد وضع الحق في موضعه ، فكانت أعماله حقاً ، لتعلقها بالحق ،
فجاز بنتيجة عمله ، ووجد جزاءه عند ربه ، غير منقطع كما قال تعالى .

[الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا
وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم
سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين
آمَنُوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم] .

وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعيههم ،
بأن يتركوا الشرك بالله ، ويقبلوا على إخلاص العمل لله .

وهيئات ، فات الأمر ، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار .

ومع هذا ، فهم كذبة ، فلوردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وإنما هو قول يقولونه ، وأمانى يتمنونها ، حقاً وغيظاً على المتبوعين
لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم .

فرأس المتبوعين على الشر ، إبليس ، ومع هذا يقول لأتباعه .

[لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ،
وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى
ولوموا أنفسكم] .

يَسْأَلُهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ أُمَّةً مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا
وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا

هذا خطاب للناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم .
[فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض ،
من حبوب ، وثمار ، وفواكه ، وحيوانات ، حالة كونها [حلالا] .
أى : محلالا لكم تناوله . ليس بغصب ولا سرقة ، ولا محصلا بمعاملة
محرمة أو على وجه محرم أو معيناً على محرم .
[طيباً] أى ليس : بخبيث ، كالميتة والدم ، ولحم الخنزير ، والخبائث
كلها .

ففي هذه الآية ، دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة . أكلها
وانتفاعا ، وأن المحرم نوعان :

إما محرم لذاته ، وهو الخبيث الذى هو ضد الطيب .
وإما محرم لما عرض له ، وهو المحرم لتعلق حق الله ، أو حق عباده به ،
وهو ضد الحلال .

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب ، يأثم تاركه
لظاهر الأمر .

ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به . إذ هو عين صلاحهم ، نهاهم عن اتباع
[خطوات الشيطان] أى : طرقه التى يأمر بها ، وهى جميع العاصى ،
من كفر ، وفسوق ، وظلم .

يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَى نَتَّبِعُ مَا آَلَفَيْنَا

[ويدخل في ذلك تحريم السوائب ، والحام ، ونحو ذلك .

ويدخل فيه تناول المأكولات المحرمة .

[إنه لكم عدو مبين] أى : ظاهر العداوة ، فلا يريد بأمركم ،
إلا غشكم ، وأن تكونوا من أصحاب السعير .

فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته ، حتى أخبرنا — وهو أصدق
القائين — بعداوته الداعية للحذر منه ، ثم لم يكتف بذلك ، حتى أخبرنا
بتفصيل ما يأمر به ، وأنه أقبح الأشياء ، وأعظمها مفسدة فقال :

[إنما يأمركم بالسوء] أى : الشر الذى يسوء صاحبه ، فيدخل
في ذلك ، جميع المعاصى .

فيكون قوله : [والفحشاء] من باب عطف الخاص على العام ، لأن
الفحشاء من المعاصى ، ما تنهى قبحه ، كالزنا ، وشرب الخمر ، والقتل ،
والقذف ، والبخل ونحو ذلك ، مما يستفحشه من له عقل .

[وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون] فيدخل في ذلك ، القول على الله بلا
علم ، في شرعه ، وقدره .

فن وصف الله بغير ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، أو نفى
عنه ما أثبتته لنفسه ، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه ، فقد قال على الله بلا علم .
ومن زعم أن الله ندأ ، وأوثانا ، تقرب من عبدها من الله ، فقد قال
على الله تعالى بلا علم .

عَلَيْهِ بَاءً نَّآ أَوْ لَوْ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا
وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

ومن قال : إن الله أحل كذا ، أو حرم كذا ، أو أمر بكذا ،
أو نهى عن كذا ، بغير بصيرة ، فقد قال على الله بلا علم .

ومن قال : الله خلق هذا الصنف من المخلوقات ، للعلّة الفلانية بلا برهان
له بذلك ، فقد قال على الله بلا علم .

ومن أعظم القول على الله بلا علم ، أن يتأول المتأول كلامه ، أو كلام
رسوله ، على معانى اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال ، ثم يقول :
إن الله أرادها .

فالتقول على الله بلا علم ، من أكبر المحرمات ، وأشملها ، وأكبر
طرق الشيطان التى يدعو إليها ،

فهذه طرق الشيطان التى يدعو إليها هو وجنوده ، ويبدلون مكرهم
وخداهم ، على إغواء الخلق بما يقدرّون عليه .

وأما الله تعالى ، فإنه يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ،
وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .

فلينظر العبد نفسه ، مع أى الداعيين ، ومن أى الحزبين ؟

أتتبع داعى الله الذى يريد لك الخير والسعادة الدنوية والأخروية ،
الذى كل الفلاح بطاعته ، وكل الفوز فى خدمته ، وجميع الأرباح فى معاملته

المنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة ، الذى لا يأمر إلا بالخير ، ولا ينهى إلا
عن الشر .

أم تتبع داعى الشيطان ، الذى هو عدو الإنسان ، الذى يريد لك
الشر ، ويسعى — بمجده — على إهلاكك فى الدنيا والآخرة .

الذى كل الشر فى طاعته ، وكل الخسران فى ولايته .

والذى لا يأمر إلا بشر ، ولا ينهى إلا عن خير .

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على
رسوله ، مما تقدم وصفه ، رغبوا عن ذلك وقالوا .

[بل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا] .

فاكتفوا بتقليد الآباء ، وزهدوا فى الإيمان بالأنبياء .

ومع هذا ، فأبأهم أجهل الناس ، وأشدهم ضللاً وهذه شبهة لرد
الحق ، واهية .

فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ، ورغبتهم عنه ، وعدم إنصافهم .

فلو هدوا ، لرشدوا ، وحسن قصدهم ، لكان الحق هو القصد .

ومن جعل الحق قصده ، ووازن بينه وبين غيره ، تبين له الحق قطعاً ،
واتبعه ، إن كان منصفاً .

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ مَعَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١) ﴿﴾

ثم قال تعالى [ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم معى فهم لا يعقلون] .

لما بين تعالى ، عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل ، وردهم لذلك ، بالتقليد ، وعلم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ، ولا مستجيبين له ، بل كان معلوما لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم — أخبر تعالى ، أن مثلهم — عند دعاء الداعى لهم إلى الإيمان - كمثل البهائم التى ينعق لها راعيها ، وليس لها علم بما يقول راعيها ومناديها .

فهم يسمعون مجرد الصوت ، الذى تقوم به عاينهم الحجة ، ولكنهم لا يفقهونه فقها يفهمهم ، فلهذا كانوا صما ، لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول ، عما ، لا ينظرون نظر اعتبار ، بكما ، فلا ينطقون بما فيه خير لهم .

والسبب الموجب لذلك كله ، أنه ليس لهم عقل صحيح ، بل هم أسفه السفهاء ، وأجهل الجهلاء .

فهل يستريب العاقل ، أن من دعى إلى الرشاد ، وزيد عن الفساد ، ونهى عن اقتحام العذاب ، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه ، وفوزه ، ونعيمه فصلى الناصح ، وتولى عن أمر ربه ، واقتحم النار على بصيرة ، واتبع الباطل ، ونبذ الحق — أن هذا ليس له مسكة من عقل ، وأنه لو اتصف بالسكر والخديعة والدهاء ، فإنه من أسفه السفهاء .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ

هذا أمر للمؤمنين خاصة ، بعد الأمر العام ، وذلك أنهم هم المنتفعون
على الحقيقة — بالأوامر والنواهي ، بسبب إيمانهم ،

فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق ، والشكر لله على إنعامه ، باستعمالها
بطاعة ، والتقوى بها على ما يوصل إليه .

فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله [يا أيها الرسل كلوا من الطيبات
واعملوا صالحا] .

فالشكر في هذه الآية ، هو العمل الصالح .

وهنا لم يقل « حلالا » لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق ،
خالصة من التبعة .

ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له .

وقوله [إن كنتم إياه تعبدون] أى : فاشكروه .

فدل على أن من لم يشكر الله ، لم يعبد وحده ، كما أن من شكره ،
فقد عبده ، وأتى بما أمر به .

ويدل أيضا على أن أكل الطيب ، سبب للعمل الصالح وقبوله .

والأمر بالشكر ، عقيب النعم ، لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة ،
ويجلب النعم المفقودة .

الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ
بِأَعْرٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

كما أن الكفر ، ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة (١) .
ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث فقال [إنما حرم
عليكم الميتة] وهى : ما مات بغير تذكيه شرعية ، لأن الميتة خبيثة مضرّة ،
لردائها في نفسها ، ولأن الأغلب ، أن تكون عن مرض ، فيكون زيادة
مرض .

واستثنى الشارع من هذا العموم ، ميتة الجراد ، وسماك البحر ، فإنه
حلال طيب .

[والدم] أى : المسفوح كما قيد فى الآية الأخرى .

[وما أهل به لغير الله] أى : ذبح لغير الله ، كالذى يذبح للصنام
والأوثان ، من الأحجار ، والقبور ونحوها ، وهذا المذكور غير خاص
للمحرمات .

وجيء به ، لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله [طيبات] .

فعموم المحرمات ، تستفاد من الآية السابقة ، من قوله : [حلالا طيبا]
كما تقدم .

(١) وقوله (أن الكفر ينفر النعم المفقودة إلخ) عبر بعض الشعراء
عن هذا المعنى بقوله .

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تُزِيلُ النِّعَمَ

وإنما حرم علينا هذه الجبائث ونحوها ، لطفاً بنا ، وتنزيهاً عن المضر .
ومع هذا [فمن اضطر] أى : أُلجئ ، إلى المحرم ، يجوع وعدم ، وإكراه .
[غير باغ] أى : غير طالب المحرم ، مع قدرته على الحلال ، أو مع
عدم جوعه .

[ولا عاد] أى : متجاوز الحد فى تناول ما أبيح له ، اضطراراً .
[فلا إثم] أى : جناح وذنوب [عليه] .

وإذا ارتفع الإثم ، رجع الأمر إلى ما كان عليه .
والإنسان بهذه الحالة ، مأمور بالأكل ، بل منهى أن يلتقى بيده إلى
التهلكة ، وأن يقتل نفسه .

فيجب ، إذا ، عليه الأكل ، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات ، فيكون
قاتلاً لنفسه .

وهذه الإباحة والعسعة ، من رحمته تعالى بعباده ،
فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة فقال :
[إن الله غفور رحيم] .

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين ، وكان الإنسان فى هذه
الحالة ، ربما لا يستقصى تمام الاستقصاء فى تحقيقها — أخبر ، أنه
غفور ، فيغفر ما أخطأ فيه فى هذه الحال ، خصوصاً وقد غلبته الضرورة ،
وأذهبت حواسه المشقة .

وفى هذه الآية ، دليل على القاعدة المشهورة « الضرورات تبيح
المحظورات » .

فكل محظور ، اضطر إليه الإنسان ، فقد أباحه له ، الملك الرحمن .
فله الحمد والشكر ، أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله ، من العلم الذى أخذ الله الميثاق على أهله ، أن يبينوه للناس ولا يكتُموه .

فمن تعوض عنه بالخطام الديوى ، ونبذ أمر الله ، فأولئك .

[ما يأكلون فى بطونهم إلا النار] ، لأن هذا الثمن الذى اكتسبوه ، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب ، وأعظم المحرمات ، فكان جزاؤهم من جنس عملهم .

[ولا يكلمهم الله يوم القيامة] بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم .

فهذا أعظم عليهم من عذاب النار .

[ولا يزكهم] أى : لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة ، وليس (١) لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها .

وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التى أعظم أسبابها ، العمل بكتاب الله ، والاهتداء به ، والدعوة إليه .

فهؤلاء نبذوا كتاب الله ، وأعرضوا عنه ، واختاروا الضلالة على الهدى ، والعذاب على المغفرة .

(١) قوله : (وليس لهم أعمال إلخ) هكذا فى الأصل والصواب أن

يقال : (إذ ليس لهم أعمال تصلح للمدح إلخ) لأن المقام يقتضى التعليل بدليل

قوله : (لأنهم فعلوا أسباب التزكية إلخ) .

أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ
بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار ، فكيف يصبرون عليها ، وأنى لهم
الجلد عليها ؟ !!

[ذلك] المذكور ، وهو مجازاته بالعدل ، ومنعه أسباب الهداية ، ممن
أبأها واختار سواها .

[بأن الله نزل الكتاب بالحق] ومن الحق ، مجازاة المحسن بإحسانه ،
والمسيء بإساءته .

وأيضاً في قوله : [نزل الكتاب بالحق] ما يدل على أن الله أنزله
لهداية خلقه ، وتبيين الحق من الباطل ، والهدى من الضلال .

فمن صرفه عن مقصوده ، فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة .
[وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد] أى : وإن الذين
اختلفوا في الكتاب ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه .

والذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم [لفي شقاق]
أى : محادة .

[بعيد] من الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذى جاء بالحق الموجب
للاتفاق وعدم التناقض .

فرج أمرهم ، وكثر شقاقهم ، وترتب على ذلك افتراقهم .
بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به ، وحكموه فى كل شيء ، فإنهم
اتفقوا وارتفقوا بالحبّة والاجتماع عليه .

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَمَلَّكَتِ الْكَتِبِ

وقد تضمنت هذه الآيات ، الوعيد للكافرين لما أنزل الله ، المؤمنين عليه ، عرض الدنيا — بالعذاب والسخط ، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ، ولا بالمغفرة .

وذكر السبب في ذلك وهو إثارهم الضلالة على الهدى .

فترتب على ذلك ، اختيار العذاب على المغفرة .

ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار ، لعلمهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة إليها .

وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه ، وعدم الافتراق .

وأن كل من خالفه ، فهو في غاية البعد عن الحق ، والمنازعة والمخاصمة ،

والله أعلم .

* يقول تعالى: [ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب]

أى : ليس هذا هو البر المقصود من العباد ، فيكون كثرة البحث فيه والجدال ، من العناء الذى ليس تحته إلا الشقاق والخلاف .

وهذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة ، إنما

الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » ونحو ذلك .

[ولكن البر من آمن بالله] أى : بأنه إله واحد ، موصوف بكل

صفة كمال ، منزّه عن كل نقص .

[واليوم الآخر] وهو كل ما أخبر الله به فى كتابه ، أو أخبر به

الرسول ، مما يكون بعد الموت .

وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ

[والملائكة] الذين وصفهم الله لنا في كتابه ، ووصفهم رسوله صلى الله عليه وسلم .

[والكتاب] أى : جنس الكتب التى أنزلها الله على رسوله ، وأعظمها القرآن ، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام .

[والنبيين] عموماً ، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم [وآتى المال] وهو كل ما يتموله الإنسان من مال ، قليلاً كان أو كثيراً .

أى : أعطى المال [على حبه] أى : حب المال [على حبه] أى : حب المال .

بين به أن المال محبوب للنفوس ، فلا يكاد يخرج العبد . فمن أخرجه مع حبه له ، تقريباً إلى الله تعالى ، كان هذا برهانا لإيمانه . ومن إيتاء المال على حبه ، أن يتصدق وهو صحيح شحيح ، يأمل الفنى ، ويخشى الفقر .

وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة ، كان أفضل ، لأنه فى هذه الحال ، يجب إمساكه ، لما يتوهمه من العدم والفقر .

وكذلك إخراج النفيس من المال ، وما يحبه من ماله كما قال تعالى : [لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون] .

فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه .

ثم ذكر المنفق عليهم ، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك .

من [ذوى القربى] الذين تتوجع لمصائبهم ، وتفرح بسرورهم ، الذين يتناصرون ويتعاضدون .

وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ

فن أحسن البر وأوفقه ، تعاهد الأقارب بالإحسان المالى والقولى ،
على حسب قربهم وحاجتهم .

[واليتامى] الذين لا كاتب لهم ، وليس لهم قوة يستغنون بها .
وهذا من رحمته تعالى بالعباد ، الدالة على أنه تعالى ، أرحم بهم
من الوالد بولده .

فالله قد أوصى العباد ، وفرض عليهم فى أموالهم ، الإحسان إلى من فقد
آبائهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه .

ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره ، رحم يتيمه .
[والمساكين] وهم الذين أسكنتهم الحاجة ، وأذلم الفقر فلم حق
على الأغنياء ، بما يدفع مسكنتهم أو يخففها ، بما يقدرون عليه ، وبما يتيسر .
[وابن السبيل] وهو الغريب المنقطع به فى غير بلده .

فحث الله عباده على إعطائه من المال ، ما يعينه على سفره ، ليكون
مظنة الحاجة ، وكثرة المصارف .

فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته ، وخوله من نعمته ، أن يرحم
أخاه الغريب ، الذى بهذه الصفة ، على حسب استطاعته ، ولو بتزويده ،
أو إعطائه آلة لسفره ، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها .

[والسائلين] أى : الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج ، توجب
السؤال .

كن ابتلى بأرش جناية ، أو ضريبة عليه من ولاية الأمور ، أو يسأل
الناس لتعمير المصالح العامة ، كالمساجد ، والمدارس ، والقناطر ، ونحو ذلك ،

وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ

فهذا له الحق ، وإن كان غنياً [وفي الرقاب] فيدخل فيه العتق والإعانة عليه ، وبذل مال للمكاتب ، ليوفي سيده ، وفداء الأسرى عند الكفار ، أو عند الظلمة .

[وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة] قد تقدم مرارا ، أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة ، لكونهما أفضل العبادات ، وأكمل القربات ، عبادات قلبية ، وبدنية ، ومالية ، وبهما يوزن الإيمان ، ويعرف مامع صاحبه من الإيقاق .

[والوفون بعهدهم إذا عاهدوا] والعهد ، هو ، الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه .

فدخل في ذلك حقوق الله كلها ، لكون الله أزم بها عباده والتزموها ، ودخلوا تحت عهدها ، ووجب عليهم أداؤها ، وحقوق العباد ، التي أوجبها الله عليهم ، والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والندور ، ونحو ذلك .

[والصابرين في البأساء] أى : الفقر ، لأن الفقير يحتاج الى الصبر من وجوه كثيرة ، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ، ما لا يحصل لغيره .

فإن تنعم الأغنياء ، بما لا يقدر عليه ، تألم .

وإن جاع ، أو جاءت عياله ، تألم .

وإن أكل طعاما ، غير موافق لهواه ، تألم .

وإن عرى ، أو كاد ، تألم ، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من

المستقبل الذى يستعد له تألم ، وإن أصابه البرد الذى لا يقدر على دفعه ، تألم .

أَبَسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

فكل هذه ونحوها ، مصائب ، يؤمر بالصبر عليها ، والاحتساب ، ورجاء الثواب من الله عليها .

[والضرأ] أى : المرض على اختلاف أنواعه ، من حمى ، وقروح ، ورياح ، ووجع عضو ، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك ، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك .

لأن النفس تضعف ، والبدن ، يألَم ، وذلك فى غاية المشقة على النفوس ، خصوصا مع تطاول ذلك ، فإنه يؤمر بالصبر ، احتسابا لثواب الله تعالى .

[وحين البأس] أى : وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم ، لأن الجلاء ، يشق غاية المشقة على النفس ، ويجزع الإنسان من القتل ، أو الجراح ، أو الأسر ، فاحتيج إلى الصبر فى ذلك ، احتسابا ، ورجاء لثواب الله تعالى ، الذى منه النصر والمعونة ، التى وعدّها الصابرين .

[أولئك] أى : المتصفون بما ذكر ، من العقائد الحسنة ، والأعمال التى هى آثار الإيمان ، وبرهانه ونوره ، والأخلاق التى هى جمال الإنسان وحقيقة الإنسانية .

فأولئك [الذين صدقوا] فى إيمانهم ، لأن أعمالهم صدقت بإيمانهم .
[وأولئك هم المتقون] لأنهم تركوا المحذور ، وفعلوا المأمور .
لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير ، تضمننا ولزوما ، لأن الوفاء بالعهد ، يدخل فيه الدين كله .

ومن قام بها ، كان بما سواها أقوم ، فهو لاء الأبرار الصادقون المتقون .
وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة ، من الثواب الدنيوى والأخروى ، مما لا يمكن تفصيله فى مثل هذا الموضع .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ
فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ

يمنت تعالى على عباده المؤمنين ، بأنه فرض عليهم [القصاص في القتل]
أى : المساواة فيه ، وأن يقتل القاتل على الصفة ، التى قتل عليها المقتول ،
إقامة للعدل والقسط بين العباد

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين ، فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم
حتى أولياء القاتل حتى القاتل بنفسه - إعانة لى المقتول ، إذا طلب القصاص
ويمكنه من القاتل ، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد ، ويمنعوا الولى
من الاقتصاص ، كما عليه عادة الجاهلية ، ومن أشبههم من إيواء المحدثين .
ثم بين تفصيل ذلك فقال [الحر بالحر] يدخل بمنطوقها ، الذكر بالذكر .
[والأنثى بالأنثى] والأنثى بالذكر ، والذكر بالأنثى ، فيكون منطوقها
مقدما على مفهوم قوله « الأنثى بالأنثى » مع دلالة السنة ، على أن الذكر
يقتل بالأنثى .

وخرج من عموم هذا ، الأبوان وإن علوا .
فلا يقتلان بالولد ، لورود السنة بذلك .
مع أن فى قوله [القصاص] ما يدل على أنه ليس من العدل ، أن
يقتل الوالد بولده .

ولأن فى قلب الوالد من الشفقة والرحمة ، ما يمنعه من القتل لولده
إلا بسبب اختلال فى عقله ، أو أذية شديدة جداً من الولد له .

وخرج من العموم أيضاً ، الكافر بالسنة ، مع أن الآية فى خطاب
المؤمنين خاصة .

مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ
تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ

وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه .
والعبد بالعبد ، ذكراً كان أو أنثى ، تساوت قيمتهما أو اختلفت .
ودل بمفهومها على أن الحر ، لا يقتل بالعبد ، لكونه غير مساو له .
والأنثى بالأنثى ، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم فلم يجز قتل الرجل
بالمرأة ، وتقدم وجه ذلك .
وفى هذه الآية ، دليل على أن الأصل وجوب القود فى القتل ، وأن
الدية بدل عنه .

فهذا قال [فمن عفى له من أخيه شيء] أى عفا ولي المقتول عن القاتل
إلى الدية ، أو عفا بعض الألياء ، فإنه يسقط القصاص ، وتجب الدية ،
وتسكون الخيرة فى القود ، واختيار الدية إلى الولي .
فإذا عفا عنه ، وجب على الولي ، أى : ولي المقتول أن يتبع القاتل
[بالمعروف] من غير أن يشق عليه ، ولا يحمله مالا يطيق ، بل يحسن
الاقتضاء والطلب ، ولا يهرجه .

وعلى القاتل [أداء إليه بإحسان] من غير مظل ولا نقص ، ولا إساءة
فعلية أو قولية ، فهل جزاء الإحسان إليه بالعمو ، إلا الإحسان بحسن القضاء .
وهذا مأمور به فى كل ما يثبت فى ذمم الناس للانسان .
مأمور من له الحق ، بالاتباع بالمعروف .
ومن عليه الحق ، بالأداء بالإحسان .
وفى قوله [فمن عفى له من أخيه] ترقيق وحث على العفو إلى الدية .
وأحسن من ذلك ، العفو مجاناً .

أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

وفى قوله [أخيه] دليل على أن القاتل ، لا يكفر ، لأن المراد بالأخوة هنا ، أخوة الإيمان ، فلم يخرج بالقتل منها .
ومن باب أولى ، أن سائر المعاصي ، التي هي دون الكفر ، ولا يكفر بها فاعلمها ، وإنما ينقص بذلك إيمانه .

وإذا عفا أولياء المقتول ، أو عفا بعضهم ، احتقن دم القاتل ، وصار معصوما منهم ومن غيرهم ، ولهذا قال [فمن اعتدى بعد ذلك] أى : بعد العفو [فله عذاب أليم] أى : فى الآخرة .
وأما قتله وعدمه ، فيؤخذ مما تقدم ، لأنه قتل مكافئ له ، فيجب قتله بذلك .

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل ، وأن الآية تدل على أنه يتعين قتله ، ولا يجوز العفو عنه ، وبذلك قال بعض العلماء .

والصحيح الأول ، لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره .

ثم بين تعالى حكمته العظيمة فى مشروعية القصاص فقال :

[ولكم فى القصاص حياة] أى : تنقن بذلك الدماء ، وتنقن به الأشتياء ، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل ، لا يكاد يصدر منه القتل ، وإذا روى القاتل مقتولا اندعر بذلك غيره ، وانزجر ، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل ، لم يحصل انكفاف الشر ، الذى يحصل بالقتل .

وهكذا سائر الحدود الشرعية ، فيها من النكابة والانزجار ، ما يدل على حكمة الحكيم الغفار .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ

ونكر « الحياة » لإفادة التعظيم والتكثير .
ولما كان هذا الحكم ، لا يعرف حقيقته ، إلا أهل العقول الكاملة
والألباب الثقيلة ، خصهم بالخطاب دون غيرهم .

وهذا يدل على أن الله تعالى ، يحب من عباده ، أن يعملوا أفكارهم
وعقولهم ، في تدبر ما في أحكامه ، من الحكم ، والمصالح الدالة على كماله ،
وكمال حكمته وحمده ، وعدله ورحمته الواسعة وأن من كان بهذه المثابة ،
فقد استحق المدح بأنه من ذوى الألباب الذين وجه إليهم الخطاب ، وناداهم
رب الأرباب ، وكنى بذلك فضلا وشرفا ، لقوم يعقلون .

وقوله [لعلكم تتقون] وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه
وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة ، أوجب له
ذلك أن ينتقاد لأمر الله ، ويعظم معاصيه ، فيتركها ، فيستحق بذلك أن
يكون من المتقين .

٥٠ أى . فرض الله عليكم ، يا معشر المؤمنين [إذا حضر أحدكم الموت]
أى : أسبابه ، كالمرض المشرف على الهلاك ، وحضور أسباب المهالك .
وكان قد [ترك خيراً] وهو المال الكثير عرفا ، فعليه أن يوصى
لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف ، على قدر حاله من غير سرف ، ولا
اقتصار على الأبعد ، دون الأقرب .

بل يرتبهم على القرب والحاجة ، ولهذا أتى بأفضل التفضيل .
وقوله [حقاً على المتقين] دل على وجوب ذلك ، لأن الحق هو : الثابت
وقد جمعه الله من موجبات التقوى .

خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمَتِّينَ ﴿١٨٠﴾
فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث. وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين ، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل .

والأحسن في هذا أن يقال : إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة ، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري .

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرها من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات الموارث ، بعد أن مجملا .

وبقى الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرها ممن حجب بشخص أو وصف ، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء وهم أحق الناس بیره .

وهذا القول تتفق عليه الأمة ، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين ، لأن كلا من القائلين بهما كل منهما لحظ ملحظا ، واختلف المورد .

فبهذا الجمع ، يحصل الاتفاق ، والجمع بين الآيات فإنه أمكن الجمع ، كان أحسن من ادعاء النسخ ، الذي لم يدل عليه دليل صحيح .

ولما كان الموصى قد يمتنع من الوصية ، لما يتوهمه أن من بعده ، قد يبدل ما وصى به قال تعالى .

[فمن بدله] أى : أى الإيصاء للمذكورين أو غيرهم [بعد ما سمعه]
أى : بعد ما عقله ، وعرف طريقه وتنفيذه .

عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

[فإنما إثمهم على الذين يبدلونهم] وإلا فالوصى وقع أجره على الله ،
وإنما الإثم على المبدل المغير .
[إن الله سميع] يسمع سائر الأصوات ، ومنه سماعه لمقالة الوصى
ووصيته .

فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه ، وأن لا يحور في وصيته .
[عليم] بنيته ، وعليم بعمل الوصى إليه .
فإذا اجتهد الوصى ، وعلم الله من نيته ذلك ، أثابه ولو أخطأ .
وفيه ، التحذير للوصى إليه من التبديل .
فإن الله عليم به ، مطلع على فعله ، فليحذر من الله . هذا حكم الوصية
العادلة .

وأما الوصية التي فيها حيف وجنف ، وإثم .
فينبغي لمن حضر الوصى وقت الوصية بها ، أن ينصحه بما هو الأحسن
والأعدل ، وأن ينهاه عن الجور .
والجنف ؛ وهو : الميل بها عن خطأ ، من غير تعمد ، والاثم : وهو
التعمد لذلك .

فإن لم يفعل ذلك ، فينبغي له أن يصلح بين الوصى إليهم ، ويتوصل
إلى العدل بينهم على وجه التراضى والمصالحة ، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم
فهذا قد فعل معروفاً عظيماً ، وليس عليهم ، كما على مبدل الوصية الجائزة
ولهذا قال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا
 كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ
 فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ

[إن الله غفور] أى : يغفر جميع الزلات ، ويصفح عن التبعات لمن
 تاب إليه ، ومنه مغفرته لمن غض من نفسه ، وترك بعض حقه لأخيه ، لأن
 من سامح ، سامحه الله .
 غفور لميتهم الجائر فى وصيته ، إذا احتسبوا بمساحة بعضهم بعضا
 لأجل براءة ذمته .

رحيم بعباده ، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون .
 فدلّت هذه الآيات ، على الحث على الوصية ، وعلى بيان من هى له ،
 وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة ، والترغيب فى الإصلاح فى الوصية الجائرة .
 * يخبر تعالى ، بما من الله به على عباده ، بأنه فرض عليهم الصيام ، كما
 فرضه على الأمم السابقة ، لأنه من الشرائع والأوامر ، التى هى مصلحة
 للخلق فى كل زمان .

وفيه تشييط لهذه الأمة ، بأنه ينبغى لكم أن تنافسوا غيركم فى تكميل
 الأعمال ، والمصارعة إلى صالح الخصال ، وأنه ليس من الأمور الثقيلة ،
 التى اختصتم بها .

ثم ذكر تعالى حكمته فى مشروعية الصيام فقال [لعلكم تتقون] .
 فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى ، لأن فيه امتثال أمر الله
 واجتناب نهيه .

يُطِيقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ
وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ
الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ
فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ

فما اشتمل عليه من التقوى ، أن الصائم يترك ما حرم الله عليه
من الأكل والشرب والجماع ونحوها ، التي تميل إليها نفسه ، متقرباً بذلك
إلى الله ، راجياً بتركها ، ثوابه . فهذا من التقوى .

ومنها أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى ، فيترك ما هوى
نفسه ، مع قدرته عليه ، لعله باطلاع الله عليه .

ومنها أن الصيام يضيق مجارى الشيطان ، فإنه يجرى من ابن آدم ،
يجرى الدم ، فبالصيام ، يضعف نفوذه ، وتقل منه المعاصي .

ومنها : أن الصائم في الغالب ، تكثر طاعته ، والطاعات من خصال
التقوى .

ومنها أن الغنى إذا ذاق ألم الجوع ، أوجب له ذلك ، مواساة الفقراء
المعدمين ، وهذا من خصال التقوى .

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام ، أخبر أنه أيام معدودات ، أى :
قليلة في غاية السهولة .

ثم سهل تسهيلاً آخر . فقال [فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة
من أيام أخر] وذلك للمشقة ، في الغالب ، رخص الله لهما ، في الفطر .

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن ، أمرها أن
يقضيه في أيام أخر إذا زال المرض ، وانقضى السفر ، وحصلت الراحة .

فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ
وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

وفى قوله [فعدة من أيام] فيه دليل على أنه يقضى عدد أيام رمضان ،
كاملاً كان ، أو ناقصاً ، وعلى أنه يجوز أن يقضى أياماً قصيرة باردة ، عن أيام
طويلة حارة كالعكس .

وقوله [وعلى الذين يطيقونه] أى : يطيقون الصيام [فدية] عن كل
يوم يفطرونه [طعام مسكين] .

وهذا فى ابتداء فرض الصيام ، لما كانوا غير معتادين للصيام ، وكان
فرضه حتماً ، فيه مشقة عليهم ، درجهم الرب الحكيم ، بأسهل طريق .
وخير المطيق للصوم ، ، بين أن يصوم ، وهو أفضل ، أو يطعم .
ولهذا قال : [وأن تصوموا خير لكم] .

ثم بعد ذلك ، جعل الصيام حتماً على المطيق وغير المطيق ، يفطر ويقضيه
فى أيام آخر .

وقيل [وعلى الذين يطيقونه] أى يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير
محتملة ، كالشيخ الكبير ، فدية عن كل يوم ، طعام مسكين ، وهذا هو
الصحيح .

[شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن] أى : الصوم المفروض عليكم ،
هو شهر رمضان ، الشهر العظيم ، الذى قد حصل لكم فيه من الله الفضل
العظيم .

وهو القرآن الكريم ، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية ،
وتبيين الحق بأوضح بيان ، والفرقان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ،
وأهل السعادة وأهل الشقاوة .

فحقيق بشهر ، هذا فضله ، وهذا إحسان الله عليكم فيه ، أن يكون
موسماً للعباد ومفروضاً فيه الصيام .

فلما قرره ، وبين فضيلته ، وحكمة الله تعالى في تخصيصه قال :

[فمن شهد منكم الشهر فليصمه] هذا فيه تعيين الصيام على القادر
الصحيح الحاضر .

ولما كان النسخ للتخيير ، بين الصيام والفداء خاصة ، أعاد الرخصة
للمريض والمسافر ، لثلاث يتوهم أن الرخصة أيضاً منسوخة فقال :

[يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر] أى : يريد الله تعالى ،
أن يسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه ، أعظم تسير ، ويسهلها أبلغ
تسهيل .

ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله .

وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله ، سهله تسهيلاً آخر ، إما
بإسقاطه ، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات .

وهذه جملة لا يمكن تفصيلها ، لأن تفاصيلها ، جميع الشرعيات ، ويدخل
فيها جميع الرخص والتخفيفات .

[ولتسكلوا العدة] وهذا — والله أعلم — لثلاث يتوهم متوهم ، أن
صيام رمضان ، يحصل المقصود منه ببعضه ، دفع هذا الوهم بالأمر بتكميل

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ
إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦)

عدته ويشكر الله تعالى عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده ،
وبالتكبير عند اقتضائه ، ويدخل في ذلك ، التكبير عند رؤية هلال شوال ،
إلى فراغ خطبة العيد .

* هذا جواب سؤال سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقالوا :
يا رسول الله ، أقرب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزل .

[وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ] لأنه تعالى ، الرقيب الشهيد ،
المطلع على السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو قريب
أيضاً من داعيه ، بالإجابة .

ولهذا قال [أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ] .

والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

والقرب نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه ، وقرب من عابديه وداعيه
بالإجابة ، والمعونة والتوفيق .

فمن دعاربه بقلب حاضر ، ودعاء مشروع ، ولم يمنع مانع من إجابة
الدعاء ، كأكل الحرام ونحوه ، فإن الله قد وعده بالإجابة .

وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء ، وهي الاستجابة لله تعالى
بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية ، والإيمان به ، الموجب
للاستجابة .

لهذا قال : [فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ] أى :

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثَ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا

يحصل لهم الرشد ، الذى هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ، ويزول عنهم
البنى ، المنافى للإيمان والأعمال الصالحة .

ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره ، سبب لحصول العلم كما
قال تعالى .

[يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا] .

ثم قال تعالى [أحل لكم] إلى قوله [لعالمهم يتقون] .

* كان في أول فرض الصيام ، يحرم على المسلمين ، الأكل ، والشرب ،
والجماع في الليل بعد النوم ، فحصلت المشقة لبعضهم .

نخف الله تعالى عنهم ذلك ، وأباح في ليالى الصيام كلها ، الأكل ،
والشرب ، والجماع . سواء نام أو لم ينم ، لكونهم يمتحنون أنفسهم ، بترك
بعض ما أمروا به .

[فتاب] الله [عليكم] بأن وسع لكم أمراً كان — لولا توسعته —
موجباً للآثم [وعفا عنكم] ماسلف من التخون .

[فالآن] بعد هذه الرخصة والسعة من الله [باشروهن] وطئاً وقبله
ولمسا وغير ذلك .

[وابتغوا ما كتب الله لكم] أى : انووا في مباشرتكم لزوجاتكم ،
التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء ، وهو حصول الذرية
وإعفاف فرجه ، وفرج زوجته ، وحصول مقاصد النكاح .

مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ
إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تَبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان فلا ينبغي
لكم ، أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها ، وتضيعوها .

فاللذة مدركة ، وليلة القدر — إذا فاتت — لم تدرك .

[وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود
من الفجر] هذا غاية للأكل والشرب والجماع .

وفيه أنه إذا أكل ونحوه ، شاكا في طلوع الفجر ، فلا بأس عليه .

وفيه دليل على استعجاب السحور ، للأمر ، وأنه يستحب تأخيره ،
أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد .

وفيه أيضاً ، دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر ، وهو جنب من
الجماع ، قبل أن يغتسل ، ويصح صيامه ، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع
الفجر ، أن يدركه الفجر وهو جنب ، ولازم الحق حق .

[ثم] إذا طلع الفجر [أتموا الصيام] أى : الإمساك عن المفطرات
[إلى الليل] وهو غروب الشمس .

ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ، ليست إباحة عامة لكل
أحد ، فإن المعتكف لا يحل له ذلك ، استثناه بقوله .

[ولا تبشروهم وأنتم عاكفون في المساجد] أى : وأنتم متصفون
بذلك .

حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف ، وهو لزوم السجد ، لطاعة الله (١) تعالى ، وانقطاعا إليه وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد .
ويستفاد من تعريف المساجد ، أنها المساجد المعروفة عندهم ، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس .
وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف .

تلك المذكورات — وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام ، وتحريم الفطر على غير المعذور ، وتحريم الوطء على المعتكف ونحو ذلك من المحرمات [حدود الله] التي حدها لعباده ، ونهاهم عنها فقال :

[فلا تقربوها] أبلغ من قوله « فلا تفعلوها » لأن القربان ، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه ، والنهي عن وسائله الموصلة إليه .

والعبد مأمور بترك المحرمات ، والبعد منها ، غاية ما يمكنه ، وترك كل سبب يدعو إليه .

وأما الأوامر فيقول الله فيها « تلك حدود الله فلا تعتدوها » قهبي عن مجاوزتها .

(١) قوله (لطاعة الله) الأنسب (طاعة الله) ليتناسب مع قوله (انقطاعا) .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا ﴾

[كذلك] أى : يبين ^(١) الله لعباده الأحكام السابقة ، أتم تبين ، وأوضحها لهم ، أكل إيضاح .

[يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون] فإنهم إذا بان لهم الحق ، اتبعوه وإذا تبين لهم الباطل ، اجتنبوه .

فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم ، ولو علم تحريمه لم يفعله .

فإذا بين الله للناس آياته ، لم يبق لهم عذر ولا حجة ، فكان ذلك سببا للتقوى .

• أى : ولا تأخذوا أموالكم أى : أموال غيركم .

أضافه إليهم ، لأنه ينبغى للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويحترم ماله ، كما يحترم ماله ولأن أكله لمال غيره يجرىء غيره على أكل ماله عند القدرة .

ولما كان أكلها نوعين : نوعا بحق ، ونوعا بباطل ، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل ، قيده الله تعالى بذلك .

ويدخل بذلك ، أكلها على وجه الغضب ، والسرقة ، والخيانة في ودعة أو عارية ، أو نحو ذلك .

ويدخل فيه أيضاً ، أخذها على وجه المعاوضة ، بمعاوضة محرمة ، كعقود الربا ، والقمار كلها ، فإنها من أكل المال بالباطل ، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح .

(١) قوله « يبين » كذا في الأصل وهو تحريف بدليل ما بعد وهو

(وأوضحها) ولذلك أصلناها بـ « بين » .

يَهَيِّأ إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

ويدخل في ذلك أخذها ، بسبب غش في البيع ، والشراء ، والإجارة ، ونحوها .

ويدخل في ذلك ، استعمال الأجرار ، وأكل أجرتهم .

وكذلك أخذهم أجرة على عمل ، لم يقوموا بواجبه .

ويدخل في ذلك ، أخذ الأجرة على العبادات والقربات ، التي لا تصح ،

حتى يقصد بها وجه الله تعالى .

ويدخل في ذلك ، الأخذ من الزكوات والصدقات ، والأوقاف ،

والوصايا ، لمن ليس له حق منها ، أو فوق حقه .

فكل هذا ونحوه ، من أكل المال بالباطل ، فلا يحل ذلك بوجه

من الوجوه .

حتى ولو حصل فيه النزاع والارتفاع إلى حاكم الشرع ، وأدلى

من يريد أكلها بالباطل بحجة ، غلبت حجة الحق ، وحكم له الحاكم بذلك .

فإن حكم الحاكم ، لا يبيح محرماً ، ولا يحل حراماً ، إنما يحكم على

نحو مما يسمع ، وإلا فحقائق الأمور باقية .

فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ، ولا شبهة ، ولا استراحة .

فن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة ، وحكم له بذلك ، فإنه لا يحل له ،

ويكون آكلًا لمال غيره ، بالباطل والإثم ، وهو عالم بذلك . فيكون أبلغ

في عقوبته ، وأشد في نكاله .

وعلى هذا ، فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه ، لم يحل له أن

يخاصم عن الخائن كما قال تعالى [ولا تكن للخائنين خصيماً]

وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ
قَوْلُهُ تَعَالَى [يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ] جمع — هلال — مافائدتها وحكمتها،
أو عن ذاتها .

[قل هي مواقيت للناس] أي جعلها الله تعالى ، بلطفه ورحمته ،
على هذا التدبير .

يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر ، ثم يتزايد إلى نصفه ، ثم يشرع
في النقص إلى كماله^(١) ، وهكذا ، ليعرف الناس بذلك ، مواقيت عباداتهم ،
من الصيام ، وأوقات الزكاة ، والكفارات ، وأوقات الحج .
ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات ، ويستغرق أوقاتاً كثيرة قال :
[والحج] وكذلك تعرف بذلك ، أوقات الديون المؤجلات ، ومدة
الإجازات ، ومدة العدد^(٢) والحل ، وغير ذلك ، مما هو من حاجات الخلق .
فجعله تعالى ، حساباً ، يعرفه كل أحد ، من صغير ، وكبير ، وعالم ،
وجاهل .

فلو كان الحساب بالسنة الشمسية ، لم يعرفه إلا النادر من الناس .
[وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها] وهذا كما كان الأنصار
وغيرهم من العرب ، إذا أحرموا ، لم يدخلوا البيوت من أبوابها ، تعبداً
بذلك ، وظناً أنه بر .

(١) قوله [إلى كماله] يعني : أن الهلال لا يزال يتناقص إلى نهاية
الشهر ، حتى ينمحق فلا يرى منه شيء .

(٢) قوله « والعدد » جمع « عدة » أي عدة الطلاق وعدة المتوفى
عنها زوجها .

وَأَتُوا أَيْمُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

فأخبر تعالى ، أنه ليس من البر ، لأن الله تعالى ، لم يشرعه لهم .
وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله ، فهو متعبد ببدعة .
وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم ، التي
هي قاعدة من قواعد الشرع .
ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور ، أن يأتيه
الإنسان من الطريق السهل القريب ، الذي قد جعل له موصلا .
فالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور ،
ويستعمل معه الرفق والسياسة ، التي بها يحصل المقصود أو بعضه .
والمتعلم والعلم ، ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله ، يحصل به
مقصوده .

وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه ، وثابر عليه ،
فلا بد أن يحصل له المقصود ، يعون الملك المعبود .

[واتقوا الله] هذا هو البر ، الذي أمر الله به ، وهو لزوم تقواه
على الدوام ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فإنه سبب الفلاح ، الذي
هو الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

فمن لم يتق الله تعالى ، لم يكن له سبيل إلى الفلاح ، ومن اتقاه ، فاز
بالفلاح والنجاح .

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْفُوهُمْ
 وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ

هذه الآيات ، تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله ، وهذا كان بعد
 الهجرة إلى المدينة ، لما قوى المسلمون للقتال ، أمرهم الله به ، بعد ما كانوا
 مأمورين بكف أيديهم .

وفي تخصيص القتال [في سبيل الله] حث على الإخلاص ، ونهى
 عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين .

[الذين يقاتلونكم] أى . الذين هم مستعدون لقتالكم ، وهم المكلفون
 الرجال ، غير الشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال .

والنهي عن الاعتداء ، يشمل أنواع الاعتداء كلها ، من قتل من لا يقاتل ،
 من النساء ، والمجانين والأطفال ، والرهبان ونحوهم والتمثيل بالقتلى ، وقتل
 الحيوانات ، وقطع الأشجار ونحوها ، لغير مصلحة تعود للمسلمين .

ومن الاعتداء ، مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوا ، فإن ذلك
 لا يجوز .

[واقتلوهم حيث تقتلهم] هذا أمر بقتالهم ، أين وجدوا في كل وقت ،
 وفي كل زمان قتال مدافعة ، وقتال مهاجمة .

ثم استثنى من هذا العموم قتالهم [عند المسجد الحرام] وأنه لا يجوز
 إلا أن يبدأوا بالقتال ، فإنهم يقاتلون ، جزاء لهم على اعتدائهم .

وهذا مستمر في كل وقت ، حتي يتهموا عن كفرهم فبسلوا ، فإن الله

وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ
فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

يتوب عليهم ، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله، والشرك في المسجد
الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه وهذا من رحمته وكرمه بعباده .

ولما كان القتال عند المسجد الحرام ، يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد
الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك ، والصد عن دينه ،
أشد من مفسدة القتل ، فليس عليكم — أيها المسلمون — حرج في قتالهم .
ويستدل من هذه الآية — على القاعدة المشهورة — وهي : أنه يرتكب
أخف المفسدتين ، لدفع أعلاهما .

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله ، وأنه ليس المقصود به ،
سفك دماء الكفار ، وأخذ أموالهم .

ولكن المقصود به أن [يكون الدين لله] تعالى ، فيظهر دين الله
تعالى ، على سائر الأديان ، ويدفع كل ما يعارضه ، من الشرك وغيره ،
وهو المراد بالفتنة .

فإذ حصل هذا المقصود ، فلا قتل ولا قتال .

[فإن انتهوا] عن قتالكم عند المسجد الحرام [فلا عدوان إلا على
الظالمين] أي : فليس عليهم منكم اعتداء ، إلا من ظلم منهم ، فإنه يستحق
المعاقبة ، بقدر ظلمه .

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ

يقول تعالى : «الشهر الحرام بالشهر الحرام» ، يحتمل أن يكون المراد به ، ما وقع من صدائشرين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية ، عن الدخول لمكة ، وقاضوهم على دخولها من قابل ، وكان الصد والتضاء في شهر حرام ، وهو ذو القعدة ، فيكون هذا بهذا .

فيكون فيه ، تطيب لقلوب الصحابة ، تمام نسكهم ، وكاله .
ويحتمل أن يكون المعنى : أنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام ، فقد قاتلوكم فيه ، وهم المعتدون ، فليس عليكم في ذلك حرج .
وعلى هذا فيكون قوله : [والحرمات قصاص] من باب عطف العام على الخاص .

أى : كل شيء يحترم من شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو إجماع ، أو ما هو أعم من ذلك ، جميع ما أمر الشرع باحترامه ، فن تجرأ عليها ، فإنه يقتص منه .

فمن قاتل في الشهر الحرام ، قاتل .
ومن هتك البلد الحرام ، أخذ منه الحد ، ولم يكن له حرمة .
ومن قتل مكافئاً له قتل به ، ومن جرحه أو قطع عضواً ، منه ، اقتص منه .
ومن أخذ مال غيره المحترم ، أخذ منه بدله .

ولسكن هل لصاحب الحق ، أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا ؟
خلاف بين العلماء ، الراجح من ذلك ، أنه ، إن كان سبب الحق ظاهراً

فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

كالضيف ، إذا لم يقره غيره ، والزوجة ، والتربس إذا امتنع من تجنب
عليه النفقة من الإنفاق عليه ، فإنه يجوز أخذه من ماله .

وإن كان السبب خفياً ، كمن جحد دين غيره ، أو خانه في ودیعة ،
أو سرق منه ونحو ذلك ، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له ، جما
بين الأدلة ، ولهذا قال تعالى ، تؤكداً وتقوية لما تقدم :

[فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم] .

هذا تفسير لصفة المقاصة ، وأنها هي المائلة في مقابلة المعتدى .

ولما كانت النفوس — في الغالب — لا تتف على حدها إذا رخص
لها في المعاقبة لطلبها التشفى ، أمر تعالى بلزوم تقواه ، التي هي الوقوف عند
حدوده ، وعدم تجاوزها ، وأخبر تعالى أنه [مع المتقين] أى : بالمعون ،
والنصر ، والتأييد ، والتوفيق .

ومن كان الله معه ، حصل له السعادة الأبدية .

ومن لم يلزم التقوى ، تخلى عنه وليه ، وخذله ، فوكله إلى نفسه ،
فصار هلاكه أقرب إليه من جبل الوريد .

﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥)

يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله ، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله .

وهي كل طرق الخير ، من صدقة على مسكين ، أو قريب ، أو إنفاق على من تجب مؤنته .

وأعظم ذلك ، وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله . فإن النفقة فيه ، جهاد بالمال ، وهو فرض كالجهاد بالبدن .

وفيها من المصالح العظيمة ، الإعانة على تقوية المسلمين ، وتوهمين الشرك وأهله ، وعلى إقامة دين الله واعزازه .

فالجهاد في سبيل الله ، لا يقوم إلا على ساق النفقة .

فالنفقة له ، كالروح ، لا يمكن وجوده بدونها .

وفي ترك الإنفاق في سبيل الله ، إبطال للجهاد ، وتسليط للأعداء ، وشدة تكالبيهم .

فيكون قوله تعالى : [وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ] كالتعليل لذلك .

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين : لترك (١) ما أمر به العبد ، إذا كان تركه موجبا أو مقاربا لهلاك البدن أو الروح .

وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح ، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة .

(١) في الأصل (اترك) وهو خطأ .

فمن ذلك ، ترك الجهاد في سبيل الله ، أو النفقة فيه ، الموجب لتسلط الأعداء .

ومن ذلك ، تغرير الإنسان بنفسه ، في مقاتلة ، أو سفر مخوف ، أو محل مسبعة^(١) أو حيات ، أو يصعد شجرا ، أو بنيانا خطرا ، أو يدخل تحت شئ فيه خطر ونحو ذلك .

فهذا ونحوه ، ممن ألقى بيده إلى التهلكة .

ومن ذلك الإقامة على معاصي الله ، واليأس من التوبة .

ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض ، التي في تركها^(٢) هلاك للروح والدين .

ولما كانت النفقة في سبيل الله ، نوعاً من أنواع الإحسان ، أمر بالإحسان عموماً فقال : [وأحسنوا إن الله يحب المحسنين] وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان ، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء .

فيدخل فيه ، الإحسان بالمال كما تقدم .

ويدخل فيه ، الإحسان بالجاء ، بالشفاعات ونحو ذلك .

ويدخل في ذلك ، الإحسان بالأمر المعروف ، والنهي عن المنكر ،

وتعليم العلم النافع .

ويدخل في ذلك ، قضاء حوائج الناس ، من تفريج كرباتهم ، وإزالة

شدائدهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشجيع جنائزهم ، وإرشاد ضالهم ، وإعانة

(١) مسبعة : أرض يكثر فيها السباع .

(٢) في الأصل (التي تركها) وهو خطأ .

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ
مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ

من يعمل عملاً ، والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك ، مما هو من الإحسان
الذي أمر الله به .

ويدخل في الإحسان أيضاً ، الإحسان في عبادة الله تعالى ، وهو كما
ذكر النبي صلى الله عليه وسلم .

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

فمن اتصف بهذه الصفات ، كان من الذين قال الله فيهم [الذين أحسنوا
الحسنى وزيادة] وكان الله معه يسدده ويرشده ، ويعينه على كل أموره .
ولما فرغ تعالى من ذكر أحكام الصيام والجهاد ، ذكر أحكام الحج
فقال :

[وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ . الْآيَةُ] .

يستدل بقوله [وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ] على أمور :

أحدها ، وجوب الحج والعمرة ، وفرضيتهما .

الثانى : وجوب إتمامهما ، بأركانهما ، وواجباتهما ، التي قد دل عليها

فعل النبي صلى الله عليه وسلم وقوله « خذوا عني مناسككم » .

الثالث : أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة

الرابع : أن الحج والعمرة ، يجب إتمامهما بالشروع فيهما ، ولو

كانا نقلا .

الخامس : الأمر بإتقانها وإحسانها ، وهذا قدر زائد على فعل

ما يلزم لهما .

كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ
أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحُجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِّنَ
الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحُجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ

السادس : وفيه الأمر بإخلاصهما [لله] تعالى .

السابع : أنه لا يخرج المحرم بهما ، بشيء من الأشياء حتى يكملهما ، إلا
بما استثناه الله ، وهو الحصر ، فلهذا قال :

[فَإِن أَحْصَرْتُمْ] أى : منعتهم من الوصول إلى البيت لتسكيلهما ،
بمرض ، أو ضلالة ، أو عدو ، ونحو ذلك من أنواع الحصر ، الذى هو المنع .

[فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ] أى : فاذهبوا ما استيسر من الهدى ، وهو
سبع بدنة ، أو سبع بقرة ، أو شاة يذبجها الحصر ، ويحلق ويحل من
إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لما
صدم المشركون عام الحديبية .

فإن لم يجد الهدى ، فليصم بدله ، عشرة أيام كما فى المتمتع ثم يحل .

ثم قال تعالى [وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ] .

وهذا من محظورات الإحرام ، إزالة الشعر ، بحلق أو غيره ، لأن
المعنى واحد من الرأس ، أو من البدن ، لأن المقصود من ذلك ، حصول
الشعث والمنع من الترفه بإزالته ، وهو موجود فى بقية الشعر .

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر ، تقليم الأظفار بجامع الترفه .
ويستمر المنع مما ذكر ، حتى يبلغ الهدى محله ، وهو يوم النحر .

تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

والأفضل ، أن يكون الحلق بعد النحر ، كما تدل عليه الآية .
ويستدل بهذه الآية ، على أن المتمتع إذا ساق الهدى ، لم يتحلل من
عمرته قبل يوم النحر .
فإذا طاف وسعى للعمرة ، أحرم بالحج ، ولم يكن له إحلال بسبب
سوق الهدى .

وإما منع تبارك وتعالى من ذلك ، لما فيه من الذل والخضوع لله ،
والانكسار له ، والتواضع الذى هو عين مصلحة العبد ، وليس عليه فى
ذلك من ضرر .

فإذا حصل الضرر (١) بأن كان به أذى من مرض ، ينتفع بحلق رأسه
له ، أو قروح ، أو قمل ونحو ذلك فإنه يحل له أن يحلق رأسه ، ولكن
يكون عليه فدية ، من صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين ، أو نسك
مايجزى فى أضحية ، فهو مخير .

والنسك أفضل ، فالصدقة ، فالصيام .

ومثل هذا ، كل ما كان فى معنى ذلك ، من تقليم الأظفار ، أو تغطية
الرأس ، أو لبس الخيط ، أو الطيب ، فإنه يجوز عند الضرورة ، مع
وجوب الفدية المذكورة لأن المقصد من الجميع ، إزالة ما به يترفع .

(١) قوله (فإذا حصل) الخ. فى العبارة شىء من الاضطراب فالأوضح
أن يقال (فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض فى رأسه أو قروح
أو قمل فله أن يحلق رأسه .

ثم قال تعالى [فإذا أمنتُم] أى : بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره .

[فمن تمتع بالعمرة إلى الحج] بأن توصل بها إليه ، وانتفع بتمتعته بعد الفراغ منها .

[فما استيسر من الهدى] أى : فعليه ما تيسر من الهدى ، وهو مايجزى فى أضحية .

وهذا دم نسك ، مقابلة لحصول النسكين له فى سفرة واحدة ، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالمتعة ، بعد فراغ العمرة ، وقبل الشروع فى الحج . ومثلها ، القران لحصول النسكين له .

وبدل مفهوم الآية ، على أن المفرد للحج ، ليس عليه هدى . ودلت الآية ، على جواز ، بل فضيلة المتعة ، وعلى جواز فعلها فى أشهر الحج .

[فمن لم يجد] أى الهدى أو ثمنه [فصيام ثلاثة أيام فى الحج . أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة ، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر ، أيام رمى الجمار ، والمبيت بـ « منى » .

ولكن الأفضل منها ، أن يصوم السابع ، والثامن ، والتاسع . [وسبعة إذا رجعتُم] أى : فرغتم من أعمال الحج ، فيجوز فعلها فى مكة ، وفى الطريق ، وعند وصوله إلى أهله .

.

[ذلك] المذكور من وجوب الهدى على المتمتع .

[لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام] بأن كان عند مسافة قصر فأكثر ، أو بعيداً عند عرفات ، فهذا الذى يجب عليه الهدى ، لحصول النسكين له فى سفر واحد .

وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام ، فليس عليه هدى ، لعدم الموجب لذلك .

[واتقوا الله] أى : فى جميع أموركم ، بامتنال أو امره ، واجتناب نواهيه .

ومن ذلك ، امتثالكم لهذه المأمورات ، واجتناب هذه المحظورات المذكورة فى هذه الآية .

[واعلموا أن الله شديد العقاب] أى : لمن عصاه ، وهذا هو الموجب للتعوى ، فإن من خاف عقاب الله ، انكف عما يوجب العقاب .

كما أن من رجا ثواب الله ، عمل لما يوصله إلى الثواب .

ومن لم يخف العقاب ، ولم يرج الثواب ، اتهم المحارم ، وتجراً على ترك الواجبات .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا
فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩٧)

ينبغي تعالى أن [الحج] واقع في [أشهر معلومات] عند المحاطين ، مشهورات ، بحيث لا تحتاج إلى تخصيص . كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره ، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس .

وأما الحج ، فقد كان من ملة إبراهيم ، التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم .

والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور ، شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة ، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً .

[فمن فرض فيهن الحج] أى : أحرم به ، لأن الشروع فيه . يصيره فرضاً ، ولو كان نفلاً .

واستدل بهذه الآية ، الشافعى ومن تابعه ، على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره .

قلت لو قيل : فيها دلالة لقول الجمهور ، بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً .

فإن قوله [فمن فرض فيهن الحج] دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة وقد لا يقع فيها ، وإلا لم يقيد .

وقوله [فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج] أى : يجب أن تعظموا الإحرام بالحج ، وخصوصاً ، الواقع في أشهره ، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه ، من الرفث وهو : الجماع ومقدماته الفعلية والقولية ، خصوصاً عند النساء ، بحضرتهم .

والفسوق وهو : جميع المعاصي ، ومنها محظورات الإحرام .
والجدال ، وهو : الماراة والمنازعة والمخاصمة ، لكونها تثير الشر ،
وتوقع العداوة .

والمقصود من الحج ، الذل والانكسار لله ، والتقرب إليه بما أمكن
من القربات ، والغزاه عن مقارفة السيئات ، فإنه بذلك ، يكون مبروراً
والمبرور ، ليس له جزاء إلا الجنة .

وهذه الأشياء ، وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان ، فإنه يتغلفظ
المنع عنها في الحج .

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر .
ولهذا قال تعالى [وما تفعلوا من خير يعلمه الله] .

[أتى بـ « من » للتخصيص على ^(١) العموم فكل خير وقربة وعبادة ،
داخل في ذلك .

أى : فإن الله به عليم ، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير ،
خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمت المنيفة ، فإنه ينبغى تدارك ما
أمكن تداركه فيها ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وطواف ، وإحسان
قولى وفعلى .

ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك ، فإن التزود فيه ، الاستغناء
عن المخلوقين ، والسكف عن أموالهم ، سؤالاً واستشراً .

(١) فى الأصل (لتخصيص العموم) فأصلحناه كما ترى لتستقيم العبارة .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ
فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ

وفي الإكثار منه ، دفع وإعانة للمسافرين ، وزيادة قرينة لرب العالمين .
وهذا الزاد الذى المراد منه ، إقامة البنية — بلغة ومتاع .

وأما الزاد الحقيقى المستمر نفعه لصاحبه ، فى دنياه ، وآخره ، فهو
زاد التقوى الذى هو زاد إلى دار القرار ، وهو الموصل لأكمل لذة ،
وأجل نعيم دائماً أبداً .

ومن ترك هذا الزاد ، فهو المنقطع به الذى هو عرضة لكل شر ،
وممنوع من الوصول إلى دار المتقين . فهذا مدح للتقوى .

ثم أمر بها أولى الأبواب فقال [واتقونى يا أولى الأبواب] .

أى : يا أهل العقول الرزينة ، اتقوا ربكم ، الذى تقواه أعظم ما تأمر به
العقول ، وتركها دليل على الجهل ، وفساد رأى .

✽ لما أمر تعالى بالتقوى ، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب
فى مواسم الحج وغيره ، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان
المقصود هو الحج ، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله ، لا منسوباً
إلى حذق العبد ، والوقوف مع السبب ، ونسيان السبب ، فإن هذا هو
الحرج بعينه .

وفى قوله [فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام]
دلالة على أمور :

أحدها : الوقوف بعرفة ، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج .

وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾
ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

فالإفاضة من عرفات ، لاتكون إلا بعد الوقوف .

الثانى : الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام ، وهو المزدلفة ، وذلك أيضاً معروف ، يكون ليلة النحر بائعاً بها ، وبعد صلاة الفجر ، يقف فى المزدلفة داعياً ، حتى يسفر جداً ، ويدخل فى ذكر الله عنده ، إيقاع الفرائض والنوافل فيه .

الثالث : أن الوقوف بمزدلفة ، متأخر عن الوقوف بعرفة ، كما تدل عليه الفاء والترتيب .

الرابع ، والخامس : أن عرفات ومزدلفة ، كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها ، وإظهارها .

السادس : أن مزدلفة فى الحرم ، كما قيده بالحرام .

السابع : أن عرفة فى الحل ، كما هو مفهوم التقييد بـ « مزدلفة » .

[واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين] أى : اذكروا الله تعالى ، كما من عليكم بالهداية بعد الضلال ، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون .

فهذه من أكبر النعم ، التى يجب شكرها ومقاباتها بذكر النعم بالقلب واللسان .

[ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس] أى : ثم أفيضوا من مزدلفة ، من حيث أفاض الناس ، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن .

رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا

والمقصود من هذه الإفاضة ، كان معروفا عندهم ، وهو رمى الجمار ، وذبح
الهدايا ، والطواف ، والسعى ، والمبيت بـ « منى » ليلى التشريق وتكميل
باقى المناسك .

ولما كانت هذه الإفاضة ، يقصد بها ما ذكر ، والمذكورات آخر
المناسك ، أمر تعالى عند الفراغ منها ، باستغفاره والإكثار من ذكره .

فلاستغفار للخلل الواقع من العبد ، فى أداء عبادته وتقصيره فيها .

وذكر الله ، شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة
والمنة الجسيمة .

وهكذا ينبغى للعبد ، كلما فرغ من عبادة ، أن يستغفر الله عن التقصير ،
ويشكره على التوفيق ، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة ، ومن بها
على ربه ، وجعلت له محلا ومنزلة رفيعة ، فهذا حقيق بالمت ، ورد النعل .
كما أن الأول ، حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر .

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق ، وأن الجميع يسألونه مطالبهم ،
ويستدفعونه ما يضرهم ، ولكن مقاصدهم تختلف .

فمنهم [من يقول ربنا آتينا فى الدنيا] أى : يسأله من مطالب الدنيا
ما هو من شهواته ، وليس له فى الآخرة من نصيب ، لرغبته عنها ، وقصر
همته على الدنيا .

وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا
فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين ، ويفتقر إليه في مهمات دينه
ودنياه .

وكل من هؤلاء وهؤلاء ، لهم نصيب من كسبهم وعملهم ، وسيجازيهم
تعالى ، على حسب أعمالهم ، وهمتهم ونياتهم ، جزاء دائرا بين العدل
والفضل ، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه .

وفي هذه الآية ، دليل على أن الله يحيب دعوة كل داع ، مسلما
أو كافرا ، أو فاسقا .

ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه ، دليلا على محبته له وقربه منه ،
إلا في مطالب الآخرة ، ومهمات الدين .

والحسنة المطلوبة في الدنيا ، يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد ،
من رزق هنيئ واسع حلال ، وزوجة صالحة ، وولد تقر به العين ، وراحة ،
وعلم نافع ، وعمل صالح ، ونحو ذلك ، من المطالب المحبوبة والمباحة .

وحسنة الآخرة ، هي السلامة من العقوبات ، في القبر ، والموقف ،
والنار ، وحصول رضا الله ، والنور بالنعيم المقيم ، والقرب من
الرب الرحيم .

فصار هذا الدعاء ، أجمع دعاء وأكمله ، وأولاه بالإيثار ، ولهذا كان
النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء به ، والحث عليه .

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَكٌ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ (٢٠٣) ﴿

يأمر تعالى بذكره في الأيام المحدودات ، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد ، لمزيتها وشرفها ، وكون بقية المناسك تفعل بها ، ولكون الناس أضيافاً لله فيها ، ولهذا حرم صيامها .

فلذا كر فيها مزية ، ليست لغيرها ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « أيام التشريق ، أيام أكل وشرب ، وذكر الله » .

ويدخل في ذكر الله فيها ، ذكره عند رمي الجمار ، وعند الذبح ، والذكر المقيد عقب الفرائض .

بل قال بعض العلماء : إنه يستحب فيها التكبير المطلق ، كالعشر ، وليس ببعيد .

[فمن تعجل في يومين] أي خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثانى .

[فلا إثم عليه ومن تأخر] بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد [فلا إثم عليه] وهذا تخفيف من الله تعالى على عباده ، فى إباحة كلا الأمرين .

ولكن من المعلوم أنه إذا أبيع كلا الأمرين ، فالمتأخر أفضل ، لأنه أكثر عبادة .

ولما كان نفي الحرج ، قد يفهم منه نفي الحرج فى ذلك المذكور وفى

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى

غيره ، والحال ^(١) أن الحرج منفي عن التقدم والمتأخر فقط - قيده بقوله .
[لمن اتقى] أى : اتقى الله في جميع أموره ، وأحوال الحج .
فمن اتقى الله في كل شيء ، حصل له نفي الحرج في كل شيء .
ومن اتقاه في شيء دون شيء ، كان الجزاء من جنس العمل .
[واتقوا الله] بامتنال أو امره واجتناب معاصيه .
واعلموا أنكم إليه تمشرون [فجازيكم بأعمالكم] .
فمن اتقاه ، وجد جزاء التقوى عنده ، ومن لم يمتنه ، عاقبه
أشد العقوبة .

فالعلم بالجزاء ، من أعظم الدواعى لتقوى الله ، فلهذا حث تعالى ،
على العلم بذلك .

* لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره ، وخصوصا في الأوقات الفاضلة ،
الذى هو خير مصلحة وبر ، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف
فعله قوله ، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه فقال :
[ومن الناس من يعجبك قوله ، في الحياة الدنيا] أى : إذا تكلم ،
راق كلامه للسامع ^(٢) .

وإذا نطق ، طننته يتكلم بكلام نافع ، ويؤكد مايقول بأنه [يشهد

(١) في الأصل (والحاصل) وهو خطأ .

(٢) في الأصل (السامع) وما أثبتناه أوضح .

سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ
الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ
جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْإِمَادُ ﴿٢٠٦﴾

الله على ما في قلبه [بأن يخبر أن الله يعلم ، أن ما في قلبه موافق لما نطق به ،
وهو كاذب في ذلك ، لأنه يخالف قوله فعله .

فلو كان صادقا ، لتوافق القول والفعل ، كحال المؤمن غير المنافق ،
ولهذا قال :

[وهو ألد الخصام] أى : إذا خاصمته ، وجدت فيه من اللدد والصعوبة
والتعصب ، وما يترتب على ذلك ، ما هو من مقايح الصفات ، ليس كأخلاق
المؤمنين ، الذين جعلوا السهولة مركبهم ، والالتقياد للحق وظيقتهم ،
والسماحة سجيّتهم .

[وإذا تولى] هذا الذى يعجبك قوله إذا حضر عندك [سعى في
الأرض ليفسد فيها] أى : يجتهد على أعمال المعاصى ، التى هى إفساد في
الأرض [ويهلك] بسبب ذلك [الحرث والنسل] فالزروع والثمار والمواشى ،
تتلف وتنقص ، وتقل بركتها ، بسبب العمل فى المعاصى .

[والله لا يحب الفساد] فإذا كان لا يحب الفساد ، فهو يبغض العبد
المفسد فى الأرض ، غاية البغض ، وإن قال بلسانه قولاً حسناً .

ففى هذه الآية دليل على أن الأقوال التى تصدر من الأشخاص ،
ليست دليلاً على صدق ولا كذب ، ولا بر ولا فجور حتى يوجد العمل المصدق
(٩م - تفسير الرحمن ج ١)

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

لها، المزكى لها^(١) وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والحق والمبطل من الناس، ببر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يفتر بتوهمهم وتركيتهم أنفسهم .

ثم ذكر أن هذا الفساد فى الأرض بمعاصى الله ، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف .

[وأخذته العزة بالإثم] فيجمع بين العمل بالمعاصى والتكبر على الناصحين .
[نحسه جهنم] التى هى دار العاصين والمتكبرين .

[ولبئس المهاد] أى : المستقر والمسكن ، عذاب دائم ، وهم لا ينقطع ،
ويأس مستمر ، لا يخفف عنهم العذاب ، ولا يرجون الثواب ، جزاء لجنايتهم ومقابلة لأعمالهم .

فعياداً بالله ، من أحوالهم .

* معانى المفردات . قال فى الصحاح : شريت الشئ أشريه شراء : إذا بعته وإذا اشتريته أيضاً ، وهو من الأضداد .

قال الله تعالى [ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله] أى : يبيعها .

[وقال تعالى : وشروه بثمن بخس دراهم معدودة] أى : باعوه اه ومثله فى القاموس .

هذه الآية نزلت فى صهيب بن سنان الرومى حين أرادته المشركون

(١) قوله (المصدق لها المزكى) تكرار (لا) بعد (المصدق) و (المزكى) لاداعى له . فالأنسب أن يقال (المصدق والمزكى لها) .

على ترك الإسلام ، كما رواه ابن عباس وأنس ، وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعكرمة وجماعة غيرهم .

وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة ، منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر : فعل .

فتخلص منهم وأعطاهم ماله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة ، إلى طرف الحرة ، فقالوا له : ربح البيع

ربح البيع

فقال : وأنتم ، فلا أخسر الله تجارتكم ، وما ذاك ؟

فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية .

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ربح البيع صهيب » .

وحدث أبو عثمان النهدي عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة

إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لى قريش :

يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ؟ والله

لا يكون ذلك أبداً .

فقلت لهم : رأيتم إن دفعت إليكم مالى تخلون عني ؟ قالوا : نعم .

فدفعت إليهم مالى ، تخلوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة .

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ربح صهيب ربح صهيب »

مرتين .

وقال حماد بن سلمة ، عن علي بن يزيد ، عن شعيب بن المسيب قال :

أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي صلى الله عليه وسلم، فاتبعه نفر من قريش.
فنزّل عن راحلته، ونثّل ما في كنانته، ثم قال :
يامعشر قريش، قد علمتم أنّي من أركم رجلا .
وأنتم — والله — لا تصلون إلى حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ،
ثم أضرب بسيفي ، ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم .
وإن شئتم دللتكم على مالي وقنيتي بمكة ، وخاتمت سبيلي ، قالوا له : نعم .
فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ربح البيع » قال : ونزلت
ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد^(١).
وأما الأكترون ، ففعلوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل
الله كما قال تعالى :

[إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في
سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن
أوفى بهذه من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم].
ولما حل هشام بن عامر بين الصفين ، أنكر عليه بعض الناس .
فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما ، وتلوا هذه الآية .
ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد اهـ .
من تفسير ابن كثير بتصرف يسير .

(١) قال أبو السعود في تفسيره : فـ « يشرى » حينئذ بمعنى « يشتري »
لجريان الحال على صورة الشرى اهـ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً
وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨)
فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا [في السلم كافة] أى : في
جميع شرائع الدين ، ولا يتركوا منها شيئاً ، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه
هواه ، إن وافق الأمر المشروع هواه فعليه ، وإن خالفه ، تركه .
بل الواجب ، أن يكون الهوى ، تبعاً للدين ، وأن يفعل كل ما يقدر
عليه ، من أفعال الخير ، وما يعجز عنه ، يلتزمه وينويه ، فيدركه بنيته .
ولما كان الدخول في السلم كافة ، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق
الشیطان قال :

[ولا تتبعوا خطوات الشيطان] أى : في العمل بمعاصي الله [إنه لكم
عدو مبين] ظاهر العداوة .

والعدو المبين ، لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء ، وما به الضرر عليكم .

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل ، قال تعالى [فإن زللتم]
أى أخطأتم ووقعتم في الذنوب . [من بعد ما جاءكم البينات] أى : على
علم ويقين [فاعلموا أن الله عزيز حكيم] .

وفيه من الوعيد الشديد ، والتخويف ، ما يوجب ترك الزلل ، فإن
العزيز المقام الحكيم ، إذا عصاه العاصي ، قهره بقوته ، وعذبه بمقتضى حكمته
فإن من حكمته ، تعذيب العصاة والجناة .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ اللَّغَامِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ، ما تنخاع له القلوب .

يقول تعالى : هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض ، المتبعون لخطوات الشيطان ، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال ، الذى قد حشى من الأهوال والشدائد والفضائع ، ما يقلقل قلوب الظالمين ، ويحيق به الجزاء السيئ على المفسدين .

وذلك أن الله تعالى يطوى السموات والأرض ، وتنتثر الكواكب ، وتكور الشمس والتمر ، وتنزل الملائكة الكرام ، فتحيط بالخالق ، وينزل البارى تبارك وتعالى [فى ظلل من الغمام] ليفصل بين عباده بالقضاء العدل .

فتوضع الموازين ، وتنشر الدواوين ، وتبيض وجوه أهل السعادة وتسود وجوه أهل الشقاوة ، ويتميز أهل الخير من أهل الشر . وكل يجازى بعمله .

فهناك بعض الظالم على يديه ، إذا علم^(١) حقيقة ما هو عليه . وهذه الآية وما أشبهها ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، المثبتين

(١) قوله (إذا علم إلخ) تعبير فيه نظر ، لأن العلم فى عرصات القيامة متحقق لجميع المخلوقين ، فالأنسب أن يقال (حينما يرى ما هو فيه من سوء الحال ، وتنكشف حالته التى فارق عليها الدنيا ، فيشاهدها متجسدة ومائلة أمام ناظره) .

للصفات الاختيارية ، كالاستواء ، والنزول ، والمجىء ، ونحو ذلك من الصفات
التي أخبر بها تعالى ، عن نفسه ، وأخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم .
فيثبتونها لمعانيها على وجه يليق بجلال الله وعظمته ، من غير تشبيه
ولا تحريف . ولا تعطيل .

خلافًا للمعطلة ، على اختلاف أنواعهم ، من الجهمية ، والمعتزلة ،
والأشعرية ونحوهم ، ممن ينفي هذه الصفات ، ويتأول — لأجلها — الآيات
بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان ، بل حقيقتها ، القدح في بيان الله وبيان
رسوله ، والزعم بأن كلامهم ، هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب .
فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي ، بل ولا دليل عقلي .

أما النقلى ، فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ،
ظاهرها ، بل صريحها ، دال على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأنها تحتاج
لدلائلها على مذهبهم الباطل ، أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص .
وهذا كما ترى ، لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأما العقل ، فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات .
بل العقل دل على أن الفاعل ، أكمل من الذى لا يقدر على الفعل ، وأن
فعله تعالى ، المتعلق بنفسه ، والمتعلق بخلقه ، هو كمال .

فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه .
قيل لهم : الكلام على الصفات ، يتبع الكلام على الذات .
فكما أن لله ذاتًا لا تشبهها الذوات ، فله صفات لا تشبهها الصفات .
فصفاته تبع لذاته ، وصفات خلقه ، تبع لذواتهم ، فليس في إثباتها ،
ما يقتضى التشبيه بوجه .

﴿سَلِّ بْنِ إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ
وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾ (٢١١)

ويقال أيضاً ، لمن أثبت بعض الصفات ، ونفى بعضاً ، أو أثبت الأسماء
دون الصفات :

إما أن تثبت الجميع كما أثبتته الله لنفسه ، وأثبتته رسوله .

وإما أن تنفى الجميع ، وتكون منكراً لرب العالمين .

وأما إثباتك بعض ذلك ، ونفيك لبعضه ، فهذا تناقض .

ففرق بين ما أثبتته ، وبين ما نفيته ، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً .

فإن قلت : ما أثبتته لا يقتضى تشبيها .

قال لك أهل السنة والإثبات : لما نفيته لا يقتضى تشبيها .

فإن قلت : لا أعقل من الذى نفيته إلا التشبيه .

قال لك النفاة : ونحن لا نعقل من الذى أثبتته إلا التشبيه .

فما أجبت به النفاة ، أجابك به أهل السنة ، لما نفيته .

والحاصل أن من نفى شيئاً ، مما دل الكتاب والسنة على إثباته ، فهو

متناقض ، لا يثبت له دليل شرعى ولا عقلى ، بل قد خالف المعقول والمنقول .

* يقول تعالى : [سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة] تدل على
الحق ، وعلى صدق الرسل ، فتيقنوها وعرفوها ، فلم يقوموا بشكر هذه
النعمة ، التى تقتضى القيام بها .

بل كفروا بها ، وبدلوا نعمة الله كفرأ ، فلهذا استحقوا أن ينزل

الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه .

وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها ، لأن من أنعم الله عليه نعمة

﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْحِيُوهُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٢١٢﴾

دنيئة أو دنيوية ، فلم يشكرها ، ولم يقدّر بواجبها ، اضمحلت عنه وذهبت ،
وتبدلت بالكفر والمعاصي ، فصار الكفر بدل النعمة .

وأما من شكر الله تعالى ، وقام بحققها ، فإنها تثبت وتستمر ، ويزيده الله منها .
* يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ، ولم يفتقدوا لشرعه ،
أنهم زينتم لهم الحياة الدنيا .

فزينت في أعينهم وقلوبهم ، فرضوا بها ، واطمأنوا بها^(١) فصارت
أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها ، فأقبلوا عليها ، وأكبوا على تحصيلها ،
وعظموها ، وعظموا من شاركتهم في صنيعهم ، واحتقروا المؤمنين ، واستهزأوا
بهم وقالوا :

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر ، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان ،
وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران .

بل المؤمن في الدنيا ، وإن ناله مكروه ، فإنه يصبر ويحتسب ، فيخفف
الله عنه بليمانه وصبره ، ما لا يكون لغيره .

وإنما الشأن كل الشأن ، والتفضيل الحقيقي ، في الدار الباقية ، فلهذا قال
تعالى : [والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة] فيكون المتقون في أعلى الدرجات ،

(١) قوله « اطمأنوا بها » الأوضح أن يقال « اطمأنوا إليها » على تضمين
« اطمأن » كلمة « ارتاح » أو « استكان » وهذا ما يقتضيه سياق الكلام وسباقه .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ

متمتعين بأنواع النعيم والسرور ، والبهجة والحبور .
والكفار تحتم في أسفل الدرجات ، معذبين بأنواع العذاب والإهانة ،
والشقاء السرمدي ، الذي لا منتهى له .

ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين ، ونعي على الكافرين .
ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية ، لا تحصل إلا بتقدير الله ،
ولن تنال إلا بمشيئة الله قال تعالى : [والله يرزق من يشاء بغير حساب]
فالرزق الدنيوى ، يحصل للمؤمن والكافر .
وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ، ومحبة الله ، وخشيته ورجائه
ونحو ذلك ، فلا يعطيها إلا من يحبه .

✽ أى : كان الناس مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء ، ليس لهم نور
ولا إيمان .

فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم [مبشرين] من أطاع الله
بشرات الطاعات ، من الرزق ، والقوة فى البدن والقلب ، والحياة الطيبة ،
وأعلى ذلك ، الفوز برضوان الله والجنة .

[ومنذرين] من عصى الله ، بشرات المعصية ، من حرمان الرزق ،
والضعف ، والإهانة ، والحياة الضيقة ، وأشد ذلك ، سخط الله والنار .

[وأنزل معهم الكتاب بالحق] وهو الإخبارات الصادقة ، والأوامر
العادلة .

فِيمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اُخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ أَحَقِّ
بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

فكل ما اشتملت عليه الكتب الإلهية ، فهو حق ، يفصل بين المختلفين
في الأصول والفروع .

وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع ، أن يرد الاختلاف
والتنازع ، إلى الله وإلى رسوله .

ولولا أن في كتابه ، وسنة رسوله ، فصل النزاع ، لما أمر بالرد إليهما .
ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب ، وكان
هذا يقتضى اتفاقهم عليها واجتماعهم - أخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على
بعض ، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف .

فاختلفوا في الكتاب الذى ينبغى أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع
عليه ، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات ، والأدلة القاطعات ،
وضلوا بذلك ضلالا بعيدا .

[وهدى الله الذين آمنوا] من هذه الأمة [لما اختلفوا فيه من الحق]
فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب ، وأخطأوا فيه الحق والصواب ،
هدى الله للحق فيه هذه الأمة [بإذنه] تعالى وتيسيره لهم ورحمته .
[والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم] .

فعم الخلق تعالى ، بالدعوة إلى الصراط المستقيم ، عدلا منه تعالى ، وإقامة
حجة على الخلق ، لئلا يقولوا « ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

وهدى — بفضله ورحمته ، وإعانتة ولطفه — من شاء من عباده .
فهذا فضله وإحسانه ، وذاك عدله وحكمته ، تبارك وتعالى .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبُتْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى
يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ
قَرِيبٌ﴾ (٢١٤)

يخبر تبارك وتعالى ، أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة
كما فعل بمن قبلهم ، فهي سنته الجارية ، التي لا تتغير ولا تبدل ، أن من
قام بدينه وشرعه ، لا بد أن يبتليه .

فإن صبر على أمر الله ، ولم يبال بالمكاره الواقعة في سبيله ، فهو الصادق
الذى قد زال من السعادة كما لها ، ومن السيادة آلتها .

ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله ، بأن صدته المكاره عما هو بصده
وثنائه الحن عن مقصده ، فهو الكاذب في دعوى الإيمان .

فإنه ليس الإيمان بالتجلى والتمنى ، ومجرد الدعاوى ، حتى تصدقه الأعمال
أو تكذبه .

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم [مستهم البأساء
والضراء] أى : الفقر والأمراض في أبدانهم .

[وزلزلوا] بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل ، والنفى ، وأخذ
الأموال ، وقتل الأحبة ، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال ، وآل
بهم الزلزال ، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به .

ولكن لشدة الأمر وضيته [يقول الرسول والذين آمنوا معه متى
نصر الله] .

فلما كان الفرج عند الشدة ، وكلما ضاق الأمر اتسع . قال تعالى :

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أُنْفِقُ مِنْ خَيْرٍ
فَلَوْلَ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥)

[ألا إن نصر الله قريب] فهكذا كل من قام بالحق فإنه يتمتع .
فكلما اشتدت عليه وصعبت — إذا صابر وثابر على ما هو عليه —
انتلبت الحنة في حقه منحة ، والمشقات راحات ، وأعقبه ذلك ، الانتصار على
الأعداء وشفاء ما في قلبه من الداء .

وهذه الآية نظير قوله تعالى [أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله
الذين جاهدوا ويعلم الصابرين] .

وقوله تعالى [ألم] أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم
لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن
الكاذبين [فعند الامتحان ، يكرم المرء أو يهان .

* أى : يسألونك عن النفقة ، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه .
فأجابهم عنها فقال : [قل ما أنفقتم من خير] أى : مال قليل أو كثير ،
فأولى الناس به ، وأحقتهم بالتقديم ، أعظمهم حقاً عليك ، وهم الوالدان
الواجب برهما ، والمحرم عقوقهما .

ومن أعظم برهما ، النفقة عليهما ، ومن أعظم العقوق ، ترك الإنفاق عليهما .
ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة ، على الولد المورس .

ومن بعد الوالدين ، الأقربون ، على اختلاف طبقاتهم ، الأقرب
فالأقرب ، على حسب القرب والحاجة ، فالإنفاق عليه صدقة وصلة .

[واليتامى] وهم الصغار الذين لا كاسب لهم ، فهم في مظنة الحاجة ،

﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ

لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم ، وفقد الكاسب ، فوصى الله بهم العباد ، رحمة منه بهم ولطفاً .

[والمساكين] وهم أهل الحاجات ، وأرباب الضرورات الذين أسكنتهم الحاجة ، فينفق عليهم ، لدفع حاجاتهم وإغنائهم .

[وابن السبيل] أى : الغريب المنقطع به فى غير بلده ، فيعان على سفره بالنفقة ، التى توصله إلى مقصده .

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف ، لشدة الحاجة ، عمم تعالى فقال :

[وما تفعلوا من خير] من صدقة على هؤلاء وغيرهم ، بل ومن جميع أنواع الطاعات والتقربات ، لأنها تدخل فى اسم الخير .

[فإن الله به عليم] فيجازيكم عليه ، ويحفظه لكم ، كل على حسب نيته وإخلاصه ، وكثرة نفقته وقلتها ، وشدة الحاجة إليها ، وعظم وقعها ونفعها .

* هذه الآية ، فيها فرض القتال فى سبيل الله ، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه ، لضعفهم ، وعدم احتمالهم لذلك .

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكثر المسلمون ، وقوا أمرهم الله تعالى بالقتال .

وأخبر أنه مكروه للنفوس ، لما فيه من التعب والمشقة ، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتألف .

ومع هذا ، فهو خير محض ، لما فيه من الثواب العظيم ، والتحرز من العقاب الأليم ، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم ، وغير ذلك ، مما هو مرب ، على ما فيه من الكراهة .

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ
شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

[وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم] وذلك مثل القعود عن الجهاد
لطلب الراحة ، فإنه شر ، لأنه يعقب الخذلان ، وتسلب الأعداء على الإسلام
وأهله ، وحصول الذل والهوان ، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب .
وهذه الآيات ، عامة مطردة ، في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس —
لما تنوهم فيها من الراحة واللذة — فهي شر ، بلا شك .

وأما أحوال الدنيا ، فليس الأمر مطرداً ، ولكن الغالب على العبد
المؤمن ، أنه إذا أحب أمراً من الأمور ، فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه
عنه أنه خير له ، فالأوفق له في ذلك ، أن يشكر الله ، ويعتقد الخير في الواقع ،
لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه ، وأقدر على مصلحة عبده منه ،
وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالى [والله يعلم وأنتم لا تعلمون] .

فالاتق بكم أن تتمشوا مع أقداره ، سواء سركم أو ساءتكم .

ولما كان الأمر بالقتال ، لو لم يقيد ، لشمل الأشهر الحرم وغيرها ، استثنى
تعالى ، القتال في الأشهر الحرم فقال : [يسألونك عن الشهر الحرام . الآية] .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ

الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ، منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا .

وقال بعض المفسرين : إنه لم ينسخ ، لأن المطلق محمول على المقيد .

وهذه الآية مقيدة ، لعموم الأمر بالقتال مطلقاً .

ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم : بل أكبر مزاياها ، تحريم القتال فيها ، وهذا إنما هو في قتال الابتداء .

وأما قتال الدفع . فإنه يجوز في الأشهر الحرم ، كما يجوز في البلد الحرام . ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل ، لسرية عبدالله بن جحش ، وقتلهم عمرو بن الحضرمي ، وأخذهم أموالهم ، وكان ذلك — على ما قيل في شهر رجب — غيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم ، وكانوا في تعييرهم ظالمين ، إذ فيهم من القبائح ، ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين ، قال تعالى في بيان ما فيهم .

[وصد عن سبيل الله] أى : صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله ، وفتنتهم من آمن به ، وسعيهم في رددهم عن دينهم ، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، الذى هو بهجرده ، كاف في الشر . فكيف ، وقد كان في شهر حرام وبلد حرام ؟ !! .

[وإخراج أهله] أى : أهل المسجد الحرام ، وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لأنهم أحق به من المشركين ، وهم عماره على الحقيقة ، فأخرجوهم

يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

[منه] ولم يمكنوهم من الوصول إليه ، مع أن هذا البيت ، سواء العاكف
فيه والباد .

فهذه الأمور كل واحد منها [أكبر من القتل] في الشهر الحرام ،
فكيف وقد اجتمعت فيهم ؟ ! فعلم أنهم فسقة ظلمة ، في تعييرهم المؤمنين .

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين .

وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم ، وإنما غرضهم أن يرجعوا عن دينهم ،
ويكونوا كفاراً بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير .

فهم باذلون قدرتهم في ذلك ، شاعون بما أمكنهم ، ويأبى الله إلا أن
يتم نوره ، ولو كره الكافرون .

وهذا الوصف ، عام لكل الكفار ، لا يزالون يقاتلون غيرهم ، حتى
يردوهم عن دينهم .

وخصوصاً ، أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، ألّفوا الجمعيات ،
ونشروا الدعاة ، وبثوا الأطباء ، وبنوا المدارس ، لجذب الأمم إلى دينهم ،
وإدخالهم عليهم ، كل ما يمكنهم من الشبه ، التي تشككهم في دينهم .

ولكن الرجو من الله تعالى ، الذي من على المؤمنين بالإسلام ، واختار

.

لهم دينه القيم ، وأكمل لهم دينه — أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم قيام ،
وأن يخذل كل من أراد أن يطفىء نوره ، ويعمل كيدهم في نحورهم ، وينصر
دينه ، ويعلى كلمته .

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار ، كما
صدقت على من قبلهم .

[إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فيسبغونها
ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون] .
ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام ، بأن اختار عليه الكفر
واستمر على ذلك حتى مات كافراً .

[فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة] لعدم وجود شرطها ،
وهو الإسلام .

[وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] .
ودلت الآية بمفهومها ، أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام ، أنه يرجع
إليه عمله .

وكذلك من تاب من المعاصي ، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢١٨)

هذه الأعمال الثلاثة ، هي عنوان السعادة وقطب رضى العبودية ، وبها يعرف ما مع الإنسان ، من الربح والخسران .

فأما الإيمان ، فلا تسأل عن فضيلته ، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وأهل الجنة من أهل النار ؟

وهو الذى إذا كان مع العبد ، قبلت أعمال الخير منه ، وإذا عدم منه ، لم يقبل له صرف ولا عدل ، ولا فرض ، ولا نفل .

وأما الهجرة ، فهي مفارقة المحبوب المألوف ، لرضا الله تعالى .

فيترك المهاجر وطنه ، وأمواله ، وأهله ، وخلاته ، تقرباً إلى الله ونصرة لدينه .

وأما الجهاد ، فهو بذل الجهد فى مقارعة الأعداء ، والسعى التام ، فى نصره دين الله ، ووقع دين الشيطان .

وهو ذروة الأعمال الصالحة ، وجزاؤه ، أفضل الجزاء .

وهو السبب الأكبر ، لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام ، وأمن المسلمين . على أنفسهم وأموالهم وأولادهم .

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة — على لأوائها ومشقتها — كان لغيرها أشد قبلاً به وتكميلاً .

لحقيق بهؤلاء ، أن يكونوا هم الراجين رحمة الله ، لأنهم أتوا بالسبب
الموجب للرحمة .

وفي هذا دليل على أن الرجاء ، لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة .
وأما الرجاء المقارن للكسل ، وعدم القيام بالأسباب ، فهذا عجز
وتمن وغرور .

وهو دال على ضعف همة صاحبه ، ونقص عقله ، بمنزلة من يرجو وجود
الولد بلا نكاح ، ووجود الغلة بلا بذر ، وسقى ، ونحو ذلك .

وفي قوله [أولئك يرجون رحمة الله] إشارة إلى أن العبد — ولو أتى
من الأعمال بما أتى به — لا ينبغي له أن يعتمد عليها ، ويعول عليها ، بل
يرجو رحمة ربه ، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه ، وستر عيوبه .

ولهذا قال [والله غفور] أى : لمن تاب توبة نصوحا [رحيم] وسعت
رحمته كل شيء ، وعم جوده وإحسانه ، كل حى .

وفي هذا دليل [على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة ، حصل له
مغفرة الله ، إذ [الحسنات يذهبن السيئات] وحصلت له رحمة الله .

وإذا حصلت له المغفرة ، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة . التي هي
آثار الذنوب ، التي قد غفرت واضمحلت آثارها .

وإذا حصلت له الرحمة ، حصل على كل خير فى الدنيا والآخرة .

بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم ، فلولا توفيقه إياهم ، لم يريدوها ،
ولولا إقذارهم عليها ، لم يقدروا عليها ، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم .
فله الفضل ، أولا وآخرأ ، وهو الذى من بالسبب والمسبب .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ
وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾

ثم قال تعالى [يسألوكم عن الخمر والآية] أى يسألك — يا أيها الرسول —
المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر ، وقد كانا مستعملين فى الجاهلية وأول
الإسلام ، فكأنه وقع فيهما إشكال فلهذا سألوها عن حكمهما .
فأمر الله تعالى نبيه ، أن يبين لهم منافعهما ومضارهما ، ليكون ذلك
مقدمة لتحريمهما ، وتحتيم تركهما .

فأخبر أن إثمهما ومضارهما ، وما يصدر عنهما ، من ذهاب العقل والمال ،
والصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، والعداوة ، والبغضاء — أكبر مما
يظنونه من نفعهما ، من كسب المال بالتجارة بالخمر ، وتحصيله بالتمار والطرب
للنفوس ، عند تعاطيها .

وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما ، لأن العاقل يرجح ما ترجحت
مصلحته ، ويحتنب ما ترجحت مضرته .

ولكن لما كانوا قد ألنوها ، وصعب التحريم بتركهما أول وهلة ،
قدم هذه الآية ، مقدمة للتحريم ، الذى ذكره فى قوله .

[يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس
من عمل الشيطان] .

إلى قوله [فهل أنتم منتهون] وهذا من لطفه ورحمته وحكمته .

ولهذا لما نزلت ، قال عمر رضى الله عنه : انتهينا انتهينا .

فأما الخمر ، فهو كل مسكر خامر العقل وغطاه ، من أى نوع كان .

وأما الميسر ، فهو كل المغالبات التى يكون فيها عوض من الطرفين ، من النرد ،
والشطرنج ، وكل مغالبة قولية أو فعلية ، تعوض بعوض ، سوى مسابقة الخيل ،
والإبل ، والسهام ، فإنها مباحة . لكونها معينة على الجهاد ، فرخص فيها الشارع .

وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ

وهذا سؤال عن مقدار ما ينفقونه من أموالهم .
فيُفسر الله لهم الأمر ، وأمرهم أن ينفقوا الغفو ، وهو المتيسر من أموالهم ،
الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم .
وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه ، من غنى وفقير ومتوسط ، كل له
قدرة على إنفاق ما عنا من ماله ، ولو شق تمره .
ولهذا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يأخذ الغفو من أخلاق الناس
وصدقاتهم ، ولا يكلفهم ما يشق عليهم .
ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا ، أو تكليفا لنا
بما يشق .
بل أمرنا بما فيه سعادتنا ، وما يسهل علينا ، وما به النفع لنا ولإخواننا
فيستحق على ذلك ، أتم الحمد .
ولما بين تعالى هذا البيان الشافي ، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال :
[كذلك يبين الله لكم الآيات] أى : الدالات على الحق ، المحصلات
للعلم النافع والفرقان .
[لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة] أى : لكي تستعملوا أفكاركم
في أسرار شرعه ، وتعرفوا أن أوامره ، فيها مصالح الدنيا والآخرة .
وأيضاً لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها ، وفي الآخرة وبقائها ،
وأنها دار الجزاء فتعمروها .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ إِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٠)

لما نزل قوله تعالى [إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا] شق ذلك على المسلمين ، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى ، خوفا على أنفسهم من تناولها ، ولو فى هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها ، وسألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

فأخبرهم تعالى أن المقصود ، إصلاح أموال اليتامى ، بحفظها وصيانتها ، والاتجار فيها وأن خلطتهم بإيهم فى طعام وغيره ، جائز على وجه لا يضر باليتامى ، لأنهم إخوانكم ، ومن شأن الأخ ، مخالطة أخيه ، والمرجع فى ذلك إلى النية والعمل .

فمن علم من نيته ، أنه مصلح لليتيم ، وليس له طمع فى ماله ، فلو دخل عليه شئ — من غير قصد — لم يكن عليه بأس .

ومن علم الله من نيته ، أن قصده بالمخالطة ، التوصل إلى أكلها ، فذلك الذى حرج وأثم ، و«الوسائل لها أحكام المقاصد» .

وفى هذه الآية ، دليل على جواز أنواع المخالطات ، فى المأكول والمشارب ، والعقود وغيرها ، وهذه الرخصة ، لطف من الله تعالى ، وإحسان ، وتوسعة على المؤمنين .

وإلا [لو شاء الله لأغنتكم] أى : شق عليكم بعدم الرخصة بذلك ، فخرجتم . وشق عليكم وأثمت .

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ

[إن الله عزيز] أى : له القوة الكاملة ، والقهر لكل شئ .
ولكنه — مع ذلك (حكيم) لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة
وعنايته التامة ، فعزته لا تنافى حكمته .

فلا يقال : إنه ما شاء فعل ، وافق الحكمة أو خالفها :
بل يقال ، إن أفعاله وكذلك أحكامه ، تابعة لحكمته ، فلا يخلق
شيئاً عبثاً ، بل لا بد له من حكمة ، عرفناها ، أم لم نعرفها .
وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة .
فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة ، أو راجعة ، ولا ينهى إلا عما
فيه مفسدة خالصة أو راجعة ، لتمام حكمته ورحمته .

* أى [ولا تنكحوا] النساء [المشركات] ما دمن على شركهن .
[حتى يؤمن] لأن المؤمنة — ولو بلغت من الدمامة ما بلغت — خير
من المشركة ، ولو بلغت من الحسن ما بلغت ، وهذه عامة في جميع النساء
المشركات .

وخصصتها آية المائدة ، في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى :
[والحصنات من الذين أتوا الكتاب] .

[ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا] وهذا عام لا تخصيص فيه .
ثم ذكر تعالى ، الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة ، لمن خالفهما
في الدين فقال :

[أولئك يدعون إلى النار] أى : في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ،
فمخالطتهم على خطر منهم ، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية ، إنما هو
الشقاء الأبدي .

خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ
يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ
آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه
إذا لم يحز الزوج — مع أن فيه مصالح كثيرة — فاخلطة المجردة من باب
أولى، وخصوصاً، الخلطة التي فيها ارتفاع الشرك ونحوه على المسلم،
كالخدمة ونحوها.

وفي قوله [ولا تنكحوا المشركين] دليل على اعتبار الولي في الفكاح.

[والله يدعو إلى الجنة والمغفرة] أى : يدعو عباده لتحصيل الجنة
والمغفرة، التي من آثارها، دفع العقوبات وذلك بالدعوة إلى أسبابها
من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

[ويبين آياته] أى : أحكامه وحكمها [للناس لعلهم يتذكرون]
فيوجب لهم ذلك، التذكر لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامتثال
لما ضيعوه.

ثم قال تعالى [ويسألونك عن المحيض الآيات] :

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا
النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ

يخبر تعالى ، عن سؤالهم عن المحيض ، وهل تكون المرأة بحالها بعد
الحيض ، كما كانت قبل ذلك ، أم تجتنب مطلقاً كما يفعله اليهود ؟ .

فأخبر تعالى أن المحيض أذى ، وإذا كان أذى ، فمن الحكمة أن يمنع
الله تعالى عباده عن الأذى وحده ، ولهذا قال : [فاعتزلوا النساء في المحيض] .
أي : مكان الحيض ، وهو الوطء في الفرج خاصة ، فهذا هو المحرم إجماعاً .
وتخصيص الاعتزال في المحيض ، يدل على أن مباشرة الحائض
وملامستها ، في غير الوطء في الفرج ، جائز .

لكن قوله [ولا تقربوهن حتى يطهرن] يدل على ترك المباشرة فيما
قرب من الفرج ، وذلك فيما بين السرة والركبة ، فينبغي تركه كما كان النبي
صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض ، أمرها أن
تنزر ، فيباشرها .

وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحيض [حتى يطهرن] أي : ينقطع
دمهن ، فإذا انقطع الدم ، زال المنع الموجود وقت جريانه ، الذي كان لحله
شرطان ، انقطاع الدم ، والاغتسال منه .

فلما انقطع الدم ، زال الشرط الأول وبقي الثاني ، فلهذا قال :

[فإذا تطهرن] أي : اغتسلن [فأتوهن من حيث أمركم الله] أي : في
القبل لا في الدبر ، لأنه محل الحرث .

فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى

وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض ، وأن انقطاع الدم ، شرط
لصحته .

ولما كان هذا المنع لطفاً منه تعالى بعباده ، وصيانة عن الأذى قال تعالى :
[إن الله يحب المتوابين] أى : من ذنوبهم على الدوام [ويجب
المتطهرين] أى : المتزهين عن الآثام
وهذا يشمل التطهر الحسى من الأنجاس والأحداث .

ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً ، لأن الله تعالى يحب المتصف بها ، ولهذا
كانت الطهارة مطلقاً ، شرطاً لصحة الصلاة والطواف ، وجواز مس
المصحف .

ويشمل التطهر المعنوى عن الأخلاق الرذيلة ، والصفات القبيحة ،
والأفعال الخسيسة .

* [نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم] مقبلة ومدبرة غير أنه
لا يكون إلا فى القبل ، لكونه موضع الحرث ، وهو الموضع الذى يكون
منه الولد .

وفيه دليل على تحريم الوطء فى الدبر ، لأن الله لم يبيح إتيان المرأة
إلا فى الموضع الذى منه الحرث .

وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فى تحريم ذلك ،
ولعن فاعله .

سِتُّمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

[وقدموا لأنفسكم] أى : من التقرب إلى الله بفعل الخيرات ، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ، ويحاطمها على وجه القربة والاحتساب ، وعلى رجاء تحصيل الذرية ، الذين ينفع الله بهم .

[واتقوا الله] أى : فى جميع أحوالكم ، كونوا ملازمين لتقوى الله ، مستعينين على ذلك بعلمكم [واعلموا أنكم ملاقوه] ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها .

[وبشر المؤمنين] لم يذكر المبشر به ، ليدل على العموم ، وأن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة :

وكل خير ، واندفاع كل ضير ، رتب على الإيمان — فهو داخل فى هذه البشارة .

وفىها محبة الله للمؤمنين ، ومحبة ما يسرهم ، واستحباب تنشيطهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوى والأخروى .

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا
وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

المقصود من اليمين والتسم ، تعظيم القسم به ، وتأكيده المقسم عليه .
وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان ، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء .
ولكن الله تعالى استثنى من ذلك ، إذا كان البر باليمين ، يتضمن ترك
ما هو أحب إليه .

فهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة ، أى : مانعة وحائلة عن أن
يبروا أى : يفعلوا خيراً ، ويتقوا شراً ، ويصلحوا بين الناس .

فمن حلف على ترك واجب ، وجب حنثه ، وحرم إقامته على يمينه .
ومن حلف على ترك مستحب ، استحب له الحنث .
ومن حلف على فعل محرم ، وجب الحنث ، أو على فعل مكروه ،
استحب الحنث .

وأما المباح ، فينبغى فيه حفظ اليمين عن الحنث .
ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة ، أنه « إذا تراخى المصالح ،
قدم أهمها » .

فهنا تميم اليمين ، مصلحة ، وامتنال أوامر الله في هذه الأشياء ، مصلحة
أكبر من ذلك ، فقدمت لذلك .

ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال :
[والله سميع] أى . لجميع الأصوات [عليم] بالمقاصد والنيات ، ومنه ،
سماعه لأقوال الخالفين ، وعلمه بمقاصدهم هل هى خير أم شر .
وفى ضمن ذلك ، التحذير من مجازاته ، وأن أعمالكم ونياتكم ، قد
استقر علمها عنده .

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿٢٢٥﴾
 ﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ

ثم قال تعالى [لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ، والله غفور حلیم] .

* أى : لا يؤاخذكم بما يجرى على ألسنتكم من الأيمان اللاغية ، التى يتكلم بها العبد ، من غير قصد منه ولا كسب قلب ، ولكنها جرت على لسانه كقول الرجل فى عرض كلامه : « لا والله » و « بلى والله » ، وكلفه على أمر ماض ، يظن صدق نفسه . وإنما المؤاخذة ، على ما قصده القلب .

وفى هذا ، دليل على اعتبار المقاصد فى الأقوال ، كماهى معتبرة فى الأفعال . والله « غفور » لمن تاب إليه ، « حلیم » بمن عصاه ، حيث لم يعاجله بالعقوبة ، بل حلم عنه وستر ، وصفح مع قدرته عليه ، وكونه بين يديه .

* وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة ، فى أمر خاص وهو حلف الرجل ، على ترك وطء زوجته مطلقاً . أو مقيداً . بأقل من أربعة أشهر أو أكثر . فمن آلى من زوجته خاصة — فإن كان لدون أربعة أشهر ، فهذا مثل سائر الأيمان ، إن حث كفر ، وإن أتم يمينه ، فلا شئ عليه ، وليس لزوجته عليه سبيل ، لأنه ملكه أربعة أشهر .

وإن كان أبداً ، أو مدة تزيد على أربعة أشهر ، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه ، إذا طلبت زوجته ذلك ، لأنه حق لها .

فَآءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

فإذا تمت ، أمر بالفيئة ، وهو الوطء .

فإن وطئ ، فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين .

وإن امتنع ، أجبر على الطلاق ، فإن امتنع ، طلق عليه الحاكم .

ولسكن الفيئة والرجوع إلى زوجته ، أحب إلى الله تعالى ،
ولهذا قال :

[فإن فاءوا] أى : رجعوا إلى ما حلفوا على تركه ، وهو الوطء .

[فإن الله غفور] يعفر لهم ما حصل منهم من الحلف ، بسبب رجوعهم .

[رحيم] حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة ، ولم يجعلها لازمة لهم ،

غير قابلة للانفكاك ، ورحيم بهم أيضاً ، حيث فاءوا إلى زوجاتهم ، وحنوا
عليهن ورحموهن .

[وإن عزموا الطلاق] أى : امتنعوا من الفيئة ، فكان ذلك دليلاً

على رغبتهم عنهن ، وعدم إرادتهم لأزواجهن ، وهذا لا يكون إلا عزمًا
على الطلاق .

فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة ، وإلا أجبره الحاكم عليه ،
أو قام به .

[فإن الله سميع عليم] فيه وعيد وتهديد ، لمن يخلف هذا الحلف ،

ويقصد بذلك ، المضارة والمشاقة .

ويستدل بهذه الآية ، على أن الإيلاء ، خاص بالزوجة ، لقوله « من

نسأهم ، وعلى وجوب الوطء فى كل أربعة أشهر مرة ، لأنه بعد الأربعة ،

يجبر ، إما على الوطء ، أو على الطلاق ، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبا .

وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ

أى : النساء اللاتى طلقهن أزواجهن [يتربصن بأنفسهن] أى :
ينتظرن ويعتددن مدة [ثلاثة قروء] أى : حيض ، أو أطهار على اختلاف
العلماء فى المراد بذلك ، مع أن الصحيح أن القراء ، الحيض ، وهذه العدة ،
عدة حكم .

منها : العلم ببراءة الرحم ، إذا تكرر عليها ثلاثة الأقراء ، علم أنه
ليس فى رحمها حمل ، فلا يفضى إلى اختلاط الأنساب .

ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن [ما خلق الله فى أرحامهن]
وحرّم عليهن ، كتمان ذلك ، من حمل أو حيض ، لأن كتمان ذلك ، يفضى
إلى مفسد كثيرة .

فكتمان الحمل ، موجب أن تلحقه بغير من هوله ، رغبة فيه ، أو
استعجالاً لانقضاء العدة .

فإذا ألحقته بغير أبيه ، حصل من قطع الرحم والإرث ، واحتجاب
محارمه وأقاربه عنه ، وربما تزوج ذوات محارمه .

وحصل فى مقابلة ذلك ، إلحاقه بغير أبيه ، وثبوت توابع ذلك ، من
الإرث منه وله ، ومن جعل أقارب الملحق به ، أقارب له .

وفى ذلك من الشر والفساد ، ما لا يعلمه إلا رب العباد .

ولو لم يكن فى ذلك ، إلا إقامتها مع من نكاحها باطل فى حقه ، وفيه
الإصرار على الكبيرة العظيمة ، وهى الزنا - لكفى بذلك شراً .

وأما كتمان الحيض ، فإن استعجلت فأخبرت به وهى كاذبة ، ففيه من

لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

انقطاع حق الزوج عنها ، وإباحتها لغيره وما يتفرع عن ذلك من الشر ، كما ذكرنا .

وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض ، لتطول العدة ، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه ، بل هي سحت عليها محرمة من جهتين : من كونها لا تستحقه ، ومن كونها ، نسبته إلى حكم الشرع وهي كاذبة ، وربما راجعها بعد انقضاء العدة ، فيكون ذلك سفاحا ، لكونها أجنبية منه (١) ، فلهذا قال تعالى :

[ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر] .

فصدور الكتمان منهن ، دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر ، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر ، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن ، لم يصدر منهن شيء من ذلك .

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة ، عما تخبر بها عن نفسها ، من الأمر الذي لا يطالع عليها غيرها ، كاللحم والحيض ونحوها .

ثم قال تعالى [وبعولتهن أحق بردهن في ذلك] أى : لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة ، أن يردوهن إلى نكاحهن [إن أرادوا إصلاحاً] أى : رغبة وألفة ومودة .

(١) جواب (إن) في قوله (وإن كذبت الخ) لم يذكره والمقام يقتضى أن يذكر الجواب بعد قوله (أجنبية منه) وهو (فبذلك تكون قد ارتكبت إثما عظيما فلهذا قال تعالى الخ وبهذا ينتظم الكلام ويتضح المعنى .

الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح ، فليسوا بأحق بردهن ،
فلا يحل لهم أن يراجعوهن ، لقصد المضارة لها ، وتطويل العدة عليها .

وهل يملك ذلك ، مع هذا القصد ؟ فيه قولان .

الجمهور على أنه يملك ذلك ، مع التحريم .

والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح ، لا يملك ذلك ، كما هو ظاهر الآية
الكريمة ، وهذه حكمة أخرى في هذا الترتيب .

وهي : أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها ، فجعلت له هذه المدة ،
ليتروى بها ويقطع نظره .

وهذا يدل على محبته تعالى ، للألفة بين الزوجين ، وكرامته للفراق ،
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .
وهذا خاص في الطلاق الرجعي .

وأما الطلاق البائن ، فليس البعل بأحق برجعته .

بل إن تراضيا على التراجع ، فلا بد من عقد جديد مجتمتع الشروط .

ثم قال تعالى [ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف] أي : وللنساء على
بعواتهن من الحقوق والواجبات ، مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق
اللازمة والمستحبة .

ومرجع الحقوق بين الزوجين إلى المعروف ، وهو :

العادة الجارية في ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله .

ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة ، والأحوال ، والأشخاص

والعوائد .

مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

في هذا دليل على أن النفقة والكسوة، والمعاشرة، والمسكن ، وكذلك
الوطء - الكل يرجع إلى المعروف .

فهذا موجب العقد المطلق .

وأما مع الشرط ، فعلى شرطهما ، إلا شرطاً أحل حراماً ، أو حرم
حلالاً .

[وللرجال عليهن درجة] أي : رفعة ورياسة ، وزيادة حق عليها ، كما
قال تعالى :

[الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا
من أموالهم] .

ومنصب النبوة والقضاء ، والإمامة الصغرى والكبرى ، وسائر
الولايات بالرجال .

وله ضعفا ما لها في كثير من الأمور ، كالميراث ونحوه .

[والله عزيز حكيم] أي : له العزة القاهرة والسلطان العظيم ، الذي
دانت له جميع الأشياء ، ولكنه - مع عزته - حكيم في تصرفه .

ويخرج من عموم هذه الآية ، الحوامل ، فعدتهن وضع الحمل .

واللاتى لم يدخل بهن ، فليس لهن عدة .

والإماء ، فعدتهن حيضتان ، كما هو قول الصحابة رضى الله عنهم .

وسياق الآية ، يدل على أن المراد بها ، الحرة .

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ
وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَمَّا آتَيْنَاهُمْ هُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا

كان الطلاق في الجاهلية ، واستمر أول الإسلام ، هو أن يطلق الرجل زوجته بلا نهاية .

فكان إذا أراد مضارتها ، طلقها ، فإذا شارفت^(١) انقضاء عدتها ، راجعها ، ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبداً ، فيحصل عليها من الضر ما الله به عليم .

فأخبر تعالى أن [الطلاق] أى الذى تحصل به الرجعة [مرتان] .
ليتمكن الزوج — إن لم يرد المضارة — من ارتجاعها ، ويراجع رأيه في هذه المدة .

وأما ما فوقها ، فليس محالاً لذلك ، لأن من زاد على الثنتين ، فإما متجرىء على المحرم ، أو ليس له رغبة في إمساكها ، بل قصده المضارة .

فلهذا أمر تعالى الزوج ، أن يمسك زوجته [بمعروف] أى : عشرة حسنة ، ويجرى مجرى أمثاله مع زوجاتهم ، وهذا هو الأرجح ، وإلا يسرحها ويفارقها [بإحسان] ،

ومن الإحسان ، أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من ماله ، لأنه ظلم ، وأخذ المال في غير مقابلة بشيء ، فلهذا قال :

[ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتهموهن شيئاً إلا أن يَخَافَا أن لا يقيما

(١) شارفت . أى : قاربت .

يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

حدود الله [وهى الخالعة بالمعروف ، بأن كرهت الزوجة زوجها ، خلقه أو خلقه أو نقص دينه ، وخافت أن لا تطيع الله فيه .
[فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به] لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة .

وفى هذا مشروعية الخلع ، إذا وجدت هذه الحكمة .
[تلك] أى ما تقدم من الأحكام الشرعية [حدود الله] أى : أحكامه التى شرعها لكم ، وأمر بالوقوف معها .
[ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون] وأى ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال ، وتعدى منه إلى الحرام ، فلم يسه ما أحل الله ؟
والظلم ثلاثة أقسام :

ظلم العبد فيما بينه وبين الله ، وظلم العبد الأكبر^(١) الذى هو الشرك ، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق .
فالشرك ، لا يغفره الله بالتوبة ، وحقوق العباد ، لا يترك الله منها شيئاً .
والظلم الذى بين العبد وربّه فيما دون الشرك ، تحت المشيئة والحكمة^(٢)

(١) قوله : الأكبر ، صفة لـ « ظلم » والمعنى : والظلم الأكبر الصادر من العبد هو الشرك بالله .

(٢) وفى هذا المعنى قال صاحب جوهرة التوحيد .

وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتَّبِعْ مِنْ ذَنْبِهِ فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٠) وَإِذَا

يقول تعالى : [فإن طلقها] أى : الطلقة الثالثة [فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره] أى : نكاحاً صحيحاً وبطأها ، لأن النكاح الشرعى (١) لا يكون صحيحاً ، ويدخل فيه العقد والوطء ، وهذا بالاتفاق .
ويتمين أن يكون نكاح الثانى ، نكاح رغبة .
فإن قصد به تحليلها للأول ، فليس بنكاح ، ولا يفيد التحليل .
ولا يفيد وطء السيد ، لأنه ليس بزواج .
فإذا تزوجها الثانى راغباً ووطئها ، ثم فارقها وانقضت عدتها [فلا جناح عليهما] أى : على الزوج الأول والزوجة [أن يتراجعا] أى : يحددا عقداً جديداً بينهما ، لإضافته التراجع إليهما ، فدل على اعتبار التراضى .
ولسكن يشترط فى التراجع أن يظنا [أن يقيما حدود الله] بأن يقوم كل منهما ، بحق صاحبه .

وذلك إذا ندما على عسرتهم السابقة الموجبة للفراق ، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة ، فهنا لا جناح عليهما فى التراجع .
ومفهوم الآية الكريمة ، أنهما إن لم يظنا أن يقيما حدود الله ، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية ، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما فى ذلك جناحاً ، لأن جميع الأمور ، إن لم يقم فيها أمر الله ، ويسلك بها طاعته ، لم يحل الإقدام عليها .

(١) قوله (لأن النكاح الشرعى الخ) فى العبارة اضطراب . والصواب أن يقال (لأن النكاح الشرعى الصحيح ، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء).

طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ
ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عِيتَابَ اللَّهِ هُزُوعًا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

وفى هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان ، إذا أراد أن يدخل فى أمر من
الأمر ، خصوصاً الولايات ، الصغار ، والكبار ، أن ينظر فى نفسه .
فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ، ووثق بها ، أقدم ، وإلا أحجم .
ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة قال :

[وتلك حدود الله] أى : شرائعه التى حددها وبينها ووضحها .

[يبينها لقوم يعلمون] لأنهم هم المنتفعون بها ، النافعون اغيبرهم .

وفى هذا من فضيلة أهل العلم ، مالا يخفى ، لأن الله تعالى جعل تبينه
لحدوده ، خاصاً بهم ، وأنهم المقصودون بذلك .

وفيه أن الله تعالى يحب من عباده ، معرفة حدود ما أنزل على رسوله
والتفقه بها .

ثم قال تعالى : [وإذا طلقتم النساء] أى : طلاقاً رجعيّاً بواحدة
أو اثنتين .

[فبأن أجلهن] أى : قاربين انقضاء عدتهن .

[فأمسكنهن بمعروفٍ أو سرحوهن بمعروفٍ] أى : إما أن تراجعوهن ،

ونيتكن القيام بحقوقهن ، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار ، ولهذا قال :

[ولا تمسكنهن ضراً] أى : مضارة بهن [لتعتدوا] فى فعلكم هذا

الحلال ، إلى الحرام .

عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

فالخلال : الإمساك بالمعروف ، والحرام : المضارة .
[ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه] ولو كان الحق يعود المخلوق فالضرر
عائد إلى من أراد الضرر .
[ولا تتخذوا آيات الله هزوا] لما بين تعالى حدوده غاية التبيين ،
وكان المقصود ، العلم بها والعمل ، والوقوف معها ، وعدم مجاوزتها ، لأنه
تعالى لم ينزلها عبثاً ، بل أنزلها بالحق والصدق والجد ، نهى عن اتخاذها
هزواً ، أى : لعباً بها ، وهو التجزى عليها ، وعدم الامتثال لواجبها .
مثل استعمال المضارة فى الإمساك ، أو الفراق ، أو كثرة الطلاق ،
أو جمع الثلاث .
والله — من رحمته — جعل له واحدة بعد واحدة ، رفقا به وسعياً
فى مصلحته .

[واذكروا نعمة الله عليكم] عموماً باللسان ، حمداً وثناء .
وبالقلب ، اعترافاً ، وإقراراً ، وبالأركان ، بصرفها فى طاعة الله .
[وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة] أى : السنة اللذين بين لكم
بهما طرق الخير ورغبكم فيها ، وطرق الشر وحذركم إياها ، وعرفكم نفسه
ووقائعها فى أوليائه وأعدائه ، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون .
وقيل : المراد بالحكمة : أسرار الشريعة ، فالكتاب فيه ، الحكم .
والحكمة فيها ، بيان حكمة الله فى أوامره ونواهيه . وكلا المعنيين صحيح .
ولهذا قال [يعظكم به] أى : بما أنزل عليكم ، وهذا مما يقوى أن

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ
مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمَ أَزْكَى لَكُمْ
وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

المراد بالحكمة ، أسرار الشريعة ، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة ،
والترغيب ، أو التهيب ، فالحكم به ، يزول الجهل .

والحكمة مع الترغيب ، يوجب الرغبة .

والحكمة مع التهيب ، يوجب الرهبة [واتقوا الله] في جميع أموركم
[واعلموا أن الله بكل شيء عليم] فلهذا بين لكم هذه الأحكام ، التي هي
جارية مع المصالح في كل زمان ومكان ، فله الحمد والمنة .

* هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث إذا خرجت من العدة ،
وأراد زوجها أن ينكحها ، ورضيت بذلك ، فلا يجوز لوليها ، من أب
وغيره ؛ أن يعرضها ؛ أى : يمنعها من التزوج به حنقاً عليه ؛ وغضباً ؛
واشتمزازاً لما فعل من الطلاق الأول .

وذكر أن [من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر] فإيمانه يمنعه
من العضل .

[ذلكم أزكى لكم وأطهر] وأطيب مما يظن الولي أن عدم تزويجه ،
هو الرأى واللائق وأنه يقابل بطلاقه الأول بعدم تزويجه ، كما هو عادة
المترفعين التكبرين .

فإن كان يظن أن المصلحة ، في عدم تزويجه ، فإن [الله يعلم وأنتم
لا تعلمون] .

وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ
أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ
لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ

فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم ، صريد لها ، قادر عليها ، ميسر لها
من الوجه الذى تعرفون وغيره .

وفى هذه الآية ، دليل على أنه لا بد من الولي فى النكاح ، لأنه نهى
الأولياء عن العضل ، ولا ينهاهم إلا عن أمر ، هو تحت تدبيرهم ولهم
فيه حق . ثم قال تعالى [والوالدات يرضعن . الآية] .

* هذا خبر بمعنى الأمر ، تنزيلا له منزلة المتقرر ، الذى لا يحتاج إلى أمر
بأن [يرضعن أولادهن حولين] .

ولما كان الحول ، يطلق على الكامل ، وعلى معظم الحول قال :
[كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة] فإذا تم للرضيع حولان ، فقد تم
رضاعه وصار اللبن بعد ذلك ، بمنزلة سائر الأغذية ، فلهذا كان الرضاع بعد
الحولين ، غير معتبر ، فلا يحرم ^(١) .

ويؤخذ من هذا النص ، ومن قوله تعالى [وحمله وفصاله ثلاثون
شهرا] .

أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وأنه يمكن وجود الولد بها .

(١) قوله (فلا يحرم) أى : لا تثبت به الأخوة ولا النسب من الرضاعة
بعد الحولين الكاملين ، وعلى هذا فيجوز أن يتزوج كل منهما بالآخر .

بَوْلِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا
وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَ كُمْ

[وعلى المولود له] أي : الأب [رزقهن وكسوتهن بالمعروف] وهذا
شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة ، فإن على الأب رزقها ، أي : نفقتها
وكسوتها ، وهي الأجرة للرضاع .

ودل هذا ، على أنها إذا كانت في حباله ، لا يجب لها أجرة ، غير النفقة
والكسوة ، وكل بحسب حاله ، فلهذا قال :

[لا تكلف نفس إلا وسعها] ، فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغنى ،
ولا من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد .

[لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده] أي : لا يحل أن تضار
الوالدة بسبب ولدها ، إما أن تمتنع من إرضاعه ، أو لا تعطى ما يجب لها
من النفقة ، والكسوة أو الأجرة .

[ولا مولود له بولده] بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة ، أو
تطلب زيادة عن الواجب ، ونحو ذلك من أنواع الضرر .

ودل قوله [مولود له] أن الولد لأبيه ، لأنه موهوب له ، ولأنه من كسبه .
فلذلك جاز له الأخذ من ماله ، رضى أو لم يرض ، بخلاف الأم .

وقوله [وعلى الوارث مثل ذلك] أي : على وارث الطفل إذا عدم
الأب ، وكان الطفل ليس له مال ، مثل ما على الأب من النفقة للرضع
والكسوة .

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين ، على القريب الوارث
الموسر .

[فإن أرادا] أى : الأبوان [فصلا] أى فطام الصبي قبل الحولين .
[عن تراض منهما] بأن يكونا راضيين [وتشاور] فيما بينهما ، هل
هو مصلحة للصبي أم لا ؟ .

فإن كان مصلحة ورضيا [فلا جناح عليهما] فى فطامه قبل الحولين .
فدلت الآية بمفهومها ، على أنه إن رضى أحدهما دون الآخر ، أو لم
يكن مصلحة للطفل ، أنه لا يجوز فطامه .

وقوله : [وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم] أى : تطلبوا لهم المراضع
غير أمهاتهم على غير وجه المضارة [فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم
بالمعروف] أى : المرضعات ، [والله بما تعملون بصير] فجازيكم على ذلك
بالخير والشر .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ
بَأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

أى : إذا توفى الزوج ، مكثت زوجته ، متربصة أربعة أشهر وعشرة
أيام وجوبا .

والحكمة فى ذلك ، ليتبين الحمل فى مدة الأربعة الأشهر ، ويتحرك
فى ابتدائه ، فى الشهر الخامس .

وهذا العام مخصوص بالحوامل ، فإن عدتهن بوضع الحمل .
وكذلك الأمة ، عدتها على النصف من عدة الحرة ، شهران وخمسة أيام .
وقوله : [فإذا بلغن أجلهن] أى : انقضت عدتهن [فلا جناح عليكم
فيما فعلن فى أنفسهن] أى : من مراجعتها للزينة والطيب .
[بالمعروف] أى : على وجه غير محرم ولا مكروه .

وفى هذا وجوب الإحداد ، مدة العدة ، على التوفى عنها زوجها ، دون
غيرها من المطلقات والمفارقات ، وهو مجمع عليه بين العلماء .

[والله بما تعملون خبير] أى : عالم بأعمالكم ، ظاهرها وباطنها ، جليلها
وخفيها ، فجازيكم عليها .

وفى خطابه للأولياء بقوله : [فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن]
دليل على أن الولي ينظر على المرأة ، ويعنمها مما لا يجوز فعله ويحبرها على
ما يجب ، وأنه مخاطب بذلك ، واجب عليه .

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ
أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ
لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ
النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٣٥)

هذا حكم المعتدة من وفاة ، أو المبانة في الحياة .

فيحرم على غير مبينا أن يصرح لها في الخطبة ، وهو المراد بقوله [ولكن لا تواعدوهن سرا] .

وأما التعريض ، فقد أسقط تعالى فيه الجناح .

والفرق بينهما : أن التصريح ، لا يمتثل غير النكاح ، فلهذا حرم ،
خوفا من استعجالها ، وكذبها في انقضاء عدتها ، رغبة في النكاح .

ففيه دلالة على منع وسائل المحرم ، وقضاء ، لحق زوجها الأول ، بعدم
مواعدتها لغيره مدة عدتها .

وأما التعريض ، وهو : الذي يمتثل النكاح وغيره ، فهو جائز للبائن
كأن يقول : إني أريد التزوج ، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء
عدتك ، ونحو ذلك ، فهذا جائز لأنه ليس بمنزلة الصريح ، وفي النفوس داع
قوى إليه .

وكذا إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها ، إذا
انقضت .

ولهذا قال [أو أكننتم في أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن]
هذا التفصيل كله ، في مقدمات العقد .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ
أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْأَوْسَعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ
قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْإِحْسَانِ﴾ (٢٣٦) ﴿

وأما عقد النكاح فلا يحل [حتى يبلغ الكتاب أجله] .
أى : تنقضى العدة .

واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم [أى : فانووا الخير ، ولا تنووا
الشر ، خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه .

[واعلموا أن الله غفور] لمن صدرت منه الذنوب ، فتاب منها ، ورجع
إلى ربه [حلیم] حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم ، مع قدرته عليهم .
* أى : ليس عليكم - يامعشر الأزواج - جناح وإثم ، بتطليق النساء
قبل المسيس ، وفرض المهر ، وإن كان فى ذلك كسر لها ، فإنه ينجبر بالمتعة .
فعليكم أن [تمتعوهن] بأن تعطوهن شيئاً من المال ، جبراً
لخوطأهن .

[على الموسع قدره وعلى المقتر] أى : المعسر [قدره] .

وهذا يرجع إلى العرف ، وأنه يختلف باختلاف الأحوال ولهذا قال :
[متاعاً بالمعروف] فهذا حق واجب [على المحسنين] ليس لهم أن
يبخسوهن .

فكما تسببوا للتشوفهن واشتياقهن ، وتعلق قلوبهن ، ثم لم يعطوهن
ما رغبن فيه ، فعليهم - فى مقابلة ذلك - المتعة .

فله ما أحسن هذا الحكم الإلهى ، وأدله على حكمة شارعهِ ورحمته !!

ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ !!

فهذا حكم المطلقات قبل المسيس وقبل فرض المهر .

ثم ذكر حكم المفروض لهن فقال :

وَأِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي
بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ
يَذِكُرْكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

أى : إذا طلقتم النساء قبل المسيس ، وبعد فرض المهر ، فلامطلقات من
المهر المفروض ، نصفه ، ولكم نصفه .

وهذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة ، بأن تعفو عن نصفها
لزوجها ، إذا كان يصح عفوها ، [أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح] وهو
الزوج على الصحيح ، لأنه الذى بيده حل عقده .
ولأن الولى ، لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة ، لكونه غير مالك
ولا وكيل .

ثم رغب فى العفو ، وأن من عفا ، كان أقرب لتقواه ، لكونه إحساناً
موجباً لشرح الصدر ، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من
الإحسان والمعروف ، وينسى الفضل الذى هو أعلى درجات المعاملة ، لأن
معاملة الناس فيما بينهم على درجتين :

إما عدل وإنصاف واجب ، وهو : أخذ الواجب ، وإعطاء الواجب .
وإما فضل وإحسان ، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح فى الحقوق ،
والغض مما فى النفس .

فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة ، ولو فى بعض الأوقات ،
وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة ، أو مخالطة ، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل
والكرم .

ولهذا قال : [إن الله بما تعملون بصير] .

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَتَبَيْنِ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

ثم قال تعالى : [حافظوا على الصلوات الخ الآيتين] .
يأمر تعالى بالمحافظة [على الصلوات] عموماً وعلى [الصلاة الوسطى]
وهي العصر خصوصاً .

والمحافظة عليها : أداؤها بوقتها ، وشروطها ، وأركانها ، وخشوعها ،
وجميع ما لها ، من واجب ومستحب .

وبالمحافظة على الصلوات ، تحصل المحافظة على سائر العبادات ، وتفيد
النهي عن الفحشاء والمنكر ، وخصوصاً إذا أكلها كما أمر بقوله :
[وقوموا لله قاتبين] أي ذليلين مخلصين ؛ خاشعين .

فإن القنوت : دوام الطاعة مع الخشوع .
وقوله : [فإن خفتم] حذف المتعلق ، ليعم الخوف من العدو ، والسبع ،
وفوات ما يتضرر العبد بفوته فصلوا ، [رجلاً] ماشين على أرجلكم .
[أو ركباناً] على الخيل والإبل ، وسائر الركوبات ، وفي هذه الحال ،
لا يلزمه الاستقبال .

فهذه صفة صلاة المذخور بالخوف . فاذا حصل الأمن ، صلى صلاة كاملة .
ويدخل في قوله [فإذا أمنتُمْ فاذكروا الله] تكميل الصلوات .
ويدخل فيه أيضاً ، الإكثار من ذكر الله ، شكرياً له على نعمة التعليم ،
لما فيه سعادة العبد .

وفي الآية الكريمة ، فضيلة العلم ، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم ،
الإكثار من ذكر الله .

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً
لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾ (٢٤٠)

وفيه الإشعار أيضاً بأن الإكثار من ذكره ، سبب لتعليم علوم أخرى ،
لأن الشكر مقرون بالزيد .

ثم قال تعالى : [والذين يتوفون منكم الآية] .

* اشتهر عند كثير من المفسرين ، أن هذه الآية الكريمة ، نسختها الآية
التي قبلها وهي قوله تعالى .

[والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر
وعشراً] وأن الأمر كان على الزوجة ، أن تربص حولا كاملا ، ثم نسخ
بأربعة أشهر وعشر .

ويحييون عن تقدم الآية الناسخة ، أن ذلك تقدم في الوضع ، لا في النزول .
لأن شرط النسخ أن يتأخر عن المنسوخ .
وهذا القول لا دليل عليه .

ومن تأمل الآيتين ، اتضح له أن القول الآخر في الآية ، هو الصواب .
وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشرا ، على وجه
التحريم ، على المرأة .

وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت ، أن يبقوا زوجة ميتهم
عندهم ، حولا كاملا ، جبرا لحاظرها ، وبرأ بميتهم .

ولهذا قال [وصية لأزواجهم] أي : وصية من الله لأهل الميت ، أن
يستوصوا بزوجته ، ويمتعوها ولا يخرجوها .

وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتَّعَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

فإن رغبت ، أقامت في وصيتها ، وإن أحببت الخروج ، فلا حرج عليها ،
ولهذا قال : [فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن] .
أي : من التجميل واللباس .
لكن الشرط ، أن يكون بالمعروف ، الذي لا يخرجها عن حدود الدين
والاعتبار .

وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين ، الدالين على كمال العزة ، وكمال
الحكمة ، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته ، ودلت على كمال حكمته ،
حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها .

* لما بين في الآية السابقة ، إمتاع المفارقة بالموت ، ذكر حنا أن كل
مطلقة ، فلها على زوجها ، أن يتمتعها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها ، وأنه
حق ، إنما يقوم به المتقون ، فهو من خصال التقوى الواجبة والمستحبة .
فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق ، وطلقها قبل الدخول ، فتقدم أنه
يجب عليه بحسب يساره وإعساره .

وإن كان مسمى لها ، فتاعها نصف المسمى .
وإن كانت مدخولا بها ، صارت المتعة مستحبة ، في قول جمهور العلماء .
ومن العلماء من أوجب ذلك ، استدلالا بقوله [حقاً على المتقين]
والأصل في « الحق » أنه واجب ، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين ، وأصل
التقوى ، واجبة .

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين ، أثنى على أحكامه

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ
الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣) ﴿

وعلى بيانه لها وتوضيحه ، وموافقتها للعقول السليمة ، وأن القصد من بيانه
اعبادها ، أن يعتقوا عنه ما بينه ، فيمقلونها حفظاً ، وفهماً وعملاً بها ، فإن ذلك
من تمام عقابها .

* أى : ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بنى
إسرائيل ، حيث حل الوباء بديارهم ، فخرجوا بهذه السكثرة ، فراراً من الموت ،
فلم ينجمهم الفرار ، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون .
فعاماهم بنقيض مقصودهم ، وأماهم الله عن آخرهم .
ثم تفضل عليهم ، فأحياهم ، إما بدعوة نبي ، كما قاله كثير من المفسرين ،
وإما بغير ذلك .

ولكن ذلك ، بفضل وإحسانه ، وهو لا زال فضله على الناس ، وذلك
موجب لشكرهم لنعم الله . بالاعتراف بها وصرفها فى مرضاة الله .
ومع ذلك ، فأكثر الناس قد قصرُوا بواجب الشكر .
وفى هذه القصة ، عبرة بأنه على كل شئ قدير ، وذلك آية محسوسة
على البعث .

فإن هذه القصة معروفة منقولة ، نقلاً متواتراً عند بنى إسرائيل ، ومن
اتصل بهم .

ولهذا أتى بها تعالى ، بأسلوب الأمر الذى قد تقرر عند المخاطبين .
ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ، خوفاً من الأعداء ، وجبناً
عن لقاءهم .

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٤)
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً
وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَنْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥) ﴿

ويؤيد هذا ؛ أن الله ذكر بعدها . الأمر بالقتال وأخبر عن بنى إسرائيل ؛
أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم .

وعلى الاحتمالين ؛ فإن فيها ترغيباً في الجهاد ؛ وترهيباً من التقاعد عنه ،
وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئاً .

[قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم] .

* جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم
إلا بالأسرين .

وحث على الإخلاص فيه ، بأن يقاتل العبد ، لتكون كلمة الله
هي العليا .

فإن الله [سميع] للأقوال وإن خفيت [عليم] بما تحتوى عليه القلوب
من النيات الصالحة وضدها .

وأيضاً ، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله ، أن الله سميع عليم ، هان عليه
ذلك ، وعلم أنه ، بعينه ، ما يتحمل المتحملون من أجله ، وأنه لا بد أن يمد لهم
بمعونه ولطفه .

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة ، وأن المنفق قد أقرض الله الملى ،
الكريم ، ووعد المضاعفة الكثيرة كما قال تعالى :

[مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل
في كل سنبل مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم] .

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق ، أخبر تعالى أن
الغنى والتقرب بيد الله ، وأنه يقبض الرزق على من يشاء ، ويسطه على
من يشاء .

فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر ، ولا يظن أنه ضائع بل مرجع
العباد كلهم إلى الله .

فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده ، مدخرا ، أحوج ما يكونون إليه .
ويكون له من الوقع العظيم ، مالا يمكن التعبير عنه .

والمراد بالقرض الحسن : هو ما جمع أوصاف الحسن ، من النية الصالحة ،
وسماحة النفس ، بالنفقة ، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق ، منا
ولا أذى ؛ ولا مبطلا ومنتقصا .

﴿٢٤٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآءِ يَلِ مِنْ بَعْدِ مُوسَى
إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبِثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ
عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا
نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيرِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كَتَبَ
عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى
يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً

يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة ؛ ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد ،
ولا يتركوا عنه .

فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة ؛ والناكلين ؛
خسروا الأمرين .

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة ؛
تراودوا في شأن الجهاد ، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم
ملكاً ؛ لينقطع النزاع بتعيينه ، وتحصل الطاعة التامة ؛ ولا يبقى لقائل مقال .

وأن نبيهم خشي ؛ أن طلبهم هذا ، مجرد كلام لا فعل معه .

فأجابوا نبيهم ، بالعزم الجازم ؛ وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً .

وأن القتال متعين عليهم ، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم ؛

ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم .

مِّنَ أَمْوَالٍ قَالَ إِنَّ اللَّهَ أُضْطَفَهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ
وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ
الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا
فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ

وَأَنَّهُ عَيْنَ لَهْمٍ نَبِيهِمْ ؛ طالوت ملكا ؛ يعودهم في هذا الأمر الذي لا بد
له من قائد يحسن القيادة .

وأنهم استغربوا تعيينه لطلوت ؛ وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالا .
فأجابهم نبيهم : إن الله اختاره عليكم ؛ بما آتاه الله من قوة العلم
بالسياسة ؛ وقوة الجسم ؛ اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة ، وحسن
التدبير .

وأن الملك ليس بكثرة المال ؛ ولا بكون صاحبه من كان الملك والسيادة
في بيوتهم . فالله يؤتي ملكه من يشاء .

ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم بما ذكره ؛ من كفاءة طالوت ،
واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم .

[إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم وبقيّة مما ترك
آل موسى وآل هرون] .

فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ أُغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ
فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا
لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ
كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء .

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت ، ولا بتعيين الله له على لسان
نبيهم ، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة ، ولهذا قال :

[إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين] فحينئذ سلموا وانقادوا .

فلما ترأس فيهم طالوت ، وجندهم ، ورتبهم ، وفصل بهم إلى قتال
عدوهم ، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والههم ، ما يحتاج إلى تمييز
الصابر من الناكل قال : [إن الله مبتليكم بنهر] تمرّون عليه وقت حاجة
إلى الماء .

[فمن شرب منه فليس مني] أي : لا يتبعني ، لأن ذلك برهان على قلة
صبره ، ووفور جزعه [ومن لم يطعمه فإنه مني] لصدقه وصبره [إلا من
اغترف غرفة بيده] أي : فإنه مسامح فيها .

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء ، شربوا كلهم منه
[إلا قليلا منهم] فإنهم صبروا ولم يشربوا .

[فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا] أي : الناكلون أو الذين عبروا :
[لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده] .

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ

فإن كان القائلون ، هم الناكثين ، فهذا قول يبررون به نكولهم .
وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت ، فإنه حصل معهم نوع
استضعاف لأنفسهم .

ولكن شجعهم على الثبات والإقدام ، أهل الإيمان الكامل حيث
قالوا : [كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله مع الصابرين] بعونه
وتأييده ، ونصره ، فثبتوا ، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده .
[وقتل داود] صلى الله عليه وسلم [جالوت] وحصل بذلك الفتح
والنصر على عدوهم .

[وآتاه الله] أى : داود [الملك والحكمة] النبوة والعلوم النافعة وآتاه
الله الحكمة وفصل الخطاب .

ثم بين تعالى ، فائدة الجهاد فقال :
[ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض] باستيلاء الكفرة
والنجار ، وأهل الشر والفساد .

[ولكن الله ذو فضل على العالمين] حيث لطف بالمؤمنين ، ودافع
عنهم ، وعن دينهم ، بما شرعه وبما قدره

فلما بين هذه القصة قال لرسوله صلى الله عليه وسلم .
[تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين] .

وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

ومن جملة الأدلة على رسالته ، هذه القصة ، حيث أخبر بها وحيًا من الله ،
مطابقاً للواقع . وفي هذه القصة ، عبر كثيرة للأمة .
منها : فضيلة الجهاد في سبيله ، وفوائده ، وثمراته ، وأنه السبب الوحيد
في حفظ الدين ، وحفظ الأوطان ، وحفظ الأبدان والأموال .
وأن المجاهدين ، ولو شقت عليهم الأمور ، فإن عواقبهم حميدة ، كما أن
الناكلين ، ولو استراحوا قليلا ، فإنهم سيتعبون طويلا .
ومنها : الانتداب لرياسة من فيه كفاءة ، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين .
إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير .
وإلى القوة التي ينفذ بها الحق .
وأن من اجتمع فيه الأمران ، فهو أحق من غيره .
ومنها الاستدلال بهذه القصة ، على ما قاله العلماء ، أنه ينبغي للأمير
للجيوش ، أن يمتددها عند فصولها ، فيمنع من لا يصلح للقتال ، من رجال
وخيل وركاب ، لضعفه ، أو ضعف صبره ، أو لتخذيذه ، أو خوف الضرر
بصحبه . فإن هذا القسم ضرر محض على الناس .
ومنها : أنه ينبغي عند حضور اليأس ، تقوية المجاهدين ، وتشجيعهم ،
وحثهم على القوة الإيمانية ، والانتكال الكامل على الله ، والاعتماد عليه ،
وسؤال الله الثبوت ، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء .
ومنها : أن العزم على القتال والجهاد ، غير حقيقته .

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم

فقد يعزم الإنسان ، ولكن عند حضوره ، تنحل عزيمته ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم .

« أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد » .

فهؤلاء الذين عزموا على القتال ، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم ، لما جاء الوقت ، نكص أكثرهم .

ويشبه هذا قوله صلى الله عليه وسلم « وأسألك الرضا بعد القضاء » .

لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفس ، هو الرضا الحقيقي .

✽ يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة ، والتخصيصات الجليلة ، بحسب ما من الله به عليهم ، وقاموا به من الإيمان الكامل ؛ واليقين الراسخ ، والأخلاق العالية ، والآداب السامية ، والدعوة ، والتعليم والنفع العميم :

فمنهم : من اتخذ خليلا ، ومنهم : من كله تكلما ، ومنهم : من رفعه فوق الخلائق درجات .

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر ، إلى الوصول ، لفضلهم الشامخ .

وخص عيسى بن مريم ، أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقا ، وعنده صدقا ، وأن ما جاء به عن عند الله كله حق .

فجعله يرى الأكمة والأبرص ؛ ويحيي الموتى بإذن الله وكلم الناس في المهدي صبيا ، وأيده بروح القدس ، أي : بروح الإيمان .

مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتِ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ
وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أُقْتُلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره ، فحصل له بذلك ، القوة والتأييد ،
وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاما لكل مؤمن ، بحسب إيمانه كما قال
[وأيدهم بروح منه]

لكن ما لعيسى أعظم ، مما لغيره ، لهذا خصه الله بالذكور .
وقيل : إن روح القدس — هنا — جبريل ، أيده الله بإعانه ومؤازرته
لكن المعنى الأصح ، هو الأول .

ولما أخبر عن كمال الرسل ، وما أعطاهم من الفضل والخصائص ، وأن
دينهم واحد ، ودعوتهم إلى الخير واحدة ، كان موجب ذلك ومقتضاه ،
أن تجتمع الأمم على تصديقهم ، والانقياد لهم ، لما آتاهم من البينات التي
على مثلها ، يؤمن البشر .

لكن أكثرهم ، انحرفوا عن الصراط المستقيم ، ووقع الاختلاف بين الأمم .
فمنهم من آمن ؛ ومنهم من كفر .

ووقع لأجل ذلك ؛ الاقتتال الذي ؛ هو موجب الاختلاف والتعادي .
ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ؛ فما اختلفوا .

ولو شاء الله أيضاً - بعدما وقع الاختلاف الوجب للاقتتال - ما اقتتلوا .

ولكن حكمته ؛ اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب .

ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى ، يتصرف في جميع الأسباب

لسيئاتها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفْعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

وأنه إن شاء أبقاها ، وإن شاء منعها .
وكل ذلك تبع لحكمته وحده ، فإنه فعال لما يريد .
فليس لإرادته ومشيتته ، ممانع ولا معارض ولا معاون .
* بحث الله المؤمنين على النفقات ، في جميع طرق الخير ،
لأن حذف المعدول ، يفيد التعميم .
ويذكرهم نعمته عليهم ، بأنه هو الذى رزقهم ، ونوع عليهم النعم .
وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما فى أيديهم ، بل أتى بـ « من » الدالة
على التبعية .

فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق .
ومما يدعوهم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات ، مدخرة عند الله ، فى يوم
لا تفيد فيه المعاوضات بالبيع ونحوه ، ولا التبرعات ، ولا الشفاعات .
فكل أحد يقول : ما قدمت لحياتى (١) .
فتنقطع الأسباب كلها ، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به ،
يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة النجر الآية ٢٤ [ياليتنى قدمت
لحياتى] .

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ

[وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون ، وما تتمدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً] .

[ثم قال تعالى : [والكافرون هم الظالمون] وذلك لأن الله خلقهم لعبادته ، ورزقهم وعافهم ، ليستعينوا بذلك على طاعته .
فخرجوا عما خلقهم الله له ، وأشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطاناً .
واستعانوا بنعمه ، على الكفر والفسوق والعصيان .

فلم يبقوا للعدل موضعاً ، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم .
✽ أخبر صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية أعظم آيات القرآن ، لما احتوت عليه من معانى التوحيد والعظمة ، وسعة الصفات للبارى تعالى .
فأخبر أنه [الله] الذى له جميع معانى الألوهية ، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو .

فألوهية غيره ، وعبادة غيره ، باطلة .
وأنه [الحى] الذى له جميع معانى الحياة الكاملة ، من السمع ، والبصر ، والقدرة ، والإرادة وغيرها ، والصفات الذاتية .

كما أن [القيوم] تدخل فيه جميع صفات الأفعال ، لأنه القيوم الذى قام بنفسه ، واستغنى عن جميع مخلوقاته ، وقام بجميع الموجودات ، فأوجدتها وأبقاها ، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه فى وجودها وبقائها .

وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ
عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ

ومن كمال حياته وقيوميته ، أنه [لا تأخذه سنة] أى : نعاس
[ولا نوم] .

لأن السنة والنوم ، إنما يعرضان للمخلوق ، الذى يعتريه الضعف ،
والعجز ، والانحلال .

ولا يعرضان ، لذى العظمة ، والكبرياء ، والجلال .

وأخبر أنه مالك جميع مافى السموات والأرض .

فكلهم عبيد لله ممالك ، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور .

[إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً] . فهو

المالك لجميع الممالك ، وهو الذى له صفات الملك والتصرف ، والسلطان ،
والكبرياء .

ومن تمام ملكه أنه لا [يشفع عنده] أحد [إلا بإذنه] .

فكل الوجهاء والشفعاء ، عبيد له ممالك ، لا يقدمون على شفاعته حتى
يأذن لهم .

[قل لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السموات والأرض] .

والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فىمن ارتضى ، ولا يرتضى إلا توحيده ،

واتباع رسله .

فمن لم يتصف بهذا ، فليس له فى الشفاعه نصيب .

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط ، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق ، من

مَنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ
حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

الأمور المستقبلية، التي لانهاية لها [وما خلفهم] من الأمور الماضية، التي لاحدها.
وأنة لا تخفى عليه خافية [يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور] .
وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته [إلا بما شاء] منها .
وهو ما أطعمهم عليه من الأمور الشرعية والتدريية ، وهو جزء يسير
جداً مضمحل في علوم الباري ومعلوماته ، كما قال أعلم الخلق به ، وهم الرسل
والملائكة [سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا] .

ثم أخبر عن عظمته وجلاله ، وأن كرسيه ، وسع السموات والأرض ،
وأنة قد حفظهما ومن فيهما من العوالم ، بالأسباب والنظامات ، التي جعلها
الله في المخلوقات .

ومع ذلك ، فلا يؤوده ، أى : يثقله حفظهما ، لكمال عظمته ، واقتداره ،
وسعة حكمته في أحكامه .

[وهو العلى] بذاته ، على جميع مخلوقاته ، وهو العلى بعظمة صفاته .
وهو العلى الذى قهر المخلوقات ، ودانت له الموجودات ، وخضعت له
الصعاب ، وذلت له الرقاب .

[العظيم] الجامع ، لجميع صفات العظمة والكبرياء ، والمجد والبهاء ،
الذى تحبه القلوب ، وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون أن عظمة كل
شئ ، وإن جلت عن الصفة ، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلى العظيم .

فأية ، احتوت على هذه المعانى التى هى أجل المعانى ، يحق أن تكون
أعظم آيات القرآن ، ويحق لمن قرأها ، متدبراً متفهماً ، أن يمتلىء قلبه من
اليقين والعرفان والإيمان ، وأن يكون محفوظاً بذلك ، من شرور الشيطان .

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦)

هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامى ، وأنه — لكمال^(١) براهينه ، واتضاح آياته ، وكونه هو دين العقل والعلم ، ودين الفطرة والحكمة ، ودين الصلاح والإصلاح ، ودين الحق والرشد ، فلكماله وقبول الفطرله — لا يحتاج إلى الإكراه عليه .

لأن الإكراه ، إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب ، ويتنافى مع الحقيقة والحق ، أو لما تحفى براهينه وآياته .

وإلا فن جاءه هذا الدين ، وردده ولم يقبله ، فإنه لعناده .

فإنه قد تبين الرشد من الغى ، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة ، إذا رده ولم يقبله .

ولا منافاة بين هذا المعنى ، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد . فإن الله أمر بالقتال ، ليكون الدين كله لله ، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين .

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ، ماض مع البر والفاجر ، وأنه من الفروض المستمرة ، الجهاد القولى الفعلى .

(١) قوله (لكمال) هذا الجار والمجرور متعلق بقوله الآتى (لا يحتاج) .

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية ، تنافى آيات الجهاد ، فحزم بأنها منسوخة — فقوله ضعيف ، لفظاً ومعنى ، كما هو واضح بين ، لمن تدبر الآية الكريمة ، كما نبهنا عليه .

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين :

قسم آمن بالله وحده لاشريك له ، وكفر بالطاغوت — وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره — فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى ، التي لا انفصام لها ، بل هو مستقيم على الدين الصحيح ، حتى يصل به إلى الله ؛ وإلى دار كرامته .

ويؤخذ القسم الثانى ، من مفهوم الآية ، أن من لم يؤمن بالله ، بل كفر به ، وآمن بالطاغوت ، فإنه هالك هلاكاً أبدياً ، ومعذب عذاباً سرمدياً .

وقوله : [والله سميع] أى : لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تقنن الحاجات ، وسميع لدعاء الداعين ، وخضوع المتضرعين .

[عليم] بما أكتنته الصدور ، وما خفى من خفايا الأمور .

فيجازى كل أحد ، بحسب ما يعلمه ، من نياته وعمله .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى
الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧)

هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها .

فالسابقة ، هي الأساس ، وهذه هي الثمرة .

فأخبر تعالى ، أن الذين آمنوا بالله ، وصدقوا بإيمانهم ، بالقيام بواجبات
الإيمان ، وترك كل ما ينافيه ، أنه وليهم ، بتولاهم بولايته الخاصة ، ويتولى
تربيته ، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض ،
إلى نور العلم واليقين والإيمان ، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم .

وينور قلوبهم ، بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان ، ويسرهم
للإسرى ، ويجنبهم العسرى .

وأما الذين كفروا ، فإنهم لما تولوا غير وليهم ، ولاهم الله ما تولوا
لأنفسهم ، وخذلهم ، ووكلمهم إلى رعاية من تولاهم ، ممن ليس عنده نفع
ولا ضرر .

فأضلّوهم ، وأشقّوهم ، وحرّموهم هداية العلم النافع ، والعمل الصالح .

وحرّموهم السعادة ، وصارت النار مثواهم ، خالدين فيها مخلدين .

اللهم تولنا فيمن توليت .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾

يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين ، ما به تتبين الحقائق ، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد .

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، حيث حاج هذا الملك الجبار ، وهو نمروذ البابلي ، المعطل النكر لرب العالمين ، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاجته في هذا الأمر ، الذي لا يقبل شكاً ، ولا إشكالا ، ولا ريباً ، وهو توحيد الله وربوبيته ، الذي هو أجل الأمور وأوضحها .

ولسكن هذا الجبار ، غره ملكه وأطغاه ، حتى وصلت به الحال ، إلى أن نفاه ، وحاج إبراهيم الرسول العظيم ، الذي أعطاه الله من العلم واليقين ، ما لم يعط أحداً من الرسل ، سوى محمد صلى الله عليه وسلم . فقال إبراهيم مناظراً له [ربى الذى يحيى ويميت] أى : هو المنفرد بالخلق والتدبير ، والإحياء والإماتة .

فذكر من هذا الجنس أظهرها ، وهو الإحياء والإماتة . فقال ذلك الجبار مباهاة [أنا أحيى وأميت] . وعنى بذلك أنى أقتل من أردت قتله ، وأستحيى من أردت استبقائه . ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير ، وحيدة عن المقصود . وأن المقصود ، أن الله تعالى هو الذى تفرد بإيجاد الحياة فى المعدومات ، وردها على الأموات .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ
فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

وأنه هو الذى يميت العباد والحيوانات بأجلها ، بأسباب ربطها وبغير أسباب .

فلما رآه الخليل مموها تمويهاً ، ربما راج على الهمج الرعاع .
قال إبراهيم - ملزماله بتصديق قوله إن كان كما يزعم :
[فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر] أى : وقف ، وانقطعت حجته ، واضمحلت شبهته .
وليس هذا من الخليل ، انتقالاً من دليل إلى آخر .
وإنما هو إلزام لمرود ، بطرد دليله إن كان صادقاً .
وأتى بهذا الذى لا يقبل الترويح والتزوير والتمويه .
فجميع الأدلة ، السمعية والعقلية ، والفطرية ، قد قامت شاهدة بتوحيد الله ، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير .

وأن من هذا شأنه ، لا يستحق العبادة إلا هو .
وجميع الرسل ، متفقون على هذا الأصل العظيم .
ولم ينكره إلا معاند مكابر ، مماثل لهذا الجبار العنيد .
فهذا من أدلة التوحيد .

ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء فقال : [أو كالأذى مر على
قوية - الآية] .

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ
كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾

هذان دليان عظيمان ، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة - على البعث والجزاء .

واحد أجراه الله على يد رجل شك في البعث على الصحيح ، كما تدل عليه الآية الكريمة .

والآخر ، على يد خليله إبراهيم .

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده .

فهذا الرجل ، مر على قرية قد دمرت تدميراً وخوت على عروشها .

قد مات أهلها وخربت عمارتها ، فقال - على وجه الشك والاستبعاد :

[أنى يحيي هذه الله بعد موتها] ؟

أى : ذلك بعيد ، وهى فى هذه الحال .

يعنى : وغيرها مثلها ، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة .

فأراد الله رحمته ورحمة الناس ، حيث أماته الله مائة عام .

وكان معه حمار ، فأماته معه .

ومعه طعام وشراب ، فأبقاها الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة .

فلما مضت الأعوام المائة بعثه الله فقال :

[كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم] وذلك بحسب ما ظنه .

فقال الله [بل لبثت مائة عام] .

فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ
آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنَشِّرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ

والظاهر أن هذه المجاوبة على يد بعض الأنبياء الكرام .
ومن تمام رحمة الله به وبالناس ، أنه أراه الآية عيانا ، ليقتنع بها .
فبعد ما عرف أنه ميت قد أحياه الله ، قيل له :
[فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه] أى : لم يتغير فى هذه المدد
الطويلة .

وذلك من آيات قدرة الله ، فإن الطعام والشراب - خصوصا ما ذكره
المفسرون : أنه فاكهة وعصير - لا يلبث أن يتغير ، وهذا قد حفظه الله ،
مائة عام وقيل له :

[انظر إلى حمارك] ، فإذا هو قد تمزق وتفرق ، وصار عظاما نخرة .
[وانظر إلى العظام كيف ننشزها] أى : نرفع بعضها إلى بعض ،
ونصل بعضها ببعض ، بعد ما تفرقت وتمزقت .
[ثم نكسوها] بعد الالتئام [لحما] ثم ، نعيد فيه الحياة .
[فلما تبين له] رأى عين لا يقبل الريب بوجه من الوجوه .
[قال أعلم أن الله على كل شيء قدير] .

فاعترف بقدرة الله على كل شيء وصار آية للناس ، لأنهم قد عرفوا
موته وموت حماره ، وعرفوا قضيته ، ثم شاهدوا هذه الآية الكبرى .
هذا هو الصواب فى هذا الرجل .

إِبْرَاهِيمَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ
وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ

وأما قول كثير من المفسرين : إن هذا الرجل ، مؤمن ، أو نبي من الأنبياء ، إما عزيز أو غيره ، وأن قوله [أنى يحيى هذه الله بعد موتها] ، يعنى كيف تعمر هذه القرية ، بعد أن كانت خراباً ، وأن الله أماته ، ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق ، وأنها عمرت فى هذه المدة ، وتراجع الناس إليها وصارت عامرة ، بعد أن كانت دامرة - فهذا لا يدل عليه اللفظ بل ينافيه ، ولا يدل عليه المعنى .

فأى آية وبرهان ، يرجع البلدان الدامرة إلى العمارة ، وهذه لم تزل تشاهد ، تعمر قرى ومساكن ، وتخرب أخرى .

وإما الآية العظيمة ، فى إحيائه بعد موته ، وإحياء حمارة ، وإبقاء طعامه وشرابه ، لم يتعفن ولم يتغير .

ثم قوله [فلما تبين له] صريح فى أنه لم يتبين له إلا بعد ما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً .

وأما البرهان الآخر ، فإن إبراهيم قال طالباً من الله ، أن يريه كيف يحيى الموتى :

فقال الله له : [أو لم تؤمن] ليزيل الشبهة عن خليفه .

[قال] إبراهيم : [بلى] يارب ، قد آمنت أنك على كل شيء قدير ، وأنت تحيى الموتى ، وتجازى العباد .

ولكن أريد أن يطمئن قلبي ، وأصل إلى درجة عين اليقين .

ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَمْعِيًّا وَأَعْلَمْ
أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

فأجاب الله دعوته ، كرامة له ، ورحمة بالعباد .
[قال نخذ أربعة من الطير] ولم يبين أى الطيور هى .
فالآية حاصلة بأى نوع منها ، وهو المقصود .
[فصرهن إليك] ضمنهن ، واذبحهن ، ومزقهن .
[ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن ، يأتينك سمعيا واعلم
أن الله عزيز حكيم] .
ففعل ذلك ، وفرق أجزاءهن على الجبال ، التى حوله ، ودعاهن بأسمائهن ،
فأقبلن إليه ، أى : سريعات ، لأن السعى : السرعة .
وليس المراد ، أنهن جئن على قوائمهن ، وإنما جئن طائرات ، على
أكل ما يكون من الحياة .
وخص الطيور بذلك ، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن .
وأيضاً أزال فى هذا كل وهم ، ربما يعرض للنفس الباطلة .
فجعلهن متعدّدات أربعة ، ومزقهن جميعاً ، وجعلهن على رؤس الجبال
ليكون ذلك ظاهراً علناً ، يشاهد من قرب ومن بعد ، وأنه نحاهن عنه
كثيراً ، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل .
وأيضاً أمره أن يدعوهن ، فجئن مسرعات .
فصارت هذه الآية ، أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته .
وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته
وسعة سلطانه ، وتام عدله وفضله .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ
لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

هذا حث عظيم من الله لعباده على إنفاق أموالهم في سبيله ، وهو طريقه
للوصول إليه .

فيدخل في هذا ، إنفاقه في ترقية العلوم النافعة ، وفي الاستعداد للجهاد
في سبيله ، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم ، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة
للمسلمين .

وبلى ذلك ، الإنفاق على المحتاجين ، والفقراء والمساكين .
وقد يجتمع الأمران ، فيكون في النفقة دفع الحاجات ، والإعانة على
الخير والطاعات .

فهذه النفقات مضاعفة ، هذه المضاعفة بسبعائة إلى أضعاف أكثر من ذلك .
ولهذا قال [والله يضاعف لمن يشاء] وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق ،
من الإيمان ، والإخلاص التام ، وفي ثمرات نفقته ونفعها .

فإن بعض طرق الخيرات ، يترتب على الإنفاق فيها ، منافع متسلسلة ،
ومصالح متنوعة ، فكان الجزاء من جنس العمل .

ثم أيضاً ، ذكر ثواباً آخر للمنفقين أموالهم في سبيله ، نفقة صادرة ،
مستوفية لشروطها ، منتفية موانعها .

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى
وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٦٣)

فلا يتبعون المنفق عليه منا منهم عليه ، وتعداداً للنعم ، وأذية له ،
قولية ، أو فعلية .

فهؤلاء [لهم أجرهم عند ربهم] بحسب ما يعلمه منه ، وبحسب نفقاتهم
ونفعها ، وبفضله الذى لا تناله ، ولا تصل إليه : صدقاتهم .

[ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون] فنفى عنهم المكروه الماضى ، بنفى
الحزن ، والمستقبل بنفى الخوف عليهم ، فقد حصل لهم المحبوب ، واندفع
عنهم المكروه .

* ذكر الله أربع مراتب للإحسان :

المرتبة العليا ، النفقة الصادرة عن نية صالحة ، ولم يتبعها المنفق منا
ولا أذى

ثم يليها ، قول المعروف وهو : الإحسان التولى بجميع وجوهه ، الذى
فيه سرور المسلم ، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً ، وغير ذلك
من أقوال المعروف .

والثالثة : الإحسان بالعفو والمغفرة ، عن أساء إليك ، بقول أو فعل .
وهذان أفضل من الرابعة ، وخير منها ، وهى التى يتبعها المتصدق
الأذى المعطى ، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشرأ .

فالخير المحض — وإن كان مفضولاً — خير من الخير الذى يخالطه شر ،
وإن كان فاضلاً ، وفى هذا ، التحذير العظيم لمن يؤذى من تصدق عليه ، كما
يفعله أهل اللؤم والحق والجهل .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ
وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ
صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ تَمَّ كَسْبُوهَا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

[والله] تعالى [غنى] عن صدقاتهم ، وعن جميع عبادته .
[حلیم] مع کمال غناه ، وسعة عطایاه ، یحلم عن العاصین ، ولا یعاجلهم
بالعقوبة .

بل یعافهم ، ویرزقهم ، ویدر علیهم خیره ، وهم مبارزون له بالمعاصی .
* ثم نهى أشد النهی ، عن المن والأذى ، وضرب لذلك مثلاً فقال :
[یا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . الآية]
ضرب الله فی هذه الآيات ، ثلاثة أمثلة :
للمنفق ابتغاء وجهه ، ولم يتبع نفقته منا ولا أذى .
ولمن أتبعها منا وأذى ، وللمرائى .

فأما الأول ، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة ، لصدورها عن
الإيمان والإخلاص التام [ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم] أى :
ينفقون ، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق فمثل ^(١) هذا العمل [كمثل
جنة بربوة] وهو المكان المرتفع ، لأنه يتبين للرياح والشمس ، والماء فيها غزير .
فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير ، حصل ظل كاف ، لطيب منبتها ،

(١) قوله : فمثل الخ) جواب (لما) فى قوله (فأما الأول الخ) .

الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أُتْبَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثِيَّتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ

وحسن أرضها ، وحصول جميع الأسباب الوفرة لنموها وازدهارها وإثمارها .
ولهذا [آتت أكلها ضعفين] أى متضاعفاً .

وهذه الجنة التى على هذا الوصف ، هى أعلى ما يطلبه الناس ، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل .

وأما من أنفق لله ، ثم أتبع نفقته منا وأذى ، أو عمل عملاً ، فأتى بمبطل لذلك العمل ، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة ، لكن سلط عليها [إعصار] وهو الريح الشديدة [فيه نار فاحترقت] وله ذرية ضعفاء ، وهو ضعيف قد أصابه الكبر .

فهذه الحال من أفضح الأحوال ، ولهذا صدر هذا المثل بقوله :
[أيود أحدكم] إلى آخرها بالاستفهام المتكرر عند مخاطبين فظاعته .
فإن تلفها دفعة واحدة ، بعد زهاء أشجارها ، وإنباع ثمارها ، مصيبة كبرى .
ثم حصول هذه الفاجعة — وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل ، وله ذرية ضعفاء ، لا مساعدة منهم له ، ومؤنتهم عليه — فاجعة أخرى ، فصار صاحب هذا المثل ، الذى عمل لله ، ثم أبطل عمله بمناف له ، يشبه حال صاحب الجنة ، التى جرى عليها ما جرى ، حين اشتدت ضرورته إليها .

المثل الثالث : الذى يرأى الناس ، وليس معه إيمان بالله ، ولا احتساب

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ
ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

لثوابه ، حيث شبه قلبه بالصفوان ، وهو : الحجر الأملس . عليه تراب
يظن الرائي ، أنه إذا أصابه المطر ، أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة .
ولكنه كالحجر ، الذي أصابه الوبل الشديد ، فأذهب ما عليه من
التراب ، وتركه صليداً .

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي ، الذي ليس فيه إيمان ، بل هو قاس
لا يلين ولا يخشع .

فهذا ، أعماله ونفقاته ، لا أصل لها ، تؤسس عليه ، ولا غاية لها ،
تنتهى إليه ، بل ما عمله ، فهو باطل ، لعدم شرطه .

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط ، لوجود المانع .

والأول ، مقبول مضاعف ، لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص
والثبات ، وانتفاء الموانع المفسدة .

وهذه الأمثال الثلاثة ، تنطبق على جميع العاملين .

فليزن العبد نفسه وغيره ، بهذه الموازين العادلة ، والأمثال المطابقة .

[وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون] .

يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ
وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ
وَلَسْتُمْ بِأَخْذِهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِضُوا فِيهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

يحث البارى عباده ، على الإنفاق مما كسبوا ، فى التجارات ، ومما
أخرج لهم من الأرض ، من الحبوب والثمار .

وهذا يشمل زكاة النقدين ، والعروض كلها ، المعدة للبيع والشراء ،
والخارج من الأرض ، من الحبوب والثمار .

ويدخل فى عمومها ، الفرض والنفل .

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها ، ولا يقصدوا الخبيث ، وهو
الردىء الدون ، يجعلونه لله .

ولو بذله لهم من لهم حق عليه ، لم يرتضوه ، ولم يقبلوه ، إلا على وجه
المغاضاة والإغماض .

فالواجب ، إخراج الوسط من هذه الأشياء ، والكمال : إخراج
العالى ، والممنوع إخراج الردىء فإن هذا لا يجزئ عن الواجب ، ولا يحصل
فيه الثواب التام فى المندوب .

[واعلموا أن الله غنى حميد] فهو غنى عن جميع المخلوقين ، وهو الغنى
عن نفقات المنفقين ، وعن طاعات الطائعين .

وإنما أسرهم بها ، وختمهم عليها ، لنفعهم ، ومحض فضله وكرمه عليهم .

ومع كمال غناه ، وسعة عطاياه ، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من
الأحكام ، الموصلة لهم إلى دار السلام .

حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ
يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

وحميد في أفعاله ، التي لا تخرج عن الفضل ، والعدل والحكمة .
وحميد الأوصاف ، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات ، لا يبلغ العباد
كنها ، ولا يدركون وصفها .

فها حثهم على الإنفاق النافع ، ونهاهم عن الإمساك الضار ، بين لهم
أنهم بين داعيين : داعى الرحمن ، يدعوهم إلى الخير ، ويعدهم عليه الخير ،
والفضل والثواب العاجل والآجل ، وإخلاف ما أنفقوا .

وداعى الشيطان ، الذى يحثهم على الإمساك ويخوفهم ، إن أنفقوا
أن يفتقروا .

فمن كان مجيباً لداعى الرحمن ، وأنفق مما رزقه الله ، فليشر بمغفرة
الذنوب ، وحصول كل مطلوب .

ومن كان مجيباً لداعى الشيطان ، فإنه إنما يدعو حزبه ، ليسكونوا من
أصحاب السعير .

فليختر العبد أى الأمرين أليق به .

وختم الآية بأنه [واسع عليم] أى واسع الصفات كثير الهبات عليم
بمن يستحق المضاعفة من العاملين وعليم بمن هو أهل فيوقفه لفعل الخيرات
وترك المنكرات .

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢٦٩)

لما ذكر أحوال المنفقين للأموال ، وأن الله أعطاهم ، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية ، وينالون بها المقامات السنية ، ذكر ما هو أفضل من ذلك ، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده ، ومن أراد بهم خيراً من خلقه .

والحكمة هي : العلوم النافعة ، والمعارف الصائبة ، والعقول المسددة ، والألباب الرزينة ، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال .

وهذا أفضل العطايا ، وأجل الهبات ، ولهذا قال :

[ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً] لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى ، ومن حق الانحراف في الأقوال والأفعال ، إلى إصابة الصواب فيها ، وحصول السداد ، ولأنه كل نفسه بهذا الخير العظيم ، واستعد لتنفع الخلق أعظم نفع ، في دينهم ودنياهم .

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة ، التي هي : وضع الأشياء في مواضعها . وتنزيل الأمور منازلها ، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام .

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم ، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم .

[إلا أولو الألباب] وهم : أهل العقول الوافية ، والأحلام الكاملة ، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه ، والضار فيتركونه .

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ تَفَقَّةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ

يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ

وهذان الأمران ، وهما بذل النفقات المالية ، وبذل ، الحكمة العلمية ،
أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله ، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل
الكرامات .

وهما اللذان ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « لاحسد إلا في
اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله
الحكمة فهو يعلمها الناس » .

* يخبر تعالى ، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون ، أو نذر
الناذرون ، فإن الله يعلم ذلك .

ومضمون الإخبار بعلمه ، يدل على الجزاء ، وأن الله لا يضيع عنده
مئثال ذرة .

ويعلم ما صدرت عنه ، من نيات صالحة ، أو سيئة .

وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم ، أو يقتحمون ما حرم
عليهم ، ليس من دونهم أنصار ، ينصرونهم ويمنعونهم . وأنه لا بد أن تقع
بهم العقوبات .

وأخبر أن الصدقة ، إن أبدأها المتصدق ، فهي خير ، وإن أخفاها ،
وسلمها للفقير ، كان أفضل .

لأن الإخفاء على الفقير ، إحسان آخر .

وَأِنْ تَخْضَوْهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ
مَنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

وأيضاً ، فإنه يدل على قوة الإخلاص . وأحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله « من تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .
وفي قوله : [وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم] فائدة لطيفة .
وهو أن إخفاءها خير من إظهارها ، إذا أعطيت الفقير .
فأما إذا صرفت في مشروع خيري ، لم يكن في الآية ، ما يدل على فضيلة إخفاءها ، بل هنا قواعد الشرع ، تدل على مراعاة المصلحة .
فربما كان الإظهار خيراً ، لحصول الأسوة والافتداء ، وتنشيط النفوس على أعمال الخير .
وقوله : [ويكفر عنكم من سيئاتكم] في هذا : أن الصدقات يجتمع فيها الأسمان .

حصول الخير ، وهو : كثرة الحسنات والثواب والأجر .
ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي ، بتكفير السيئات .
[والله بما تعملون خبير] فيجازي كلا بعمله ، بحسب حكمته .

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾
لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ

أى : إنما عليك — أيها الرسول — البلاغ ، وحث الناس على الخير ،
وزجرهم عن الشر ، وأما الهداية ، فبيد الله تعالى :
ويخبر عن المؤمنين حقاً ، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم ،
واحتساب ثوابه ، لأن إيمانهم ، يدعوهم إلى ذلك .

فهذا خير وتزكية للمؤمنين ، ويتضمن التذكير لهم ، بالإخلاص .
وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم ، لإعلامهم أنه لا يضيع عنده ، مثقال
ذرة « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » .

* يعنى أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء ، الذين حبسوا أنفسهم
فى سبيل الله ، وعلى طاعته ، وليس لهم إرادة فى الاكتساب ، أو ليس لهم
قدرة عليه ، وهم يتعففون .

إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء [لا يسألون الناس إلحافاً] .
فهم لا يسألون بالكلية ، وإن سألوا اضطراراً ، لم يلحفوا فى السؤال .
فهذا الصنف من الفقراء ، أفضل ما وضعت فيهم النفقات ، لدفع

بِسْمِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْلَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ
عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

حاجتهم ، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير ، وشكراً لهم على ما اتصفوا
به ، من الصبر ، والنظر إلى الخالق ، لا إلى الخلق .

ومع ذلك ، فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحايج حينما كانوا ،
فإنه خير وأجر ، وثواب عند الله ولهذا قال تعالى :

[الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً] الآية .

فإن الله يظا لهم بظله يوم لا ظل إلا ظله ، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع
عنهم الأحزان والحقوف والكريهات .

وقوله : [فلهم أجرهم عند ربهم] أى كل أحد منهم بحسب حاله .

وتخصيص ذلك ، بأنه عند ربهم ، يدل على شرف هذه الحال ،
ووقوعها في الموقع الأكبر ، كما في الحديث الصحيح .

« إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيقبلها الجبار بيده فيريها

لأحدكم كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم » .

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ
الرِّبَا وَاحِلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَأَنْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلِ الصَّدَقَاتِ

لما ذكر الله حالة المنافقين ومالهم من الله ، من الخيرات ، وما يكفر عنهم ،
من الذنوب والخطيئات ، ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخيئة ،
وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم .

فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخيئة كالجانين ، عوقبوا
في البرزخ والقيامة ، بأنهم لا يقومون من قبورهم ، أو يوم بعثهم ونشورهم
[إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس] أى : من الجنون
والصرع .

وذلك عقوبة ، وخزى وفضيحة لهم ، وجزاء لهم على سراباتهم ومجاهرتهم
بقولهم [إنما البيع مثل الربا] .

فجمعوا — يجرأتمهم — بين ما أحل الله ، وبين ما حرم الله ، واستباحوا
بذلك ، الربا .

ثم عرض تعالى ، العقوبة على الرايين وغيرهم فقال :
[فمن جاءه موعظة من ربه] بيان مقرون به الوعد والوعيد .

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾
فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ

[فانتهى] عما كان يتعاطاه من الربا [فله ما سلف] مما تجرأ عليه
وتاب منه .

[وأمره إلى الله] فيما يستقبل من زمانه .

فإن استمر على توبته ، فالله لا يضع أجر المحسنين .

[ومن عاد] بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لأكل الربا [فأولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون] في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود
فيها ، وذلك لشناعته ، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان .

وهذا من جملة الأحكام ، التي تتوقف على وجود شروطها ، وانتهاء
موانعها .

وليس فيها حجة للخوارج ، كغيرها من آيات الوعيد .

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة .

فيؤمن العبد ، بما تواترت به النصوص ، من خروج من في قلبه أدنى
مثقال حبة خردل من الإيمان ، من النار .

رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ
فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾
وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

ومن استحقاق هذه الموبات لدخول النار ، إن لم يتب منها .
ثم أخبر تعالى ، أنه يحق مكاسب الرايين ، ويرى صدقات المنفقين ،
عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق ، أن الإنفاق ينقص المال وأن
الربا يزيده ، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته ، من الله تعالى .
وما عند الله ، لا ينال إلا بطاعته ، وامتنال أمره .
فالتجربىء على الربا ، يعاقبه بنقيض مقصوده ، وهذا مشاهد بالتجربة
و« من أصدق من الله قبيلا » .
[والله لا يحب كل كفار أثيم] وهو الذى كفر نعمة الله ، وجدمنة
ربه ، وأثم بإصراره على معاصيه .
ومفهوم الآية ، أن الله يحب من كان شكورا على النماء ، تائباً
من المآثم والذنوب .
ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا ، وهى قوله :
[إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة]
الآية ، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية ،
تكميل الإيمان وحقوقه .

خصوصاً ، إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

وإن الزكاة إحسان إلى الخلق ، ينافى تعاظم الربا ، الذى هو ظلم لهم ، وإساءة عليهم .

ثم وجه الخطاب للمؤمنين ، وأمرهم أن يتقوه . ويذروا ما بقى من معاملات الربا ، التى كانوا يتعاطونها قبل ذلك وأهم إن لم يفعلوا ذلك ، فإنهم محاربون لله ورسوله .

وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا ، حيث جعل المصر عليه ، محارباً لله ورسوله .

ثم قال [وإن تبتم] يعنى من المعاملات الربوية .
[فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون] الناس بأخذ الربا [ولا تظلمون]
ببخسكم رءوس أموالكم .

فكل من تاب من الربا ، فإن كانت معاملات سالفة ، فله ما سلف ، وأمره منظور فيه .

وإن كانت معاملات موجودة ، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله .
فإن أخذ زيادة ، فقد تجرأ على الربا .

وفى هذه الآية ، بيان لحكمة تحريم الربا ، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين ، بأخذ الزيادة ، وتضاعف الربا عليهم ، وهو واجب إنظارهم ^(١) .

(١) قوله [وهو واجب إنظارهم] الضواب أن يقال : وإن المستدين يجب إنظارهم إلى وقت الميسرة .

.

ولهذا قال: [وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة] .

أى : وإن كان الذى عليه الدين معسرا ، لا يقدر على الوفاء ، وجب على غريمه ، أن ينظره إلى ميسرة .

وهو^(١) يجب عليه إذا حصل له وفاء بأى طريق مباح ، أن يوفى ما عليه .

وإن تصدق عليه غريمه — بإسقاط الدين كله أو بعضه — فهو خير له ، ويهون على العبد ، التزام الأمور الشرعية ، واجتناب المعاملات الربوية ، والإحسان إلى المعسرين ، علمه^(٢) بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله ، ويوفيه عمله ، ولا يظلمه مثقال ذرة . كما ختم هذه الآية بقوله :

[واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون] .

ثم قال تعالى [يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين] الآية .

(١) قوله (وهو يجب الخ) فى العبارة اضطراب ، والأوضح أن يقال : والمدين (أى الذى عليه الدين) يجب عليه الوفاء متى حصل على مال من طريق مباح ، وتحرم عليه المماطلة ، فإن مطل الغنى (أى : الذى يقدر على الوفاء) ظلم يحل عرضه وعقوبته ، كما ورد فى الحديث .

(٢) قوله « علمه » فاعل لقوله المتقدم « ويهون الخ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى آجَلٍ
مُسَمًّى فَمَا كُتِبَ لَهُ وَلْيُكْتَبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ
أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ

احتوت هذه الآيات ، على إرشاد البارى عباده فى معاملاتهم ، إلى حفظ
حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التى لا تقترح العقلاء أعلى ولا أكمل
منها ، فإن فيها فوائد كثيرة .

منها : جواز المعاملات فى الديون ، سواء كانت ديون سلم أو شراء
مؤجلا ثمنه ، فكله جائز ، لأن الله أخبر به عن المؤمنين ، وما أخبر به عن
المؤمنين ، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان .

ومنها : وجوب تسمية الأجل فى جميع المداينات وحلول الإجازات .

ومنها : أنه إذا كان الأجل مجهولا ، فإنه لا يحل ، لأنه غرر وخطر ،
فيدخل فى الميسر .

ومنها : أمره تعالى ، بكتابة الديون .

وهذا الأمر قد يجب ، إذا وجب حفظ الحق ، كالذى للعبد عليه ولاية ،
وكأموال اليتامى ، والأوقاف ، والوكلاء ، والأمناء .

وقد يقارب الوجوب ، كما إذا كان الحق متمحضا للعبد ، فقد يقوى
الاستحباب ، بحسب الأحوال المقتضية لذلك .

وعلى كل حال ، فالكتابة من أعظم ما تحفظ به هذه المعاملات المؤجلة ،
لكثرة النسيان ، ولوقوع المغالطات ، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون
الله تعالى .

وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ
وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ

ومنها : أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل ، فلا يميل مع أحدهما لقراءة ولا غيرها ، ولا على أحدهما ، لعداوة ونحوها .
ومنها : أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال ، ومن الإحسان إليهما .

وفيها حفظ حقوقهما ، وبراءة ذمهما ، كما أمره الله بذلك .
فليحتسب الكاتب بين الناس ، هذه الأمور ، ليحظى بشوابها .
ومنها : أن الكاتب لا بد أن يكون عارفا بالعدل ، معروفاً بالعدل .
لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل ، لم يتمكن منه .
وإذا لم يكن معتبراً عدلاً عند الناس رضىً ، لم تكن كتابته معتبرة ، ولا حاصلها المقصود ، الذى هو حفظ الحقوق .
ومنها : أن من تمام الكتابة والعدل فيها ، أن يحسن الكاتب الإنشاء ، والألفاظ المعتبرة ، فى كل معاملة بحسبها .
وللعرف فى هذا المقام ، اعتبار عظيم .

ومنها : أن الكتابة من نعم الله على العباد ، التى لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها ، وأن من علمه الله الكتابة ، فقد تفضل عليه بنضل عظيم .

وَأَمْرًا تَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الْآخَرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ
تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ آجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ

فن تمام شكره لنعمة الله تعالى ، أن يقضى بكتابتها حاجات العباد ،
ولا يتمتع من الكتابة ولهذا قال : [ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله] .
ومنها : أن الذى يكتبه الكاتب ، هو اعتراف من عليه الحق ، إذا
كان يحسن التعبير عن الحق الذى عليه .

فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره ، أو سفهه ، أو جنونه ، أو خرسه ،
أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه ، وقام وليه فى ذلك مقامه .

ومنها : أن الاعتراف من أعظم الطرق ، التى تثبت بها الحقوق ، حيث
أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ، ما أملى عليه من عليه الحق .

ومنها : ثبوت الولاية على القاصرين ، من الصغار ، والمجانين ، والسفهاء
ونحوهم .

ومنها : أن الولى يقوم مقام موليه ، فى جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه .

ومنها : أن من أمنت فى معاملة ؛ وفوضته فيها ؛ فقوله فى ذلك مقبول .

وهو نائب منك ؛ لأنه إذا كان الولى على القاصرين ؛ ينوب مناهم .

فالذى وليته باختيارك ؛ وفوضت إليه الأمر ، أولى بالقبول ، واعتبار

قوله وتقديمه على قولك ؛ عند الاختلاف .

ومنها : أنه يجب على الذى عليه الحق — إذا أملى على الكاتب —

لِلشَّهَدَةِ وَأَذْنَىٰ إِلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَجَرَّةَ حَاضِرَةٍ تُدِيرُونَهَا
يَنْتَكُمُ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ إِلَّا تَكْتُمُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ
وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ

أن يبقى الله ؛ ولا ينخس الحق الذي عليه ؛ فلا ينتصه في قدره ؛ ولا في وصفه ،
ولا في شرط من شروطه ؛ أو قيد من قيوده .

بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق ؛ كما يجب ذلك
إذا كان الحق على غيره له .

فمن لم يفعل ذلك ؛ فهو من المطففين الباخسين .

ومنها : وجوب الاعتراف بالحقوق الخفية ؛ وأن ذلك من أعظم خصال
التقوى ؛ كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها .

ومنها : الإرشاد إلى الإشهاد في البيع .

فإن كانت في المداينات ؛ فحكمها حكم الكتابة كما تقدم ؛ لأن الكتابة
هي كتابة الشهادة .

وإن كان البيع بيعاً حاضراً ؛ فينبغي الإشهاد فيه .

ولا حرج فيه بترك الكتابة ؛ لسكوته وحصول المشقة فيه .

ومنها : الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين .

فإن لم يمكن ، أو تعذر ، أو تعسر ، فرجل وامرأتان .

وذلك شامل لجميع المعاملات ، بيوع الإدارة ، وبيوع الديون وتوابعها
من الشروط والوثائق وغيرها .

وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَيْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَىٰ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ

وإذا قيل : قد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قضى بالشاهد الواحد مع اليمين ، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجائين ، أو رجل وامرأتين .
 قيل : الآية الكريمة ، فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم .
 ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق ، وأقواها .

وليس فيها ، ما ينافي ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم من الحكم بالشاهد واليمين .

فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر ، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام .

وباب الحكم بين المتنازعين ، ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات ، بحسب حالها .

ومنها : أن شهادة المرأتين ، قائمة مقام الرجل الواحد ، في الحقوق الدنيوية .

وأما في الأمور الدينية — كالرواية والفتوى — فإن المرأة فيه ، تقوم مقام الرجل ، والفرق ظاهر بين البابين .

ومنها : الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة للمرأتين عن ^(١) شهادة

(١) قوله (عن شهادة الخ) هكذا في الأصل وفي العبارة غموض كما ترى . والصواب أن يقال (ومنها : الإرشاد إلى حكمة جعل الشارع شهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل وذلك لضعف ذاكرة المرأة غالباً الخ) .

الَّذِي أُوتِئْنَ أَمَّتَهُ وَلِيَّتِي اللَّهِ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ
يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

الرجل ، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً ، وقوة حافظة الرجل .
ومنها : أن الشاهد لو نسى شهادته ، فذكره الشاهد الآخر ، فذكر أنه
لا يضر ذلك النسيان ، إذا زال بالتذكير لقوله : [أن تضل إحداها فتذكر
إحداها الأخرى] ومن باب أولى ، إذا نسى الشاهد ، ثم ذكر من دون
تذكير ، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين .

ومنها : أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم و يقين ، لا عن شك .
فتى صار عند الشاهد ، ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل
له أن يشهد إلا بما يعلم .

ومنها : أن الشاهد ليس له أن يمتنع ، إذا دعى للشهادة ، سواء دعى
للتحمل أو للأداء .
وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة ، كما أمر الله بها ،
وأخبر عن نفعها ومصالحها .

ومنها : أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ، ولا بالشهيد ، بأن يدعي في وقت
أو حالة ، تضرهما .

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعامين ، وأن يضاروا الشهود والكتاب ،
فإنه أيضاً ، نهى للكتاب والشهيد ، أن يضار المتعامين أو أحدهما .

وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكتاب - إذا حصل عليهما ضرر
في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب .

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف ، لا يحل إضرارهم ،
وتحميلهم مالا يطيقون ، ف « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ » .

وكذلك على من أحسن وفعل معروفا ، أن يتم إحسانه بترك الإضرار
القولى والفعلى ، بمن أوقع به المعروف ، فإن الإحسان ، لا يتم إلا بذلك .
ومنها : أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة ، حيث
وجبت ، لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد ، ولأنه من مضارة
المتعاملين .

ومنها : التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات
الجليلة ، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل ، وقطع التنازع والسلامة من النسيان
والذهول ولهذا قال : [ذلکم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا]
وهذه مصالح ضرورية للعباد .

ومنها : أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية ، لأنها وسيلة إلى حفظ
الدين والدنيا وسبب للإحسان .

ومنها : أن من خصه الله بنعمة من النعم ، يحتاج الناس إليها .
فمن تمام شكر هذه النعمة ، أن يعود بها على عباد الله ، وأن يقضى بها
حاجتهم ، لتعليل الله النهى عن الامتناع عن الكتابة ، بتذكير الكاتب
بقوله [كما علمه الله] .

ومع هذا « فمن كان فى حاجة أخيه ، كان الله فى حاجته » .
ومنها : أن الإضرار بالشهود والكتاب ، فسوق بالإنسان .

فإن الفسوق هو : الخروج عن طاعة الله إلى معصيته ، وهو يزيد وينقص ، ويتبعض .

ولهذا لم يقل « فأنتم فساق » أو « فاسقون » بل قال [فإنه فسوق بكم] .
فبقدر خروج العبد عن طاعة ربه ، فإنه يحصل به من الفسوق ، بحسب ذلك .

واستدل بقوله تعالى [واتقوا الله ويعلمكم الله] أن تقوى الله ، وسيلة إلى حصول العلم .

وأوضح من هذا قوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا] أى : علماً تفرقون به بين الحقائق ، والحق والباطل .
ومنها : أنه كما أنه من العلم النافع ، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات ، فنه أيضاً ، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات ، فإن الله تعالى ، حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم ، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شئ .

ومنها : مشروعية الوثيقة بالحقوق ، وهى الرهون والضمانات ، التى تكفل للعبد حصوله على حقه ، سواء عامل براً أو فاجراً ، أميناً خائناً .
فكم فى الوثائق ، من حفظ حقوق ، وانقطاع منازعات .
ومنها : أن تمام الوثيقة فى الرهن ، أن يكون مقبوضاً .

ولا يدل ذلك ، على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض ، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً ، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً ، تحصل به الثقة التامة ، وقد لا يكون مقبوضاً ، فيكون ناقصاً .

ومنها : أنه يستدل بقوله [فرهان مقبوضة] أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن ، أن القول قول المرتهن ، صاحب الحق ، لأن الله جعل الرهن وثيقة به .

فلولا أنه يقبل قوله في ذلك ، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود . ومنها : أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ، ولا شهود ، لقوله [فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته] ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التيقن والخوف من الله ، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه ولهذا أمر الله في هذه الحال ، من عليه الحق ، أن يتقن الله ويؤدى أمانته .

ومنها : أن من ائتمنه معاملة فقد عمل معه معروفاً عظيماً ، ورضى بدينه وأمانته .

فيتأكد على من عليه الحق ، أداء الأمانة من الجهتين : أداء لحق الله ، وامتنالاً لأمره ، ووفاء بحق صاحبه ، الذي رضى بأمانته ، ووثق به .

ومنها : تحريم كتم الشهادة ، وأن كاتمها قد أثم قلبه ، الذي هو ملك الأعضاء .

وذلك لأن كتمها ، كالشهادة بالباطل والزور ، فيها ضياع الحقوق ، وفساد المعاملات ، والإثم المتكرر في حقه ، وحق من عليه الحق . وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضراً وسفراً - فلأحاجة إليه ، لعدم الكاتب والشهيد .

وختم الآية بأنه « عليم » بكل ما يعمل به العباد ، كالترغيب ^(١) لهم في المعاملات الحسنة ، والترهيب من المعاملات السيئة .

(١) الصواب « للترغيب » لأن المقام مقام تعليل .

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي
أَنفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

يخبر تعالى ، بعموم ملكه لأهل السماء والأرض ، وإحاطة علمه بما أبداه
العباد ، وما أخفوه في أنفسهم ، وأنه سيحاسبهم به ، فيغفر لمن يشاء ، وهو
المنيب إلى ربه ، الأبواب إليه [إنه كان للأوابين غفورا] .

ويعذب من يشاء ، وهو المصير على المعاصي ، في باطنه وظاهره .
وهذه الآية ، لاتنافي الأحاديث الواردة في العفو ، عما حدث به العبد
نفسه ، ما لم يعمل أو يتكلم .
فتلك الخطرات هي التي تتحدث بها النفوس ، التي لا يتصف بها العبد
ولا يصمم عليها .

وأما هنا فهي العزائم المصممة ، والأوصاف الثابتة في النفوس ، أوصاف
الخير ، وأوصاف الشر ، ولهذا قال [ما في أنفسكم] أي : استقر فيها
وثبت ، من العزائم والأوصاف .

وأخبر أنه [على كل شيء قدير] فن تمام قدرته ، محاسبة الخلائق ،
وإيصال ما يستحقونه ، من الثواب والعقاب .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلْيَذَكِّرَنَّكُمْ بِاتِّقَاتِهِ ۖ فَتَكُونُونَ تَائِبِينَ عَنِ الْمُنكَارِ ۗ أَلَمْ تَكُونُوا أَقْبَرُ حَقِّقُوا فِي الدِّينِ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ أَخَذُوا أَمْرَهُمْ بَهْوَ الْحَدِيثِ ۚ إِنَّهُمْ ذُرِّيَةُ خَالِفَةٍ ۚ لَكُمْ فِي الْحَدِيثِ بُرْهَانٌ ۖ إِنَّهُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (٢٨٥)

ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن من قرأ هاتين الآيتين في ليالته كفتاه
أى : من جميع الشرور ، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة .

فإن الله أمر في أول هذه السورة ، الناس بالإيمان ، بجميع أصوله في
قوله : [قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا] الآية .

وأخبر في هذه الآية ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من
المؤمنين ، آمنوا بهذه الأصول العظيمة ، وبجميع الرسل ، وجميع الكتب .
ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض ، وكفر ببعض ، كحالة المنحرفين
من أهل الأديان المنحرفة .

وفي قرن المؤمنين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، والإخبار عنهم جميعاً
بمخبر واحد ، شرف عظيم للمؤمنين .

وفيه أنه صلى الله عليه وسلم مشارك للأمة في الخطاب الشرعى له ،
وقيامه التام به ، وأنه فاق المؤمنين بل فاق جميع الرساين في القيام بالإيمان
وحقوقه .

وقوله [وقالوا سمعنا وأطعنا] هذا التزام من المؤمنين ، عام لجميع ما جاء
به النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة ، وأنهم سمعوه سماع قبول
وإذعان وانقياد .

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أُكْتَسَبَتْ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا
كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ

ومضمون ذلك ، تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به ، وأن
الله يغفر لهم ما قصرُوا فيه من الواجبات ، وما ارتكبوه من المحرمات ،
وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة .

والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم فقال
« قد فعلت » .

فهذه الدعوات ، مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً ، ومن أفرادهم ،
إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد .

وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذه ، في الخطأ والنسيان ، وأن الله سهل
عليهم شرعه غاية التسهيل .

ولم يحملهم من المشاق ، والآصار ، والأغلال ، ما حمله على من قبلهم ،
ولم يحملهم فوق طاقتهم ، وقد غفر لهم ورحمهم ، ونصرهم على القوم
الكافرين .

فنسأل الله تعالى ، بأسمائه وصفاته ، وبما من به علينا من التزام دينه ،
أن يحقق لنا ذلك ، وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه ، وأن يصلح
أحوال المؤمنين .

ويؤخذ من هنا ، قاعدة التيسير ، ونفى الحرج في أمور الدين كلها .

وَأَعْفُ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ ، في العبادات ، وفي حقوق
الله تعالى .

وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم ، وتوجه الذم .

وأما وجوب ضمان المتلفات ، خطأ أو نسيانا ، في النفوس والأموال ،
فإنه مرتب على الإلتلاف بغير حق ، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان ،
والعمد .

تم تفسير سورة البقرة ، والله الحمد والثناء . وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وسلم .

تفسير

سُورَةُ الْعِمْرَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ﴾ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾
نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ

[الم] من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله .

فأخبر تعالى أنه [الحى] كامل الحياة [القيوم] القائم بنفسه ، المقيم
لأحوال خلقه .

وقد أقام أحوال الدينية ، وأحوال الدنيوية والقدرية .

فأنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب بالحق ، الذى لا ريب
فيه ، وهو مشتمل على الحق [مصدقاً لما بين يديه] من الكتب .

أى : شهد بما شهدت به ، ووافقها ، وصدق من جاء بها من المرسلين .

وكذلك [أنزل التوراة والإنجيل من قبل] هذا الكتاب

[هدى للناس] .

وأكمل الرسالة ، وختمها بمحمد صلى الله عليه وسلم [وكتابه العظيم

كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ
 الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

الذى هدى الله به الخلق ، من الضلالات ، واستنقذهم به من الجهالات ،
 وفرق به بين الحق والباطل ، والسعادة والشقاوة ، والصراط المستقيم ،
 وطرق الجحيم .

فالذين آمنوا به واهتدوا ، حصل لهم به ، الخير الكثير ، والثواب
 العاجل والآجل .

[و] أن الذين كفروا بآيات الله [التى بينها فى كتابه وعلى لسان رسوله
] لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام [من عصاه .

ومن تمام قيوميته تعالى ، أن علمه محيط بالخلائق [لا يخفى عليه شيء
 فى الأرض ولا فى السماء] حتى ما فى بطون الحوامل .

فهو [الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء] من ذكر وأنى ، وكامل
 الخلق وناقصه ، متنقلين فى أطوار خلقته وبديع حكمته .

فمن هذا شأنه مع عباده ، واعتناؤه العظيم بأحوالهم ، من حين أنشأهم
 إلى منتهى أمورهم ، لامشارك له فى ذلك — فيتعين أنه لا يستحق العبادة
 إلا هو .

[لا إله إلا هو العزيز] الذى قهر الخلائق بقوته ، واعتز عن أن
 يوصف بنقص أو ينعت بدم [الحكيم] فى خلقه وشرعه .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ
هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ
فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ

ينخر تعالى ، عن عظمته ، وكمال قيوميته ، أنه هو الذى تفرد بإنزال
هذا الكتاب العظيم ، الذى لم يوجد — ولن يوجد — له نظير أو مقارب
فى هدايته ، وبلاغته ، وإعجازه ، وإصلاحه للخلق .

وأن هذا الكتاب يحتوى على المحكم الواضح المعانى البين ، الذى
لا يشبهه بغيره .

ومنه آيات متشابهات ، تحمل بعض المعانى ، ولا يتعين منها واحد
من الاحتمالين بمجردا ، حتى تضم إلى المحكم .

فالذين فى قلوبهم مرض وزيف ، وانحراف ، لسوء قصدهم — يتبعون
المتشابه منه .

فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة ، وآرائهم الزائفة ، طلباً للفتنة ،
وتحريفاً لكتابها ، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا .

وأما أهل العلم الراسخون فيه ، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم ،
فأثمر لهم العمل والمعارف — فيعلمون أن القرآن كله من عند الله ، وأنه كله
حق ، محكمه ومتشابهه ، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف .

فأعلمهم أن المحكمات ، معناها فى غاية الصراحة والبيان ، يردون
إليها المشتبه ، الذى تحصل فيه الحيرة لناقص العلم ، وناقص المعرفة .

تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءِامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ
عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَزِغْ

فيردون المتشابه إلى المحكم ، فيعود كله محكما ، ويقولون :

[آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر] للأمور النافعة ، والعلوم
الصائبة [إلا أولو الأبواب] أى : أهل العقول الرزينة .

ففى هذا دليل على أن هذا ، من علامة أولى الأبواب ، وأن اتباع
المتشابه ، من أوصاف أهل الآراء السقيمة ، والعقول الواهية ، والقصود
السيئة .

وقوله [وما يعلم تأويله إلا الله] إن أريد بالتأويل ، معرفة عاقبة
الأمور ، وما تنتهى وتشول ، تعين الوقوف على « إلا الله » حيث هو
تعالى ، المتفرد بالتأويل بهذا المعنى ..

وإن أريد بالتأويل : معنى التفسير ، ومعرفة معنى الكلام ، كان
العطف أولى .

فيكون هذا مدحا للراسخين فى العلم ، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص
الكتاب والسنة ، محكمها ومتشابهها .

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين ، دعوا الله تعالى
أن يثبتهم على الإيمان فقاتلوا : [ربنا لا تزغ قلوبنا] أى لا تملها عن الحق
إلى الباطل .

قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ
الْوَهَّابُ ﴿٨﴾

[بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة] تصلح بها أحوالنا [إنك
أنت الوهاب] أى كثير الفضل والهبات .

وهذه الآية ، تصلح مثالا للطريقة ، التى يتعين سلوكها فى المتشابهات .
وذلك : أن الله تعالى ذكر عن الراسخين ، أنهم يسألونه أن لا يزيف
قلوبهم ، بعد إذ هدام .

وقد أخبر فى آيات أخر عن الأسباب التى بها تزيف قلوب أهل
الانحراف وأن ذلك بسبب كسبهم كقوله [فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم] ،
[ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم] .

[ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة] .

فالعبد إذا تولى عن ربه ، ووالى عدوه ، ورأى الحق ، فصدف عنه ،
ورأى الباطل ، فاختره - ولاه الله ماتولى لنفسه ، وأزاغ قلبه ، عقوبة له
على زيفه .

وما ظلمه الله ، ولكنه ظلم نفسه ، فلا يلم إلا نفسه الأماراة بالسوء .
والله أعلم .

﴿٩﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾
﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّابِ ۖ اِلٰ فِرْعَوْنَ
وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿١١﴾

* هذا من تنمة كلام الراسخين في العلم ، وهو يتضمن الإقرار بالبعث
والجزاء ، واليقين التام ، وأن الله ، لا بد أن يوقع ما وعد به .

وذلك يستلزم موجبه ومقتضاه ، من العمل والاستعداد لذلك اليوم .
فإن الإيمان بالبعث والجزاء ، أصل صلاح القلوب ، وأصل الرغبة في
الخير ، والرغبة من الشر ، اللذين هما أساس الخيرات .

* لما ذكر يوم القيامة ، ذكر أن جميع من كفر بالله ، وكذب رسل
الله ، لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها .

وأن أموالهم وأولادهم ، لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله .
وأنه سيجرى عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات ، ما جرى على
فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله [أخذهم الله بذنوبهم] وعجل لهم
العقوبات الدنيوية ، متصلة بالعقوبات الأخروية .

[والله شديد العقاب] فإياكم أن تستهونوا بعقابه ، فيهون عليكم
الإقامة على الكفر والتكذيب .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتَحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِیِ الثَّقَاتِ فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ
فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ
بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِی ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِی الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

وهذا خبر وبشرى للمؤمنين ، وتخويف للكافرين ، أنهم لابد أن
يغلبوا في هذه الدنيا .

وقد وقع كما أخبر الله ، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثيل ولا نظير .
وجعل الله تعالى ، ما وقع في « بدر » من آياته الدالة على صدق رسوله ،
وأنه على الحق ، وأعداءه على الباطل ، حيث التقت فئتان .
فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، مع قلة عددهم .
وفئة الكافرين ، يناهزون الألف ، مع استعدادهم التام في السلاح
وغيره .

فأيد الله المؤمنين بنصره ، فهزموهم بإذن الله .
ففي هذا عبرة لأهل البصائر .
فلولا أن هذا هو الحق الذى إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل
لسكان - بحسب الأسباب الحسية - الأمر بالعكس .

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ
وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ
وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ (١٤)
قُلْ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمُ الَّذِينَ أَتَقَوُا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥) ﴿

أخبر تعالى ، في هاتين الآيتين ، عن حالة الناس ، في إثثار الدنيا على
الآخرة - وبين التفاوت العظيم ، والفرق الجسيم بين الدارين .
فأخبر أن الناس ، زينت لهم هذه الأمور ، فرمتوها بالأبصار ،
واستحلوها بالقلوب ، وعكفت على لذاتها ، النفوس .
كل طائفة من الناس ، تميل إلى نوع من هذه الأنواع ، قد جعلوها
هي ، أكبر همهم ، ومبلغ علمهم ، وهي - مع هذا - متاع قليل ، منقضى في
مدة يسيرة .

فهذا [متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب] .
* ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله ، القائمين بعبوديته ، لهم خير من
هذه اللذات .

فلهم أصناف الخيرات ، والنعيم النقيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .
ولهم رضوان الله ، الذي هو أكبر من كل شيء .

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتَّةِينَ وَالْمُفْقِينَ
وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) ﴿

ولهم الأزواج المطهرة ، من كل آفة ونقص ، جميلات الأخلاق ،
كاملات الخلاق ، لأن النفي يستلزم ضده ،
فتطهرها عن الآفات ، مستلزم لوصفها بالكلمات .
[والله بصير بالعباد] فييسر كلا منهم لما خلق له .
أما أهل السعادة ، فييسرهم للعمل لتلك الدار الباقية ، ويأخذون
من هذه الحياة الدنيا ، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته .
وأما أهل الشقاوة والإعراض ، فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة ،
ويرضون بالحياة الدنيا ، ويطمنون بها ، ويتخذونها قرارا .

* أى : هؤلاء الراسخون في العلم ، أهل العلم والإيمان ، يتوسلون إلى
ربهم بإيمانهم ، لمغفرة ذنوبهم ، ووقايتهم عذاب النار ، وهذا من الوسائل
التي يحبها الله ، أن يتوسل العبد إلى ربه ، بما من به عليه من الإيمان
والأعمال الصالحة ، إلى تكميل نعم الله عليه ، بحصول الثواب الكامل ،
واندفاع العقاب .

ثم وصفهم بأجل الصفات : بالصبر الذي هو : حبس النفوس على ما يحبه
الله ، طلبا لمرضاته .

يصبرون على طاعة الله ، ويصبرون عن معاصيه ، ويصبرون على
أقداره المؤلمة .

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو

الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) ﴿

وبالصدق بالأقوال والأحوال ، وهو استواء الظاهر والباطن ، وصدق
العزيمة على سلوك الصراط المستقيم .

وبالقنوت الذى هو : دوام الطاعة ، مع مصاحبة الخشوع والخضوع .
وبالتفقات فى سبل الخيرات ، وعلى الفقراء ، وأهل الحاجات .
وبالاستغفار ، خصوصاً وقت الأسحار ، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت
السحر ، فجلسوا يستغفرون الله تعالى .

* هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم ، ومن الملائكة ، وأهل
العلم ، على أجل مشهود عليه ، وهو توحيد الله ، وقيامه بالقسط .

وذلك يتضمن الشهادة ، على جميع الشرع ، وجميع أحكام الجزاء .
فإن الشرع والدين ، أصله وقاعدته ، توحيد الله وإفراده بالعبودية ،
والاعتراف بانفراده ، بصفات العظمة والكبرياء ، والمجد ، والعز ، والقدرة ،
والجلال ، ونعوت الجود ، والبر والرحمة ، والإحسان ، والجمال وبكامله
المطلق الذى لا يحصى أحد من الخلق ، أن يحيطوا بشيء منه ، أو يبلغوه ،
أو يصلوا إلى الثناء عليه ، والعبادات الشرعية ، والمعاملات وتوابعها ،
والأمر والنهى ، كله عدل وقسط ، لا ظلم فيه ولا جور ، بوجه من الوجوه .
بل هو فى غاية الحكمة والإحكام .

والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة ، كله قسط وعدل .

[قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله] .

فتوحيد الله ، ودينه وجزاؤه ، قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه ، وهو أعظم الحقائق وأوضحها ، وقد أقام الله على ذلك من البراهين ، والأدلة ، ما لا يمكن إحصاؤه وعده .

وفي هذه الآية : فضيلة العلم والعلماء ، لأن الله خصهم بالذكور ، من دون البشر .

وقرن شهادتهم ، بشهادته وشهادة ملائكته .

وجعل شهادتهم ، من أكبر الأدلة والبراهين ، على توحيده ودينه وجزائه .

وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة .

وفي ضمن ذلك : تعديلهم ، وأن الخلق تبع لهم ، وأنهم ، هم الأئمة المتبوعون .

وفي هذا من الفضل والشرف ، وعلو المكانة ، ما لا يقادر قدره .

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩)

يخبر تعالى [أن الدين عند الله] أى : الدين الذى لا دين له سواه ،
ولا مقبول غيره ، هو [الإسلام] وهو : الاتقياء لله وحده ، ظاهراً
وباطناً ، بما شرعه على ألسنة رسله ، قال تعالى :

[ومن يتق غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من
الخاسرين] .

فن دان بغير دين الإسلام ، فهو لم يدين لله حقيقة ، لأنه لم يسلك
الطريق الذى شرعه على ألسنة رسله .

ثم أخبر تعالى ، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك ، وإنما اختلفوا ،
فانحرفوا عنه ، عناداً وبغياً .

وإلا فقد جاءهم العلم المقتضى لعدم الاختلاف ، الموجب لازوم
الدين الحقيقى .

ثم لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عرفوه حق المعرفة ، ولكن الحسد
والبنى والكفر بآيات الله ، هى التى صدتهم عن اتباع الحق .

[ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب] أى : فلينتظروا ذلك
فإنه آت ، وسيجزئهم الله بما كانوا يعملون .

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ
لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا
وإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠)

لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام ، وكان أهل الكتاب قد
شافهوا النبي صلى الله عليه وسلم بالمجادلة ، وقامت عليهم الحجة ، فعاندوها ،
أمره الله تعالى عند ذلك ، أن يقول ويعلن ، أنه أسلم وجهه أى : ظاهره
وباطنه ، لله ، وأن من اتبعه كذلك ، قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص .

وأن يقول للناس كلهم ، من أهل الكتاب ، والأميين أى : الذين
ليس لهم كتاب ، من العرب وغيرهم .

إن أسلمتم ، فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق .

وإن توليتم ، فحسابكم على الله ، وأنا ليس علي إلا البلاغ ، وقد
أبلغتكم ، وأقمت عليكم الحجة .

﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ
إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ

أى الذين جمعوا بين هذه الشرور : الكفر بآيات الله وتكذيب رسل
الله ، والجناية العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق ، وهم الرسل وأئمة
الهدى ، الذين يأمرُونَ الناس بالقسط ، الذى اتفقت عليه الأديان
والعقول :

فهؤلاء قد [حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة] واستحقوا العذاب
الآليم ، وليس لهم ناصر من عذاب الله ، ولا منقذ من عقوبته .

* أى : ألا تنظر وتعجب من هؤلاء [الذين أوتوا نصيباً من الكتاب]
و [يدعون إلى كتاب الله] الذى يصدق ما أنزله على رسله .

[ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون] عن اتباع الحق .

فكأنه قيل : أى داع دعاهم إلى هذا الإعراض ، وهم أحق بالاتباع ،
وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فذكر لذلك سببين :
أمنهم ، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة .

مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٥﴾

وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة حدودها بحسب أهوائهم الفاسدة ،
كأن تدبير الملك راجع إليهم ، حيث قالوا [لن يدخل الجنة إلا من كان هودا
أو نصارى] .

ومن المعلوم أن هذه أمانى باطلة ، شرعا وعقلا .

والسبب الثانى : أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه ، زين لهم
الشیطان سوء عملهم ، واغتروا بذلك ، وتراءى لهم أنه الحق ، عقوبة لهم على
إعراضهم عن الحق ، فهؤلاء كيف يكون حالهم ^(١) - إذا جمعهم الله يوم القيامة ،
ووفى العاممين ما عملوا ، وجرى عدل الله فى عباده ، فهناك لا تسأل عما يصلون
إليه من العقاب ، وما يفتوتهم من الخير والثواب ، وذلك بما كسبت أيديهم
« وما ربك بظلام للعبيد » .

(١) قوله (فهؤلاء يكون حالهم الخ) الاستفهام - هنا - للتحويل وحذف
خبر (يكون) ليدل على شدة ما يكونون عليه من الندم ، الذى لا يبلغ
الوصف مداه .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦) تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ

يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أصلاً ، وغيره تبعاً - أن يقول عن ربه ، معلناً بتفردِه بتصرفِ الأمور ، وتديرِ العالم العلوى والسفلى ، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق ، والتصرف المحكم ، وأنه يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .
فليس الأمر بأمانى أهل الكتاب ولا غيرهم ، بل الأمر أمر الله ، والتدبير له .

فليس له معارض في تديره ، ولا معاون في تقديره .
وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس ، فهو المتصرف بنفس الزمان .

وقوله [بيدك الخير] أى : الخير كله منك ، ولا يأتى بالحسنات والخيرات ، إلا الله .

وأما الشر فإنه لا يضاف إلى الله تعالى ، لا وصفاً ، ولا اسماً ، ولا فعلاً .
ولكنه يدخل في مفعولاته ، ويندرج في قضائه وقدره .

فالخير والشر ، كله داخل في القضاء والقدر ، فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه .

ولكن الشر لا يضاف إلى الله .

فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ
مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

فلا يقال « بيدك الخير والشر » ، بل يقال « بيدك الخير » كما قاله الله ،
وقاله رسوله .

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال « وكذلك الشر بيد الله »
فإنه وهم محض .

ملحظهم ، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر ، ينافي قضاءه وقدره
العام ، وجوابه ما فصلنا .

يولج النهار في الليل ويولج الليل في النهار ، أى : يدخل هذا على هذا ،
ويحل هذا محل هذا ، ويزيد في هذا ، ما ينقص من هذا ، ليقم بذلك مصالح خلقه .
ويخرج الحى من الميت ، كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها ،
والؤمن من الكافر ، والميت من الحى .

كما يخرج الحبوب والنوى ، والزروع والأشجار ، والبيضة من الطائر .
فهو الذى يخرج المتضادات ، بعضها من بعض ، وقد انقادت له جميع
العناصر .

وقوله [وترزق من تشاء بغير حساب] قد ذكر الله في غير هذه الآية ،
الأسباب التى ينال بها رزقه كقوله :

[ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب] .

[ومن يتوكل على الله فهو حسبه] .

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق ، إلا من الله ، ويسعوا فيه بالأسباب التى
يسرها الله وأباحها .

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ
تَقَةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨)

هذا نهى من الله ، وتحذير للمؤمنين ، أن يتخذوا الكافرين أولياء
من دون المؤمنين ، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والله وليهم .

[ومن يفعل ذلك] التولى [فليس من الله في شيء] أى : فهو برىء
من الله ، والله برىء منه كقوله تعالى [ومن يتولهم منهم فإنه منهم] .

وقوله : [إلا أن تتقوا منهم تقاة] أى : إلا أن تحافوا على أنفسكم
في إبداء العداوة للكافرين ، فلكم — في هذه الحال — الرخصة في المسالمة
والمهادنة ، لا في التولى الذى هو محبة القلب ، الذى تتبعه النصرة .

[ويحذركم الله نفسه] أى : يخافوه واخشوه ، وقدموا خشيته على خشية
الناس ، فإنه هو الذى يتولى شئون العباد ، وقد أخذ بنواصيهم وإليه يرجعون
وسيصيرون إليه .

فيجازى من قدم حقوقه ورجاءه ، على غيره ، بالثواب الجزيل .

ويعاقب الكافرين ، ومن تولاهم ، بالعذاب الويل .

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ
وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩)
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ
تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ
رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِمَا فِي الصُّدُورِ ، سواء أَخْفَاهُ الْعِبَادُ ، أَوْ أَبْدَوْهُ .
كَمَا أَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَلَا تُخْفِي عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .
وَمَعَ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ ، فَهُوَ الْعَظِيمُ الْقَدِيرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الَّذِي لَا يَمْتَنِعُ
عَنْ إِرَادَتِهِ مَوْجُودٌ .

وَلَمَّا ذَكَرَ لَهُمْ مِنْ عَظَمَتِهِ وَسِعَةِ أَوْصَافِهِ ، مَا يَوْجِبُ لِلْعِبَادِ أَنْ يَرِاقِبُوهُ
فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ ، ذَكَرَ لَهُمْ أَيْضًا ، دَاعِيًا آخَرَ إِلَى مِرَاقَبَتِهِ وَتَقْوَاهُ ، وَهُوَ :
أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ صَاحِبُونَ إِلَيْهِ ، وَأَعْمَالُهُمْ — حَيْثُذُ ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ — مُحَضَّرَةٌ .
لَحَيْثُذُ يَغْتَبِطُ أَهْلُ الْخَيْرِ ، بِمَا قَدَمُوهُ لَأَنْفُسِهِمْ ، وَيَتَحَسَّرُ أَهْلُ الشَّرِّ
إِذَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوهُ مُحَضَّرًا وَيُودُونَ أَنْ يَبِينَهُمْ وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا
فَإِذَا عَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّهُ سَاعٌ إِلَى رَبِّهِ ، وَكَادَحٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّهُ
لَا بُدَّ أَنْ يَلَاقِيَ رَبَّهُ ، وَيَلَاقِي سَعِيَهُ ، أَوْجِبَ لَهُ أَخْذَ الْحَذَرِ ، وَالتَّوَقُّقِ
مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَوْجِبُ النُّفُضِيحَةَ وَالْعُقُوبَةَ ، وَالِاسْتِعْدَادَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ،
الَّتِي تَوْجِبُ السَّعَادَةَ وَالثَّبُوتَ .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى [وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ] وَذَلِكَ بِمَا يَبْدِي لَكُمْ مِنْ أَوْصَافِ
عَظَمَتِهِ ، وَكُلِّ عَدْلِهِ وَشِدَّةِ نِكَالِهِ ، وَمَعَ شِدَّةِ عِقَابِهِ ، فَإِنَّهُ رَءُوفٌ رَحِيمٌ .

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ
وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

ومن رأفته ورحمته ، أنه خوف العباد ، وزجرهم عن الفى والفساد ،
كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات [ذلك يخوف الله به عباده ، يا عباد فاتقون]
فرأفته ورحمته ، سهلت لهم الطرق ، التى ينالون بها الخيرات .
ورأفته ورحمته ، حذرتهم من الطرق التى تفضى بهم إلى المكروهات .
فنسأله تعالى ، أن يتمم علينا إحسانه ، بسلوك الصراط المستقيم ، والسلامة
من الطرق ، التى تفضى بسالكها ، إلى الجحيم .
* هذه الآية هى الميزان ، التى يعرف بها من أحب الله حقيقة ، ومن ادعى
ذلك دعوى مجردة .

فعلامه محبة الله ، اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى جعل متابعته ،
وجميع ما يدعو إليه ، طريقاً إلى محبته ورضوانه .
فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه ، إلا بتصديق ما جاء به الرسول
من الكتاب والسنة وامتنثال أمرها ، واجتناب نهيهما .
فمن فعل ذلك ، أحبه الله ، وجازاه جزاء المحبين ، وغفر له ذنوبه ،
وستر عليه عيوبه .

فكانه قيل : ومع ذلك ، فما حقيقة اتباع الرسول وصفها ؟
فأجاب بقوله . [قل أطيعوا الله والرسول] بامتنثال الأمر ، واجتناب
النهى وتصديق الخبر .

[فإن تولوا] عن ذلك ، فهذا هو الكفر والله [لا يحب الكافرين] .

﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ
عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾
إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ
مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي

لله تعالى من عباده أصفياء ، يصطفاهم ويختارهم ، ويمن عليهم بالفضائل
العالية ، والنعوت السامية ، والعلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والخصائص
المتنوعة .

فذكر هذه البيوت الكبار ، وما احتوت عليه من كلمة الرجال ، الذين
حازوا أوصاف الكمال ، وأن الفضل والخير ، تسلسل في ذرايعهم وشمل
ذكورهم ونساءهم .

وهذا من أجل مننه وأفضل مواقع جوده وكرمه .

[والله سميع عليم] يعلم من يستحق الفضل والتفضيل ، فيضع فضله حيث
اقتضت حكمته .

فلما قرر عظمة هذه البيوت ، ذكر قصة مريم وابنها عيسى صلى الله عليه
وسلم ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة ، وكيف تنقلت بهما الأحوال ،
من ابتداء أمرها إلى آخره ، وأن امرأة عمران قالت - متضرعة إلى ربها ،
متقربة إليه بهذه القربة التي يحبها ، التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته :
[إني نذرت لك ما في بطني محرراً] أي : خادماً لبيت العبادة ،
المشحون بالمعبددين .

وَضَعْتُهَا أُتَيْتُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ وَلَيْسَ الذِّكْرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي
سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا
دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُيمُ أَنَّى

[فتقبل مني] هذا العمل أى : اجعله مؤسساً على الإيمان والإخلاص ،
منذراً للخير والثواب .

[إنك أنت السميع العليم . فلما وضعها قالت ربى إني وضعتها أنثى ،
والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأُنْثَى]

كان فى هذا الكلام ، نوع تضرع منها ، وانكسار نفس حيث كان
نذرها بناء على أنه يكون ذكراً ، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام
بذلك ، ما يحصل من أهل القوة ، والأُنْثَى بخلاف ذلك .

خبر الله قلبها ، وتقبل الله نذرها ، وصارت هذه الأُنْثَى ، أكمل وأتم
من كثير من الذكور ، بل من أكثرهم .

وحصل بها من النقايد ، أعظم مما يحصل بالذكور ، ولهذا قال :

[فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً] أى : ربيت تربية عجيبة ،
دينية ، أخلاقية ، أدبية كملت بها أحوالها ، وصلحت بها أقوالها وأفعالها ،
ونما فيها كلها ، ويسر الله لها زكريا كافلاً .

وهذا من منة الله على العبد ، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين
المصلحين .

لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَايِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ
يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ

ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكراها ، حيث يسر لمريم من الرزق
الحاصل بلا كد ولا تعب ، وإنما هو كرامة أكرمها الله به .

إذ [كلما دخل عليها زكراها المحراب] وهو محل العبادة .

وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها [وجد عندها رزقاً]
هينئاً معداً .

قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء
بغير حساب . [

فلما رأى ذكرها هذه الحال ، والبر والالطف من الله بها ، ذكره أن
يسأل الله تعالى حصول الولد ، على حين اليأس منه فقال :

[رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة
وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحیی مصدقاً بكلمة من الله]
اسمه أى : الكلمة التي من الله « عيسى بن مريم » :

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم ، تتضمن البشارة بـ « عيسى »
ابن مريم ، والتصديق له ، والشهادة له بالرسالة .

فهذه الكلمة من الله ، كلمة شريفة ، اختص الله بها عيسى بن مريم .

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذْكَرُ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْشِيِّ

وإلا ، فهى من جملة كلماته التى أوجد بها المخلوقات ، كما قال تعالى :
[إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون]
وقوله [وسيداً وحصوراً] .

أى : هذا البشر به وهو يحيى ، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم :
« والحصور » قيل : هو الذى لا يولد له ، ولا شهوة له فى النساء ،
وقيل : هو الذى عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة .
وهذا أليق المعنيين :

[ونبياً من الصالحين] الذين بلغوا فى الصلاح ذروته العالمة .
[قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟!] .
فهذان مانعان .

فمن أى طريق - يارب - يحصل لى ذلك ، مع ما ينافى ذلك ؟ ! .
[قال كذلك الله يفعل ما يشاء] فإنه - كما اقتضت حكمته جريان
الأمر بأسبابها المعروفة - فإنه قد يخرق ذلك ، لأنه الفعال لما يريد ،
الذى قد انقادت الأسباب لقدرته ، ونفذت فيها مشيئته وإرادته ، فلا يتعاصى
على قدرته ، شىء من الأسباب ، ولو بلغت فى القوة ، ما بلغت .

وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكُمْ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُكُمْ أَفْئَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُبْلَقُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

[قال رب اجعل لي آية] ليحصل السرور والاستبشار .

وإن كنت - يارب - متيقنا ما أخبرتني به ، ولكن النفس تفرح ، ويطمئن القلب ، إلى مقدمات الرحمة واللفظ .

[قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا] .

(و) في هذه المدة [اذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار] أول النهار وآخره .

فمنع من الكلام في هذه المدة ، فكان في هذا ، مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير ، والمرأة العاقر .

وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين ، ولسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه ، آية أخرى .

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار ، وشكر الله ، وأكثر من الذكر والتسبيح ، بالعشايا والأبكار .

وكان هذا المولود ، من بركات مريم بنت عمران ، على زكريا .

فإن ما من الله به عليها ، من ذلك الرزق الهني ، الذي يحصل بغير حساب ، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال .

وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا
 إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ
 وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ

والله تعالى هو المتفضل بالسبب والسبب ، ولكنه يقدر أموراً محبوبة
 على يد من يحبه ، ليرفع الله قدره ، ويعظم أجره .

ثم عاد تعالى ، إلى ذكر مريم وأنها بلغت في العبادة والكمال ، مبالغاً
 عظيماً فقال تعالى :

[وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك] أى اختارك ، ووهب
 لك من الصفات الجليلة ، والأخلاق الجميلة .

[وطهرتك] من الأخلاق الرذيلة [واصطفاك على نساء العالمين] .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل
 من النساء إلا مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ،
 وفضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر الطعام .

فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك ، لتغتبط بنعم الله ، وتشكر الله ،
 وتقوم بحقوقه ، وتشتغل بخدمته ، ولهذا قالت الملائكة .

[يا مريم اقنتي لربك] أى : أ كثرى من الطاعة ، والخضوع والخشوع
 لربك ، وأديبى ذلك [واسجدي واركعى مع الراكعين] أى : صلى مع
 المصلين .

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ

فقامت بكل ما أمرت به ، وبرزت ، وفاقت في كلها .

ولما كانت هذه القصة وغيرها ، من أكبر الأدلة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث أخبر بها مفصلة محققة ، لا زيادة فيها ولا نقص ، وما ذاك إلا لأنه وحى من الله العزيز الحكيم ، لا بتعلم من الناس — قال تعالى :

[ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم] حيث جاءت بها أمها ، فاختصموا أيهم يكفلها ، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم ، وكلهم يريد الخير والأجر من الله ؛ حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها ، فآلقوا أقلامهم مقترعين ، فأصابته القرعة زكريا ، رحمة من الله به وبها .

فأنت — يا أيها الرسول — لم تحضر تلك الحالة لتعرفها ، فتقصها على الناس ، وإنما الله نباك بها .

وهذا هو المقصود الأعظم ، من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة .
وأعظم العبر ، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة ، والبعث ، وغيرها من الأصول الكبار .

فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُبْرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى
يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُفْتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِحِلِّ لَكُمْ بِمَضِّ الدِّينِ حَرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ

[وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين] .
أى : له الوجاهة ، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق .
ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين ، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله ،
وأعلام درجة .

وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات .
ومن تمام هذه البشارة أنه [يكلم الناس في المهد] فيكون تكليمه آية
من آيات الله ، ورحمة منه بأمه وبالخلق ،
(و) كذلك يكلمهم [كهلا] أى في حال كهولته .
وهذا تكليم النبوة والدعوة ، والإرشاد .
فكلامه في المهد ، فيه آيات وبراهين ، على صدقه ، ونبوته ، وبراءة
أمه مما يظن بها من الظنون السيئة .

وكلامه في كهولته ، فيه نفعه العظيم للخلق ، وكونه واسطة بينهم
وبين ربهم ، في وحيه ، وتبليغ دينه وشرعه .
ومع ذلك فهو [من الصالحين] الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته
وحبه ، وألستهم ، بالثناء عليه وذكره ، وجوارحهم بطاعته وخدمته .

بَيَّاتَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ
الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ

[قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر] وهذا من الأمور
المستغربة [قال كذلك الله يخلق ما يشاء] ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير ،
وأنه لا ممانع لإرادته .

[إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب] .

أى : جنس الكتب السابقة ، والحكم بين الناس ، ويعطيه النبوة .
(و) يجعله [رسولا إلى بنى إسرائيل] ويؤيده بالآيات البينات ،
والأدلة القاهرة حيث قال :

[إني قد جئتكم بآية من ربكم] تدلهم أنى رسول الله حقاً .

وذلك [أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً
ياذن الله ، وأبرئ الأكمه] وهو مسح العينين ، الذى فقد بصره وعيناه
[والأبرص وأحيى الموتى ياذن الله وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون
فى بيوتكم ، إن فى ذلك] المذكور [لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما
لما بين يدى من التوراة] فأيده الله بجنسين من الآيات ، والبراهين والخوارق
المستغربة ، التى لا يمكن لغير الأنبياء ، الإتيان بها ، والرسالة والدعوة ،
والدين الذى جاء به ، وأنه دين التوراة ، ودين الأنبياء السابقين ، وهذا
أكبر الأدلة على صدق الصادقين .

ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا
الرَّسُولَ فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكَرَ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُكْرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ

فإنه لو كان من الكاذبين ، لخالف ما جاءت به الرسل ، ولناقضهم
في أصولهم وفروعهم .

فعلم بذلك أنه رسول الله ، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه .
وأيضاً فقوله [ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم] أى : لأخفف
عنكم بعض الآصار والأغلال .

[فاتقوا الله وأطيعون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه] .
وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل ، عبادة الله وحده لا شريك له ؛
وطاعتهم .

وهذا هو الصراط المستقيم ، الذى من يسلكه ، أوصله إلى جنات النعيم .
فحينئذ اختلفت أحزاب بنى إسرائيل فى عيسى .
فمنهم من آمن به واتبعه .

ومنهم من كفر به وكذبه ، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود .
[فلما أحس عيسى منهم الكفر] والاتفاق على رد دعوته [قال] : نادياً
لبنى إسرائيل على مؤازرته [من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون] .
أى : الأنصار :

[نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون] وهذا من منة الله

وَرَأَيْتُكَ إِلَى وَمُطَهَّرِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاءِلُ الَّذِينَ أَتَبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

عليهم ، وعلى عيسى ، حيث ألهم هؤلاء الحواريين ، الإيمان به ، والالتحاق
لطاعته ، والنصرة لرسوله .

[ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول] وهذا التزام تام للإيمان ،
بكل ما أنزل الله ، ولطاعة رسوله .

[فاكتبنا مع الشاهدين] لك بالوحدانية ، ولنبيك بالرسالة ، ولدينك
بالحق والصدق .

[ولما أحس عيسى منهم الكفر] وهم جمهور بنى إسرائيل ، فإنهم
[مكروا] بعيسى [ومكر الله] بهم [والله خير الماكرين] .

فاتفقوا على قتله وصلبه ، وشبه لهم عيسى .

فقبضوا على من شبه لهم به وقال الله لعيسى [إني متوفيك ورافعك
إلى ومطهرك من الذين كفروا] .

فرفعه الله إليه ، وطهره من الذين كفروا ، وصلبوا من قتلوه ، طائفة
أنه عيسى ، وباءوا بالإثم العظيم .

وسينزل عيسى بن مريم ، في آخر هذه الأمة حكما عدلا ، يقتل الخنزير ،
ويكسر الصليب ، ويتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم ، وأنهم مغرورون مخدوعون .

﴿٥٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٧﴾

وقوله [وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة] المراد بمن اتبعه : الطائفة التي آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه. ثم لما جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانوا هم أتباعه حقاً ، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم ، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم [وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض] الآية .

ولكن حكمة الله عادلة ، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين ، نصره الله النصر المبين .

وأن من ترك أمره ونهيه ، ونبذ شرعه ، وتجراً على معاصيه ، أن يعاقبه ويسلط عليه الأعداء ، [والله عزيز حكيم] .

وقوله [ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون] . ثم بين ما يفعله بهم فقال : [فأما الذين كفروا] الآيتين .

* وهذا الجزء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف ، من جميع أهل الأديان السابقة .

ثم لما بعث سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، ونسخت رسالته ، الرسالات كلها ، ونسخ دينه ، جميع الأديان ، صار المتمسك بغير هذا الدين ، من الهالكين . وقوله تعالى [ذلك نتلوه عليك] الآية .

﴿٥٨﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ

الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

﴿٥٩﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ

ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ أُلْحِقْ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِّنَ

الْمُتَمَرِّينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ

أى : هذا القرآن العظيم ، الذى فيه نبأ الأولين والآخريين ، والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات ، وهو الذى يذكر العباد كل ما يحتاجونه ، وهو الحكيم المحكم ، صادق الأخبار ، حسن الأحكام .

* لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأها الحق وأنه عبد أنعم الله عليه ، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية ، فقد كذب على الله ، وكذب جميع أنبيائه ، وكذب عيسى صلى الله عليه وسلم .

فإن الشبهة التى عرضت لمن اتخذها إلهاً ، شبهة باطلة .

فلو كان لها وجه صحيح ، لكان آدم أحق منه ، فإنه خلق من دون أم ولا أب .

ومع ذلك ، فاتفق البشر كلهم ، على أنه عبد من عباد الله .

فدعوى إلهية عيسى ، بكونه خلق من أم بلا أب ، دعوى من أبطال الدعاوى .

وهذا هو الحق الذى لا ريب فيه ، أن عيسى - كما قال عن نفسه :

[ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم] .

تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ
الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾
﴿٦٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، وقد تصلبوا
على باطلهم ، بعدما أقام عليهم النبي صلى الله عليه وسلم البراهين ، بأن عيسى
عبد الله ورسوله ، حيث زعموا إلهيته .

فوصلت به وبهم الحال ، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم .
فإنه قد اتضح لهم الحق ، ولكن العناد والتعصب منعاهم منه .
فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة ، بأن يحضر هو وأهله
وأبنائوه ، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم ، ثم يدعون الله تعالى ، أن ينزل
عقوبته ولعنته ، على الكاذبين . فتشاوروا ، هل يجيبونه إلى ذلك ؟
فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه ، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً .
وأنهم - إن باهلوه - هلكوا ، هم وأولادهم وأهلهم .
فصالحوه ، وبذلوا له الجزية ، وطلبوا منه المودة والمهادنة .
فأجابهم صلى الله عليه وسلم ولم يرحبهم ، لأنه حصل المقصود من
وضوح الحق .

وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة ، وذلك يبرهن على
أنهم كانوا ظالمين .

* فإن أعرضوا عن الحق بعد ما تبين لهم ، ولم يرجعوا عن ضلالاتهم ،
فهم المفسدون ، والله عليم بهم .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤)

ولهذا قال تعالى [إن هذا هو القصص الحق] أى : الذى لا ريب فيه
[وإن الله هو العزيز] الذى قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات ، وأذعنت
له سكان الأرض والسموات .

ومع ذلك فهو [الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها
منازلها .

* هذه الآية الكريمة ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يكتب بها إلى ملوك
أهل الكتاب .

وكان يقرأ أحياناً فى الركعة الأولى من سنة الفجر [قولوا آمنا بالله] الآية .
ويقرأ بها فى الركعة الآخرة من سنة الصبح ، لاشتمالها على الدعوة إلى
دين واحد ، قد اتفقت عليه الأنبياء والمرسلون ، واحتوت على توحيد
الإلهية ، المبني على عبادة الله وحده ، لاشريك له ، وأن يعتقد أن البشر
وجميع الخلق كلهم فى طور البشرية ، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص
الربوبية ، ولا من نعوت الإلهية .

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا ، فقد اهتمدوا .

و [إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون] كقوله تعالى [قل يا أيها
الكافرون] إلى آخرها .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتْ
 التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَآأَنْتُمْ
 هَآؤُلَآءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ
 بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا
 وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾
 إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

كانت الأديان كلها ، اليهود والنصارى ، والمشركون ، وكذلك
 المسلمون كلهم ، يدعون أنهم على ملة إبراهيم .
 فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به ، محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه ،
 وأتباع الخليل ، قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما اليهود والنصارى ، والمشركون ، فإبراهيم برىء منهم ، ومن
 ولايتهم ، لأن دينه ، الحنيفية السمحة ، التي فيها الإيمان بجميع الرسل ، وجميع
 الكتب ، وهذه خصيصة المسلمين .

وأما دعوى اليهود والنصارى ، أنهم على ملة إبراهيم ، فقد علم أن
 اليهودية والنصرانية ، التي هم يدعون أنهم عليها ، لم تؤسس إلا بعد
 الخليل .

فكيف يحاجون في هذا الأمر ، الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم ؟!

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَسْأَلُ الْكِتَابَ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَسْأَلُ الْكِتَابَ لِمَ
تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾
وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ

فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم ، فكيف يحتاجون في هذه الحالة ؟
فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان ، يعلم فساد دعواهم .
وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان ان يقول أو يجادل
فيما لا علم له به .

وقوله [والله ولي المؤمنين] فكلمة قوى إيمان العبد ، تولاه الله بلطفه ،
ويسره لليسرى ، وجنبه العسرى .

* هذا من منة الله على هذه الأمة ، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل
الكتاب ، وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المنكرات
الخبثية .

فقال طائفة منهم [آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار]
أى : أوله ، وارجعوا عن دينهم آخر النهار ، فإنهم - إذا رأوكم راجعين ،
وهم يعتقدون فيكم العلم - استرابوا بدينهم .

وقالوا : لولا أنهم رأوا فيه مالا يعجبهم ، ولا يوافق الكتب السابقة ،
لم يرجعوا .

ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَءَاكْفُرُوا ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن
يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ
بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

هذا مكرم ، والله تعالى هو الذى يهدى من يشاء ، وهو الذى بيده
الفضل ، يختص به من يشاء .

فخصكم — يا هذه الأمة — بما لم يخص به غيركم .
ولم يدر هؤلاء الماكرون ، أن دين الله حق ، إذا وصلت حقيقته إلى
القلوب ، لم يزد صاحبها — على طول المدى — إلا إيماننا و يقينا .
ولم تزد الشبه ، إلا تمسكاً بدينه ، وحمداً لله ، وثناء عليه حيث من
به عليه .

وقولهم [أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم] .
يعنى : أن الذى حملهم على هذه الأعمال المنكرة ، الحسد والبغى ، وخشية
الاحتجاج عليهم .

كما قال تعالى [ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم
كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق] الآية .

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ
إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ
قَاعًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى
فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن أهل الكتاب ، أن منهم طائفة أمانة ، بحيث لو أمنتهم
على قناطير من النقود ، وهى للمال الكثير ، يؤده إليك ، ومنهم طائفة خونة ،
يخونك فى أقل القليل .

ومع هذه الخيانة الشنيعة ، فإنهم يتأولون بالأعذار الباطلة فيقولون :
[ليس علينا فى الأميين سبيل] أى : ليس علينا جناح إذا خانهم
واستبجنأ أموالهم ، لأنهم لا حرمة لهم .
قال تعالى : [ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون] أن عليهم
أشد الحرج .

فجمعوا بين الخيانة ، وبين احتقار العرب ، وبين الكذب على الله ،
وهم يعلمون ذلك ، ليسوا كمن فعل ذلك جهلا وضلالا .

ثم قال تعالى : [بلى] أى ليس الأمر كما قالوا .
فإنه [من أوفى بعهده واتقى] أى : قام بحقوق الله وحقوق خلقه ، فإن هذا
هو المتقى ، والله يحبه .

أى : ومن كان بخلاف ذلك ، فلم يف بعهده وعقوده ، التى بينه وبين
الخلق ، ولا قام بتقوى الله ، فإن الله يمقته . وسيجازيه على ذلك أعظم النكال .

﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿٧٨﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾

أى : إن الذين يشترون الدنيا بالدين ، فيختارون الحطام القليل من
الدنيا ، ويتوسلون إليها بالأيمان الكاذبة ، والعهود المنكوبة ، فهؤلاء
[لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم]
أى : قد حق عليهم سخط الله ، ووجب عليهم عقابه ، وحرموا ثوابه ، ومنعوا
من التزكية ، وهى : التطهير .

بل يردون القيامة ، وهم متلوثون بالجرائم ، متدنسون بالذنوب العظام .

* أى : وإن من أهل الكتاب فريقاً ، هم محرفون لكتاب الله .

[يلون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب] وهذا يشمل
التحريف اللفظي ، والتحريف المعنوي ، .

ثم هم — مع هذا التحريف الشنيع — يوهمون أنه من الكتاب ، وهم
كذبة فى ذلك ، ويصرحون بالكذب على الله ، وهم يعلمون حالهم ، وسوء
مغبتهم .

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا
رَبِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَامُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩)
وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ
بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

أى : يتمتع ويستحيل كل الاستحالة ، لبشر من الله عليه بالوحي
والكتاب ، والنبوّة ، وأعطاه الحكم الشرعى — أن يأمر الناس بعبادته ،
وبعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أربابا ، لأن هذا هو الكفر ، فكيف ،
وقد بعث بالإسلام المنافى للكفر من كل وجه ، فكيف يأمر بضده ؟ !!

هذا من المتمتع ، لأن حاله وما هو عليه ، وما من الله به عليه من الفضائل
والخصائص — تقتضى العبودية الكاملة ، والخضوع التام لله الواحد القهار .

وهذا جواب لوفد نجران ، حين تمادى بهم الغرور ، ووصلت بهم الحال
والكبر ، أن قالوا : أئامنّا — يا محمد — أن نعبدك ؟ حين أمرهم بعبادة
الله وطاعته .

فبين البارى ، انتفاء ما قالوا ، وأن كلامهم وكلام أمثالهم ، فى هذا ،
ظاهر البطلان .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ
قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

هذا إخبار منه تعالى ، أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم ، بسبب
ما أعطاهم ومن به عليهم ، من الكتاب والحكمة ، المكتفى للقيام التام ،
بحق الله وتوفيقه .

أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم ، بما بعثوا به من التوحيد والحق
والقسط ، والأصول التي اتفقت عليها الشرائع ، أنهم يؤمنون به وينصرونه .
فأقروا على ذلك ، واعترفوا ، والتزموا ، وأشهدهم ، وشهد عليهم ،
وتوعد من خالف هذا الميثاق .

وهذا أمر عام بين الأنبياء ، أن جميعهم طريقتهم واحد ، وأن دعوة كل
واحد منهم ، قد اتفقوا وتعاقدوا عليها .

وعموم ذلك ، أنه أخذ على جميعهم الميثاق ، بالإيمان ، والنصرة لحمد
صلى الله عليه وسلم .

فمن ادعى أنه من أتباعهم ، فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم ، وأقروا
به واعترفوا .

فمن تولى عن اتباع محمد ، ممن يزعم أنه من أتباعهم ، فإنه فاسق خارج

﴿٨٣﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا
فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

عن طاعة الله ، مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه ، مخالف لطريقه .
وفي هذا إقامة الحجة والبرهان ، على كل من لم يؤمن بمحمد صلى الله
عليه وسلم من أهل الكتب والأديان .

وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلمهم ، الذين يزعمون أنهم أتباعهم ، حتى
يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ، صلى الله عليه وسلم .

* قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي
أمر الله بها هذه الأمة ، قد انفتحت عليها الكتب والرسول .

وأنها هي الغرض الموجه لكل أحد ، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي .
وأن من ابتغى غيرها ، فعمله مردود ، وليس له دين يعول عليه .

فمن زهد عنه ، ورغب عنه ، فأين يذهب ؟ .

إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران ؟ .

أو إلى اتخاذ الأحرار والرهبان والصلبان ؟ .

أو إلى التعطيل لرب العالمين ؟ .

أو إلى الأديان الباطلة ، التي هي من وحى الشياطين ؟

﴿٨٦﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا
أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾
أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ

وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين .

* معنى : أنه يبعد كل البعد ، أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان ،
ودخلوا فيه ، وشهدوا أن الرسول حق ، ثم ارتدوا على أعقابهم ، ناكسين
ناكثين .

لأنهم عرفوا الحق فرفضوه .

ولأن من هذه الحالة وصفه ، فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب
جزاء له ، إذ عرف الحق فتركه ، والباطل فآثره ، فولاه الله ما تولى
لنفسه .

فهؤلاء [عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين] خالدين في اللعنة
والعذاب .

[لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون] إذا جاءهم أمر الله لأن الله ،
عمرهم ما يقدر فيه من تذكر ، وجاءهم النذير .

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد ، القائمين من كفرهم وذنوبهم ،
المصالحين لعيوبهم ، فإن الله يغفر لهم ما قدموه ، ويعفو عنهم ما أسلفوه .

غُفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا
كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلءُ الْأَرْضِ
ذَهَبًا وَلَوْ أَقْدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾

لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا
مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

ولكن من كفر وأصر على كفره ، ولم يزد إلا كفرا حتى مات
على كفره .

فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى ، السالكون لطريق الشقاء .
وقد استحقوا بهذا ، العذاب الأليم ، فليس لهم ناصر من عذاب الله .
ولو بذلوا ملء الأرض ذهبا ليفتدوا به ، لم ينفعهم شيئا .
فعياذا بالله ، من الكفر وفروعه .

* معنى : لن تنالوا وتدرکوا البر ، الذى هو : اسم جامع للخيرات ، وهو
الطريق الموصل إلى الجنة حتى تنفقوا مما تحبون ، من أطيب أموالكم
وأزكاها .

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس ، من أكبر الأدلة على سماحة
النفس ، واتصافها بمكارم الأخلاق ، ورحمتها ، ورقتها .

ومن أول الدلائل على محبة الله ، وتقديم محبته على محبة الأموال ،
التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها .

فمن آثر محبة الله على محبة نفسه ، فقد بلغ الذروة العليا من السكال .
وكذلك من أنفق الطيبات ، وأحسن إلى عباد الله ، أحسن الله إليه
ووقفه أعمالاً وأخلاقاً ، لا تحصل بدون هذه الحالة .

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه ، كان قيامه ببقية الأعمال
الصالحة والأخلاق الفاضلة ، من طريق الأولى والأخرى .
ومع أن النفقة من الطيبات ، هي أكمل الحالات .

فهما أنفق العبد ، من نفقة قليلة أو كثيرة ، من طيب أو غيره ، فإن
الله به عليم .

وسيجزى كل منفق ، بحسب عمله ، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل ،
وفي الآخرة بالنعيم الآجل .

﴿٩٣﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ
فَأَتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٥﴾

من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوّة عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، أنهم زعموا أن النسخ باطل وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله .

فكذبهم الله بأمر يعرفونه ، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالاً لبني إسرائيل ، إلا أشياء يسيرة حرّمها إسرائيل وهو : يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه .

ثم إن التوراة ، فيها من التحريمات التي نسخت ، ما كان حلالاً قبل ذلك ، شيء كثير .

قل لهم - إن أنكروا ذلك - [فأتوا بالتوراة فأتلوها إن كنتم صادقين] بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم .

وهذا من أبلغ الحجج ، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره .

فإن انقاد للحق ، فهو الواجب .

وإن أبى ولم ينتد بعد هذا البيان ، تبين كذبه وافتراؤه ، وظلمه وبطلان ما هو عليه ، وهو الواقع من اليهود .

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٥)

أى : قل صدق الله فى كل ما قاله ، ومن أصدق من الله قبلا وحديثاً .

وقد بين فى هذه الآيات ، من الأدلة على صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبراهين دعوته ، وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب ، الذين كذبوا رسوله ، وردوا دعوته .

فقد صدق الله فى ذلك ، وأقنع عباده على ذلك ، ببراهين وحجج ، تقصدع لها الجبال ، وتخضع لها الرجال .

فتعين عند ذلك على الناس كلهم ، اتباع ملة إبراهيم ، من توحيد الله وحده لا شريك له ، وتصديق كل رسول أرسله الله ، وكل كتاب أنزله .

والإعراض^(١) عن الأديان الباطلة المنحرفة .

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد ، متبرئاً من الشرك وأهله .

(١) قوله (الإعراض) معطوف على قول المتقدم (اتباع) .

﴿٩٦﴾ إِنَّ أَوَّلَ نَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَيْكَةِ مُبَارَكًا
وَهَدَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ يَتَذَكَّرُ لَهَا إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ
كَانَ إِيمَانًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام ، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته ، وإقامة ذكره ، وأن فيه من البركات ، وأنواع الهدايات ، وتنوع المصالح والمنافع للعالمين — شيء كثير ، وفضل غزير ، وأن فيه آيات بينات ، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل ، وتنقلاته في الحج .
ومن بعده ، تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم .
وفيه الحرم الذي من دخله كان آمناً قدراً ، مؤمناً شرعاً ودينياً .
فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها ، وتكثر تفصيلاتها — أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً ، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأى مركوب يناسبه ، وزاد يتزوده .
ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكن تطبيقه على جميع الركوبات الحادثة ، والتي ستحدث .

وهذا من آيات القرآن ، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال ، ولا يمكن الصلاح التام بدونها .

فمن أذعن لذلك وقام به ، فهو من المهتدين المؤمنين .
ومن كفر ، فلم يلتزم حج بيته ، فهو خارج عن الدين .
ومن كفر ، فإن الله غني عن العالمين .

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ
أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠) وَكَيْفَ

* لما أقام فيما تقدم ، الحجج على أهل الكتاب — فمع أنهم قبل ذلك ،
يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم — ونج المعاندين منهم
بكفرهم بآيات الله ، وصدّهم الخلق عن سبيل الله ، لأن عوامهم تبع لعلمائهم .
والله تعالى ، يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه .
لما أقام الحجج على أهل الكتاب ، ووجههم بكفرهم وعنادهم .
حذر عباده المؤمنين عن الاعتراض بهم ، وبين لهم أن هذا الفريق منهم ،
حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان .

ولكن — والله الحمد — أنتم — يامعشر المؤمنين — بعد ما من الله عليكم
بالدين ، ورأيت آياته ومحاسنه ، ومناقبه وفضائله ، وفيكم رسول الله الذي
أرشدكم إلى جميع مصالحكم ، واعتصم بالله وبجبله ، الذي هو دينه —
يستحيل أن يردوكم عن دينكم ، لأن الدين الذي بنى على هذه الأصول
والدعائم الثابتة الأساس ، للمشرقة الأنوار ، تنجذب إليه الأفئدة ، ويأخذ
بمجامع القلوب ، ويوصل العباد إلى أجل غاية ، وأفضل مطلوب .

تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

[ومن يعتصم بالله] أى : يتوكل عليه ، ويحتسى بحماه .

[فقد هدى إلى صراط مستقيم] وهذا فيه الحث على الاعتصام به ، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية .

* [هذه الآيات ، فيها حث الله عباده المؤمنين ، أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة ، بأن يتقوه حق تقواه ، وأن يقوموا بطاعته ، وترك معصيته ، مخلصين له بذلك .

وأن يقيموا دينهم ، ويستمسكوا بحبله الذى أوصله إليهم ، وجعله السبب بينهم وبينه ، وهو دينه وكتابه ، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق . وأن يستديموا ذلك إلى المات .

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة ، وهو : أنهم كانوا أعداء متفرقين . فجمعهم بهذا الدين ، وألف بين قلوبهم ، وجعلهم إخوانا ، وكانوا على شفا حفرة من النار ، فأقذهم من الشقاء . ونهج بهم طريق السعادة .

فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم
مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾
وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعَمْرِوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

[كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون] إلى شكر الله والتمسك بحبله .
وأمرهم بتتبع هذه الحالة ، والسبب الأقوى الذى يتهكمون به من إقامة
دينهم ، بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية .
[يدعون إلى الخير] وهو الدين ، أصوله ، وفروعه ، وشرائعه .
[ويأمرون بالمعروف] وهو ماعرف حسنه شرعا وعقلا .
[وينهون عن المنكر] وهو ماعرف قبحه ، شرعا وعقلا .
[أولئك هم المفلحون] المدركون لكل مطلوب ، الناجون من
كل مرهوب .

ويدخل فى هذه الطائفة ، أهل العلم والتعليم ، والمتصدون للخطابة ووعظ
الناس ، عموما وخصوصاً ، والمتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة
الصلوات ، وإيتاء الزكاة ، والقيام بشرائع الدين ، وينهونهم عن المنكرات .
فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم ، أو على وجه الخصوص ،
أو قام بنصيحة عامة أو خاصة ، فإنه داخل فى هذه الآية الكريمة .

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ
وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ﴾ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أُبَيِّضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين ، الذين جاءهم الدين والبينات ،
الموجب لقيامهم به ، واجتماعهم ، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعاً .

ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال ، وإنما صدر عن علم وقصد سيء ،
ونبغي من بعضهم على بعض . ولهذا قال [وأولئك لهم عذاب عظيم] .

ثم بين متى يكون هذا العذاب العظيم ، ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال :
[يوم تبيض وجوه وتسود وجوه] الآيتين .

يخبر تعالى ، بتفاوت الخلق يوم القيامة ، في السعادة والشقاوة .
وأنة تبيض وجوه أهل السعادة ، الذين آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ،
وامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه .

وأن الله تعالى ، يدخلهم الجنات ، ويفيض عليهم أنواع السكرامات ،
وهم فيها خالدون .

وتسود وجوه أهل الشقاوة ، الذين كذبوا رسله ، وعصوا أمره ،
وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يوبخون فيقال لهم [أ كفرتم بعد إيمانكم]
فكيف اخترتم الكفر على الإيمان ؟!

[فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون] .

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ
ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

يثنى تعالى ، على ما قصه على نبيه من آياته ، التي حصل بها الفرقان بين
الحق والباطل ، وبين أولياء الله وأعدائه ، وما أعد لهؤلاء من الثواب ،
وللآخرين من العقاب .

وأن ذلك مقتضى فضله وعدله ، وحكمته .

وأنه لم يظلم عباده ، ولم ينقصهم من أعمالهم ، أو يعذب أحداً بغير ذنبه ،
أو يحمل عليه وزر غيره .

ولما ذكر أن له الأمر والشرع ، ذكر أن له تمام الملك والتصرف
والسلطان فقال :

[ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور] فيجازى
المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم .

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجمعة ليبين لعباده أنه الحاكم
المطلق ، فله الأحكام القدريّة والأحكام الشرعية ، والأحكام الجزائية .

فهو الحاكم بين عباده ، في الدنيا والآخرة .

ومن سواه من المخلوقات ، محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء .

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٠)
لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ
لَا يَنْصُرُونَ﴾ (١١١) ﴿

هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب ، التي تميزوا بهذا وفاقوا
بها سائر الأمم ، وأنهم خير الناس للناس ، نصحاء ، ومحبة للخير ، ودعوة ،
وتعلما ، وإرشادا ، وأمرأ بالمعروف ، ونهيا عن المنكر ، وجعاً بين تكميل
الخلق ، والسعى في منافعهم ، بحسب الإمكان ، وبين تكميل النفس بالإيمان
بالله ، والقيام بحقوق الإيمان .

وأن أهل الكتاب ، لو آمنوا بتثل ما آمنتم به ، لاهتدوا وكان
خيراً لهم .

ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل .

وأما الكثير ، فهم فاسقون ، خارجون عن طاعة الله ، وطاعة رسوله ،
محاربون للمؤمنين ، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم .

ومع ذلك ، فلن يضرؤا المؤمنين إلا أذى باللسان .

وإلا ، فلو قاتلوهم ، لولوا الأدبار ، ثم لا ينصرون .

وقد وقع ما أخبر الله به .

فإنهم لما قاتلوا المسلمين ، ولوا الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم .

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢)

هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة ، فهم خائفون أينما ثقفوا .

ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة ، وسبب يأمنون به ، يرضخون لأحكام الإسلام ، ويعترفون بالجزية .

أو [بحبل من الناس] أى : إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم ، كما شوهد حالهم سابقاً ولاحقاً .

فإنهم لم يتمكنوا فى الوقت الأخير من الملك المؤقت فى فلسطين ، إلا بنصر الدول الكبرى ، وتمهيدها لهم كل سبب .

[وباءوا بغضب من الله] أى : قد غضب الله عليهم ، وعاقبهم بالذلة والمسكنة .

والسبب فى ذلك ، كفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق .

أى : ليس ذلك عن جهل ، وإنما هو بغى وعناد .

تلك العقوبات المتنوعة عليهم [بما عصوا وكانوا يعتدون] .

فإنه تعالى ، لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب .

وإنما الذى أجراه عليهم بسبب بغيهم وعدوانهم ، وكفرهم وتكذيبهم

لرسل ، وجنایاتهم الفظيعة .

لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ
 آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ
 فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
 فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب ، بين حالة المستقيمين منهم ،
 وأن منهم أمة متقيمين لأصول الدين وفروعه .
 [يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف] وهو الخير كله ،
 وينهون عن المنكر وهو جميع الشر .

كما قال تعالى [ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون] .
 و [يسارعون في الخيرات] والمسارة إلى الخيرات ، قدر زائد على
 مجرد فعلها .

فهو وصف لهم بفعل الخيرات ، والمبادرة إليها ، وتكملها بكل ماتم به
 من واجب ومستحب .

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه ، من خير ، قليل أو كثير ، فإن الله
 سيقبله ، حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص .

[فلن يكفروه] يعني : لن ينكر ما فعلوه ، ولن يهدر .

[والله عليم بالمتقين] وهم الذين قاموا بالخيرات ، وتركوا المحرمات ،
 لقصد رضا الله ، وطلب ثوابه .

﴿١١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
 مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ
 مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
 حَرَّتِ قَوْمَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ
 أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٧﴾

بين تعالى : أن الكفار ، والذين كفروا بآيات الله ، وكذبوا رسله ،
 أنه لا ينقذهم من عذاب الله منقذ ، ولا ينفعهم نافع ، ولا يشفع لهم عند
 الله شافع .

وأن أموالهم وأولادهم ، التي كانوا يعدونها للشدائد والملكاه ،
 لا تنفد شئاً .

وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا ، لنصر باطلهم ، ستضمحل .

وأن مثلها [كمثل] حرث أصابته [ريح] شديدة [فيها صر]
 أى : برد شديد ، أو نار محرقة ، فأهلك ذلك الحرث ، وذلك بظلمهم فلم
 يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب ، وإنما ظلموا أنفسهم .

وهذه كقوله تعالى [إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل
 الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآئِتُمْ أَوْلَاء تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُوكُمُ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ

هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار ، واتخاذهم بطانة ، أو خصيصة وأصدقاء ، يسرون إليهم ، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين .
فوضح لعباده المؤمنين ، الأمور الموجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألونكم خبالا .

أى : هم حريصون غير مقصرين ، فى إيصال الضرر بكم ، وقد بدت البغضاء من كلامهم ، وفلمات ألسنتهم ، وما تخفيه صدورهم ، من البغضاء والعداوة ، أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم .

فإن كانت لكم ، فهم وعقول ، فقد وضع الله لكم أمرهم .
وأيضاً فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة ، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم فى الدين وفى مقابلة إحسانكم ؟ .

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل ، تؤمنون بكل رسول أرسله الله ، وبكل كتاب أنزله الله .

وهم يكفرون بأجل الكتب ، وأشرف الرسل ، وأنتم تبدلون لهم من الشفقة والمحبة ، ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه .

الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الْصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنَّ تَمَسَّنْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ
يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

فكيف تحبونهم ، وهم لا يحبونكم ، وهم يداهنونكم وينافقونكم .
فإذا لقوكم ، قالوا : آمنا ، وإذا خلوا مع بنى جنسهم ، عضوا عليكم
الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم .
قال تعالى [قل موتوا بغيظكم] أى : سترون من عز الإسلام وذل
الكفر ، ما يسوءكم ، وتموتون بغيظكم ، فلن تدركو اشفاء ذلك بما تقصدون .
[إن الله عليم بذات الصدور] فلذلك بين لعباده المؤمنين ، ما تنطوى
عليه صدور أعداء الدين من الكفار والنافقين .
[إن تمسكم حسنة] عز ونصر وعافية وخير [تسؤهم ، وإن تصيبكم
سيئة] من إدالة العدو ، أو حصول بعض المصائب الدنيوية [يفرحوا بها] .
وهذا وصف العدو الشديدة عداوته .
لما بين تعالى شدة عداوتهم ، وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة ،
أمر عباده المؤمنين بالصبر ، ولزوم التقوى .
وأنهم إذا قاموا بذلك ، فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً ، فإن الله
محيط بهم وبأعمالهم وبمكائدهم ، التى يكيدونكم فيها .
وقد وعدكم عند القيام بالتقوى ، أنهم لا يضررونكم شيئاً ، فلا تشكوا
فى حصول ذلك .

﴿١٢١﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٢﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ
وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٣﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ
بِيدْرِ وَاتَّمَّ أَذِلَّةٌ فَأَقْبَوُا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ إِذْ تَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنْ

[وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال] إلى آخر القصة .
وذلك يوم « أحد » حين خرج صلى الله عليه وسلم بالمسلمين ، حين
وصل المشركون - بجمعهم - إلى قريب من « أحد » .
فزلهم صلى الله عليه وسلم منازلهم ، ورتبهم في مقاعدهم ، ونظمهم تنظيماً
عجيباً ، يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في فنون السياسة والحرب ،
كما كان كاملاً في كل المقامات .

[والله سميع عليم] لا يخفى عليه شيء من أموركم .
[إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا] وهم بنو سلمة ، وبنو حارثة .
لكن تولاهما البارئ بلطفه ورعايته ، وتوفيقه .
[وعلى الله فليتوكل المؤمنون] فإنهم إذا توكلوا عليه ، كفاهم وأعانهم ،
وعصمهم من وقوع ما يضرهم ، في دينهم ودنياهم .
وفي هذه الآية ونحوها ، وجوب التوكل وأنه على حسب إيمان العبد ،
يكون توكله .

والتوكل . هو : اعتماد العبد على ربه ، في حصول منافعه ، ودفع مضاره .
فلما ذكر حالهم في « أحد » وما جرى عليهم من المصيبة ، أدخل فيها

الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ
فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ
بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾

تذكيرهم بنصره ، ونعمته عليهم ، يوم « بدر » ليكونوا شاكرين لربهم ،
وليخفف هذا هذا قتال :

[وإذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلة] في عددكم وعددكم ، فكانوا ثلثمائة ،
وبضعة عشر ، في قلة ظهر ، ورثائة سلاح .

وأعداؤهم ، يناهزون الألف ، في كمال العدة والسلاح .

[فاتقوا الله اعلمكم تشكرون] الذي أنعم عليكم بنصره .

[إذ تقول] مبشراً [المؤمنين] مثبتاً لجنانهم :

[ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى

إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا] أى : من حملتهم هذه بهذا
الوجه .

[يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين] أى : معلّمين

علامة الشجعان .

واختلاف الناس ، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة ، مباشرة

للقتال ، كما قاله بعضهم ، أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين ، وإلقاء

الرعب في قلوب المشركين ، كما قاله كثير من المفسرين .

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ

فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾

ويدل عليه قوله [وما جعله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم] ، وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد ، بل يعتمد على الله .

وإنما الأسباب وتوفرها ، فيها طمأنينة للقلوب ، وثبات كل على الخير . [ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين]
أى : نصر الله لعباده المؤمنين ، لا يعدو أن يكون قطعاً لطرف من الكفار .
أو يقلبوا بغضهم ، لم ينالوا خيراً ، كما أرجعهم يوم الخندق ، بعد ما كانوا قد أتوا على حرد قادرين ، أرجعهم الله بغضهم خائبين :

* لما أصيب صلى الله عليه وسلم يوم «أحد» وكسرت رباطه ، وشج في رأسه ، جعل يقول :

كيف يفلح قوم ، شجوا وجه نبيهم ، وكسروا رباطه .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وبين أن الأمر كله لله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس له من الأمر شيء ، لأنه عبد من عبيد الله ، والجميع تحت عبودية ربه ، مدبرون لا مدبرون .

وهؤلاء الذين دعوت عليهم ، أيها الرسول ، أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم ، إن شاء الله تاب عليهم ، ووفتهم للدخول في الإسلام ، وقد فعل ، فإن أكثر أولئك ، هدام الله فأسلموا .

وإن شاء الله عذبهم ، فإنهم ظالمون ، مستحقون لعقوبات الله وعذابه .

وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

يُخْبِرُ تَعَالَى ، أَنَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْعَالَمِ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلَى ، وَأَنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، فَيَغْفِرُ لَهُ ، وَيُخَذِّلُ مَنْ يَشَاءُ ، فَيُعَذِّبُهُ .

[وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] مِنْ صِفَتِهِ الْإِلَازِمَةِ ، كَمَالِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَوُجُودِ مُقْتَضِيَاتِهِمَا فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ ، يَغْفِرُ لِلتَّائِبِينَ ، وَيَرْحَمُ مَنْ قَامَ بِالْأَسْبَابِ الْمَوْجِبَةِ لِلرَّحْمَةِ .

قَالَ تَعَالَى [وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ] .
* تَقْدِمُ فِي مَقْدَمَةِ هَذَا التَّفْسِيرِ ، أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ مِرَاعَاةُ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ .

وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَمَرَهُ بِأَمْرٍ ، وَجِبَ عَلَيْهِ - أَوَّلًا - أَنْ يَعْرِفَ حَدَّهُ ، وَمَا هُوَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ ، لِيَتِمَّ بِذَلِكَ مِنْ امْتِثَالِهِ .

فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ ، اجْتَهِدْ ، وَاسْتَعَانَ بِاللَّهِ عَلَى امْتِثَالِهِ ، فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ ، بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ وَإِمَّاكَانِهِ .

وَكَذَلِكَ إِذَا نَهَى عَنْ أَمْرٍ ، عَرَفَ حَدَّهُ ، وَمَا يَدْخُلُ فِيهِ ، وَمَا لَا يَدْخُلُ ، ثُمَّ اجْتَهِدْ وَاسْتَعَانَ بِرَبِّهِ فِي تَرْكِهِ .

تُرْجَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

وأن هذا ينبغي مراعاته ، في جميع الأوامر الإلهية والنواهي .
[وهذه الآيات الكريمات ، وقد اشتملت على أوامر وخصال من
خصال الخير ، أمر الله بها ، وحث على فعلها ، وأخبر عن جزاء أهلها .
وعلى نواهي ، حث على تركها .

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات ، أثناء قصة «أحد»
أنه قد تقدم أن الله تعالى ، وعد عباده المؤمنين ، أنهم - إذا صبروا ،
واتقوا - نصرهم على أعدائهم ، وخذل الأعداء عنهم كما في قوله تعالى :
[وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً] ثم قال :
[وإن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم]
الآيات .

فكان النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى ، التي يحصل بها
النصر والفلاح ، والسعادة ، فذكر الله في هذه الآيات ، أهم خصال التقوى
التي إذا قام العبد بها ، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى .
ويدل على ما قلنا ، أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ،
ثلاث مرات .

مرة مطلقة وهي قوله [أعدت للمتقين] .
ومرتين مقيدتين فقال [واتقوا الله ، واتقوا النار] .

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ
يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ

فقوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا] كل ما في القرآن من قوله تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا » افعلوا كذا ، أو اتركوا كذا ، يدل على أن
الإيمان ، هو السبب الداعي والموجب لامتنال ذلك الأمر ، واجتناب
ذلك النهي .

لأن الإيمان هو : التصديق الكامل ، بما يجب التصديق به ، المستلزم
لأعمال الجوارح .

فنهاهم عن أكل الربا ، أضعافا مضاعفة ، وذلك هو ما اعتاده أهل
الجاهلية ، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية .

من أنه إذا حل الدين على المعسر ، ولم يحصل منه شيء ، قالوا له :
إما أن تنقضي ما عليك من الدين ، وإما أن تزيد في المدة ، وتزيد
ما في ذمتك .

فيضطر الفقير ، ويستدفع غريمه ، ويلتزم ذلك ، اغتناما لراحته
الحاضرة .

فيزداد - بذلك - ما في ذمته أضعافا مضاعفة ، من غير نفع وانتفاع .
ففي قوله [أضعافا مضاعفة] تنبيه على شدة شناعته بكثرة ، وتنبيه
لحكمة تحريمه .

وأن تحريم الربا ، حكمته : أن الله منع منه ، لما فيه من الظلم .

مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ
الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر ، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة .
فإلزامه بما فوق ذلك ، ظلم متضاعف .

فيتمتعين على المؤمن المتقى ، تركه ، وعدم قربانه ، لأن تركه ، من
موجبات التقوى .

والفلاح ، متوقف على التقوى ، فلهذا قال : [واتقوا الله لعلكم
تفلحون ، واتقوا النار التي أعدت للكافرين] بترك ما يوجب دخولها ،
من الكفر ، والمعاصي ، على اختلاف درجاتها .

فإن المعاصي كلها - وخصوصاً المعاصي الكبار - تجر إلى الكفر ، بل
هي من خصال الكفر ، الذي أعد الله النار لأهله .

فترك المعاصي ، ينجي من النار ، ويقى من سخط الجبار .

وأفعال الخير والطاعة ، توجب رضا الرحمن ، ودخول الجنان ،
وحصول الرحمة ولهذا قال :

[وأطيعوا الله والرسول] بفعل الأوامر وامثالها ، واجتناب النواهي
[لعلكم ترحمون] .

فطاعة الله وطاعة رسوله ، من أسباب حصول الرحمة ، كما قال
تعالى :

[ورحمتي وسعت كل شيء . فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة]
الآيات .

ثم أمرهم تعالى ، بالمسارعة إلى مغفرته ، وإدراك جنته ، التي عرضها السموات والأرض ، فكيف بطولها التي أعدها الله للمتقين ، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها .

ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال : [الذين ينفقون في السراء والضراء]
أى : فى عسرهم ويسرهم .

إن أيسروا ، أكثروا من النفقة .

وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ، ولو قل .

[والكاذمين الغيظ] أى : إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحنق ، الموجب للانتقام بالقول والفعل - هؤلاء لا يعملون بمتنضى الطباع البشرية ، بل يكظمون ما فى القلوب من الغيظ ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم .

[والعافين عن الناس] يدخل فى العفو عن الناس ، العفو عن كل من أساء إليك بقول ، أو فعل .

والعفو أبلغ من الكظم ، لأن العفو ترك المؤاخذة ، مع السماح عن المسيء .

وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتحلى عن الأخلاق الرذيلة ومن تاجر مع الله ، وعفا عن عباد الله ، رحمة بهم ، وإحساناً إليهم ، وكراهة لحصول الشر عليهم ، وليعفو الله عنه ، ويكون أجره على ربه الكريم ، لا على العبد الفقير ، كما قال تعالى [فمن عفا وأصلح فأجره على الله] .
ثم ذكر حالة أعظم من غيرها ، وأحسن ، وأعلى ، وأجل ، وهى الإحسان .

فقال تعالى : [والله يحب المحسنين] والإحسان نوعان .

الإحسان في عبادة الخالق ، والإحسان إلى المخلوق .

فالإحسان في عبادة الخالق ، فسرّها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وأما الإحسان إلى المخلوق ، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم ، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم .

فيدخل في ذلك ، أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليم جاهلهم ، ووعظ غافلهم ، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم ، والسعى في جمع كلمتهم .

وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم ، على اختلاف أحوالهم ، وتباين أوصافهم .

فيدخل في ذلك ، بذل الندي ، وكف الأذى ، واحتمال الأذى ، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات .

فمن قام بهذه الأمور ، فقد قام بحق الله وحق عبده .

ثم ذكر اعتذارهم لربهم ، من جنایاتهم وذنوبهم فقال :

[والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم] أى : صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك ، بادروا إلى التوبة والاستغفار ، وذكروا ربهم ، وما توعدهم به العاصين ، ووعد به المتقين .

فسألوه المغفرة لذنوبهم ، والستر لعيوبهم ، مع إقلاعهم عنها ، وندمهم عليها .

فلهذا قال [ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون] .
[أولئك] الموصوفون بتلك الصفات [جزاؤهم مغفرة من ربهم] تنزيل
عنهم كل محذور .

[وجنات تجري من تحتها الأنهار] فيها من النعيم المقيم ، والبهجة
والحبور والبهاء ، والخير والسرور ، والتصور ، والمنازل الأنيقة العاليات ،
والأشجار المثمرة البهية ، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات .
[خالدين فيها] لا يحولون عنها ، ولا يغيثون بها بدلا ، ولا يغير ما هم
فيه من النعيم .

[ونعم أجر العاملين] عملوا لله قليلا فأجروا كثيرا فـ « عند الصباح
يحمد القوم السرى » وعند الجزاء يمد العامل أجره كاملا موفرا .
وهذه الآيات الكريمات ، من أدلة أهل السنة والجماعة ، على أن
الأعمال تدخل في الإيمان ، خلافا للمرجئة .
وجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية ، التي في سورة الحديد ، نظير هذه
الآيات وهي قوله :

[سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض
أعدت للذين آمنوا بالله ورسله] فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به ورسله ،
وهناك قال [أعدت للمتقين] .

ثم وصف المتقين ، بهذه الأعمال المالية والبدينية .
فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات ، هم أولئك
المؤمنون . ثم قال تعالى : [قد خلت من قبلكم سنن] الآيات .

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

وهذه الآيات الكريمة ، وما بعدها في قصة « أحد » يعزى تعالى ،
عباده المؤمنين ويسليهم ، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم ، امتحنوا ،
وابقى المؤمنون منهم بقتال الكافرين ، فلم يزالوا في مداولة ومجاوله ، حتى
جعل الله العاقبة للمتقين ، والنصر لعباده المؤمنين .
وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين ، وخذلهم الله بنصر رساله ،
وأتباعهم .

[فسيروا في الأرض] بأبدانكم وقلوبكم [فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين] فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين ، بأنواع العقوبات الدنيوية .
قد خوت ديارهم ، وتبين لكل أحد خسارهم ، وذهب عزهم وملكهم ،
وزال بذخهم ونفخهم .
أفليس في هذا ، أعظم دليل ، وأكبر شاهد ، على صدق ما جاءت
به الرسل ؟ !!

وحكمة الله التي يمتحن بها عباده ، ليلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم .
ولهذا قال تعالى : [هذا بيان للناس] أى : دلالة ظاهرة ، تبين للناس
الحق من الباطل ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، وهو الإشارة إلى ما أوقع
الله بالمكذبين .

[وهدى وموعظة للمتقين] لأنهم هم المنتفعون بالآيات .

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ

فتهديهم إلى سبيل الرشاد ، وتعظمهم وتزجرهم ، عن طريق الغي .
وأما باقى الناس ، فهى بيان لهم ، تقوم به عليهم الحجة من الله ، ليهلك
من هلك عن بينة .

ويحتمل أن الإشارة فى قوله [هذا بيان للناس] للقرآن العظيم ، والذكر
الحكيم ، وأنه بيان للناس عموماً ، وهدى وموعظة للمتقين ، خصوصاً ، وكلاً
المعنيين ، حق .

* يقول تعالى : مشجعاً لعباده المؤمنين ، ومقويّاً لعزائمهم ومنهضاً لهممهم :
[ولا تهنوا ولا تحزنوا] أى : ولا تهنوا وتضعفوا ، فى أبدانكم ،
ولا تحزنوا فى قلوبكم ، عند ما أصابتكم المصيبة ، وابتليتكم بهذه البلوى .
فإن الحزن فى القلوب ، والوهن على الأبدان ، زيادة مصيبة عليكم ، وأعون ،
لعدوكم عليكم .

بل شجعوا قلوبكم ، وصبروها ، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على
قتال عدوكم .

وذكر تعالى أنه لا يليق بهم الوهن والحزن ، وهم الأعلون ، فى الإيمان ،
ورجاء نصر الله وثوابه .

فالمؤمن المبتغى ما وعده الله ، من الثواب الدنيوى والأخروى ،
لا ينبغى له ذلك .

ولهذا قال تعالى : [وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين] .
ثم سلامهم بما حصل لهم من الهزيمة ، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك ،
فقال تعالى :

مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ

[إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله] فأنتم وهم ، قد تساويتم في القرح ، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى :
[إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون] .

ومن الحكم في ذلك ، أن هذه الدار ، يعطى الله منها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فيداول الله الأيام بين الناس : يوم لهذه الطائفة ، ويوم للطائفة الأخرى .

لأن هذه الدار الدنيا ، منقضية فانية .

وهذا بخلاف الدار الآخرة ، فإنها خالصة للذين آمنوا .

[وليعلم الله الذين آمنوا] هذا أيضاً من الحكم أنه يتلى الله عباده بالهزيمة والابتلاء ، ليتبين المؤمن من المنافق .

لأنه لو استمر النصر للمؤمنين ، في جميع الوقائع ، لدخل في الإسلام ، من لا يريده .

فإذا حصل في بعض الوقائع ، بعض أنواع الابتلاء ، تبين المؤمن حقيقة ، الذي يرغب في الإسلام ، في الضراء والسراء ، واليسر والعسر ، ممن ليس كذلك .

[ويتخذ منكم شهداء] وهذا أيضاً من بعض الحكم ، لأن الشهادة عند الله ، من أرفع المنازل ، ولا سبيل لنيلها ، إلا بما يحصل من وجود أسبابها .

شُهَدَاءَ ۖ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ

فهذا من رحمته بعباده المؤمنين ، أن قيض لهم من الأسباب ، ما تكرهه
النفوس ، لينيلهم ما يحبون ، من المنازل العالية ، والنعيم المقيم .
[والله لا يحب الظالمين] الذين ظلموا أنفسهم ، وتقاعدوا عن القتال
في سبيله .

« ولو أرادوا الخروج ، لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم
فنبطهم وقيل اقموا مع القاعدین » .
[وليمحص الله الذين آمنوا] وهذا أيضاً من الحكم ، أن الله يحص بذلك
المؤمنين ، من ذنوبهم وعيوبهم .
يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله ، تكفر الذنوب ،
وتزيل العيوب .

ويمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين ، فيخلصون منهم ،
ويعرفون المؤمن من المنافق .
ومن الحكم أيضاً أن يقدر ذلك ، لمححق الكافرين .

أى : ليكون سبباً لمحتمهم واستئصالهم بالعقوبة ، فإنهم إذا انتصروا ،
بغوا ، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم ؛ يستحقون به المعالجة بالعقوبة ، رحمة
بعباده المؤمنين .

ثم قال تعالى : [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مَنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ] هذا استفهام إنكارى .

أى : لا تظنوا ، ولا يخطر ببالكم أن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، من دون مشقة ،
واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته .

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

فإن الجنة ، أعلى المطالب ، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون .
وكما عظم المطلوب ، عظمت وسيلته ، والعمل الموصل إليه .
فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة ، ولا يدرك النعيم ، إلا بترك النعيم .
ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله — عند توطئ
النفس لها ، وتمرينها عليها ، ومعرفة ما تثول إليه تنقلب — عند أرباب
البصائر — منجاً يسرون بها ، ولا يبالون بها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .
ثم وبخهم تعالى ، على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ، ويودون حصوله فقال :
[ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه] وذلك أن كثيراً
من الصحابة رضى الله عنهم من فاته بدر ، كانوا يتمنون أن يحضرهم الله
مشهداً ، يبذلون فيه جهدهم .
قال الله تعالى لهم [فقد رأيتكم] أى : ما تمنيتم بأعينكم [وأنتم تنظرون]
فما بالكم وترك الصبر ؟ هذه حالة لا تليق ، ولا تحسن ، خصوصاً لمن
تمنى ذلك ، وحصل له ما تمنى .

فإن الواجب عليه ، بذل الجهد ، واستفراغ الوسع في ذلك .
وفي هذه الآية ، دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة .
ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيته ، ولم ينكر عليهم .
وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها ، والله أعلم .
ثم قال تعالى : [وما محمد إلا رسول] إلى [وسنجزى الشاكرين] .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٤٤) وَمَا كَانَ

يقول تعالى [وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل] .
 أي . ليس بيدع من الرسل ، بل هو من جنس الرسل الذين قبله .
 وظيفتهم تبليغ رسالة ربهم ، وتنفيذ أوامره .
 ليسوا بمخلدين ، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله .
 بل الواجب على الأمم ، عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال .
 ولهذا قال [أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم] بترك ما جاءكم به ،
 من إيمان أو جهاد ، أو غير ذلك .
 قال الله تعالى [ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً] إنما يضر نفسه .
 وإلا ، فالله تعالى غنى عنه ، وسيقيم دينه ، ويعز عباده المؤمنين .
 فلما وبخ تعالى ، من انقلب على عقبيه ، مدح من ثبت مع رسوله ،
 وامثل أمر ربه فقال [وسيجزي الله الشاكرين] .
 والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى ، في كل حال .
 وفي هذه الآية الكريمة ، إرشاد من الله تعالى لعباده ، أن يكونوا
 بحالة ، لا يزعمهم عن إيمانهم ، أو عن بعض لوازمه ، فقد رئيس ولو عظم .
 وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين ، بعدة أناس
 من أهل الكفاءة فيه ، إذا فقد أحدهم ، قام به غيره .

لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ
الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي
الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

وأن يكون عموم المؤمنين ، قصدهم إقامة دين الله ، والجهاد عنه ،
بحسب الإمكان .

لا يكون لهم قصد ، في رئيس دون رئيس .

فبهذه الحال ، يستتب لهم أمرهم ، وتستقيم أمورهم .

وفي هذه الآية أيضاً ، أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر ، أبي
بكر ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لأنهم هم سادات الشاكرين .

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها ، معلقة بآجالها ، بإذن الله . وقدره
وقضائه .

فمن حتم عليه بالقدر أن يموت ، مات ولو بغير سبب .

ومن أراد بقاءه ، فلو وقع من الأسباب كل سبب ، لم يضره ذلك
قبل بلوغ أجله .

وذلك أن الله قضاءه ، وقدره ، وكتبه إلى أجل مسمى .

« إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون » .

ثم أخبر تعالى ، أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ، ما تعلق
به إراداتهم ، فقال :

وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا
لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

[ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها].
قال الله تعالى [كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء
ربك محظوراً]. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات
وأكبر تفضيلاً].

[وسنجزى الشاكرين] ولم يذكر جزاءهم ، ليدل ذلك على كثرة
وعظمته ، وليعلم أن الجزاء ، على قدر الشكر ، قلة وكثرة ، وحسناً .

* هذا تسلية المؤمنين ، وحث على الاقتداء بهم ، والفعل كفعالهم ،
وأن هذا ، أمر قد كان متقدماً ، لم تزل سنة الله جارية بذلك فقال :
[وكاين من نبي] أى : وكم من نبي [قاتل معه ريشون كثير] .

أى : جماعات كثيرون من أتباعهم ، الذين قد ربّتهم الأنبياء بالإيمان ،
والأعمال الصالحة ، فأصابهم ، قتل وجراح ، وغير ذلك .

[فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا] .
أى : ما ضعفت قلوبهم ، ولا وهنت أبدانهم ، ولا استكانوا .
أى : ذلوا العدوهم .

بل صبروا وثبتوا ، وشجعوا أنفسهم ، ولهذا قال :
[والله يحب الصابرين] .

ثم ذكر قولهم ، واستنصارهم لربهم فقال :

ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

[وما كان قولهم] أى : فى تلك المواطن الصعبة [إلا أن قالوا ربنا
اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا] .

والإسراف هو : مجاوزة الحد ، إلى ما حرم .

علموا أن الذنوب والإسراف ، من أعظم أسباب الخذلان ، وأن
التخلى منها ، من أسباب النصر ، فسألوا ربهم مغفرتها .

ثم إنهم لم يتكلموا على ما بذلوا جهدهم به ، من الصبر ، بل اعتمدوا
على الله ، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين ،
وأن ينصرهم عليهم .

لجمعوا بين الصبر ، وترك ضده ، والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهم .
لا جرم أن الله نصرهم ، وجعل لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة
ولهذا قال :

[فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا] من النصر والظفر والغنيمة .

[وحسن ثواب الآخرة] وهو الفوز برضا ربهم ، والنعيم المقيم ، الذى
قد سلم من جميع المنكدرات .

وما ذاك ، إلا أنهم أحسنوا له الأعمال ، فجازاهم بأحسن الجزاء ،
فهذا قال :

[وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] فى عبادة الخالق ، ومعاملة الخلق .

ومن الإحسان ، أن يفعل عند جهاد الأعداء ، كفعل هؤلاء المؤمنين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْدُّوكُمْ
عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ
الْمَوْلَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا

ثم قال تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا] إلى
[وبئس مثوى الظالمين] .

وهذا نهى من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين ، من المناقين
والمشركين .

فإنهم ، إذا أطاعوهم ، لم يريدوا لهم إلا الشر ، وهم قصدهم ردهم إلى
الكفر ، الذى عاقبته الخيبة والخسران .

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم ، ففيه إخبار لهم بذلك ، وبشارة بأنه
يتولى أمورهم ، باطنه ، ويعصمهم من أنواع الشرور .

وفى ضمن ذلك ، الحث لهم ، على اتخاذه وحده ، ولياً وناصرأ ، من
دون كل أحد .

فن ولاية ونصره لهم ، أنه وعدمه أنه سيلقى فى قلوب أعدائهم من
الكافرين ، الرعب ، وهو الخوف العظيم ، الذى يمنهم من كثير من
مقاصدهم ، وقد فعل تعالى .

وذلك أن المشركين — بعد ما انصرفوا من وقعة «أحد» —
تشااوروا فيما بينهم ، وقالوا :

كيف ننصرف ، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا ، وهزمناهم ؟ ولما
نستأصلهم ؟ فهموا بذلك .

أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى
الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

فَأَلْقَى اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّيبَ ، فَانصَرَفُوا خَائِبِينَ .
ولاشك أن هذا ، من أعظم النصر ، لأنه قد تقدم ، أن نصر الله
لعباده المؤمنين ، لا يخرج عن أحد أمرين :
إما أن يقطع طرفاً من كفروا ، أو يكتبهم فينقلبوا خائبين . وهذا
من الثاني .

ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين فقال :
[بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً] أى : ذلك بسبب ما اتخذوا
من دونه ، من الأنداد والأصنام ، التى اتخذوها ^(١) على حسب أهوائهم
وإرادتهم الفاسدة ، من غير حجة ولا برهان ، وانقطعوا من ولاية
الواحد الرحمن .

فمن ثم ، كان المشرك مرعوباً من المؤمنين ، لا يعتمد على ركن وثيق ،
وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق ، هذا حاله فى الدنيا .
وأما فى الآخرة ، فأشد وأعظم ، ولهذا قال : [ومأواهم النار] .
أى : مستقرهم الذى يأوون إليه وليس لهم عنها خروج .
[وبئس مَثْوًى للظالمين] بسبب ظلمهم وعدوانهم ، صارت النار
مَثْوَاهُمْ .

(١) قوله (اتخذوها) أى : جعلوها آلهة يعبدونها ويتقربون إليها
بأنواع القربات والعبادات واتخاذها وسائط بينهم وبين الله تعالى فى جلب
نفع ودفع ضرر .

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ
إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ
مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُّرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَىٰ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

أى [ولقد صدقكم الله وعده] بالنصر ، فنصركم عليهم ، حتى ولو كم
أكتافهم ، وطفقتم فيهم قتلا ، حتى صرتم سبياً لأنفسكم ، وعوناً لأعدائكم
عليكم .

فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور [وتنازعتم في الأمر]
الذي فيه ترك أمر الله ، بالائتلاف وعدم الاختلاف ، فاختلقتم .
فمن قائل : نقيم في مركزنا ، الذى جعلنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم .
ومن قائل : ما مقامنا فيه ، وقد انهزم العدو ، ولم يبق محذور .
فعصيتم الرسول ، وتركتم أمره [من بعد ما أراكم الله ماتحبون]
وهو انخزال أعدائكم .

لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب ، أعظم من غيره .
فالواجب فى هذه الحال خصوصاً ، وفى غيرها عموماً ، امتثال أمر
الله ورسوله .

[منكم من يريد الدنيا] وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب .

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلُونَّ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَثْبِكُمْ غَمًّا نِّبَمًا لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ

[ومنكم من يريد الآخرة] وهم الذين، لزموا أمر رسول الله ،
وثبتوا حيث أمروا .

[ثم صرفكم عنهم] أى : بعد ما وجدت هذه الأمور منكم ، صرف
الله وجوهكم عنهم ، فصار الوجه لعدوكم ، ابتلاء من الله لكم ، وامتحاناً ،
ليبين المؤمن من الكافر ، والطائع من العاصي ، وليكفر الله عنكم بهذه
المصيبة ، ماصدر منكم فلماذا قال :

[ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين] أى : ذو فضل عظيم
عليهم ، حيث من عليهم بالإسلام ، وهداهم لشرائعه ، وعفا عنهم سيئاتهم ،
وأثابهم على مصيبتهم .

ومن فضله على المؤمنين ، أن لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة ، إلا
كان خيراً لهم .

إن أصابتهم سراء فشكروا ، جازاهم جزاء الشاكرين ، وإن أصابتهم
ضراء فصبروا ، جازاهم جزاء الصابرين .

﴿يَذْكُرُهُمُ تَعَالَىٰ حَالَهُمْ﴾ ، في وقت انهزامهم عن القتال ، ويعاتبهم على
ذلك فقال [إذ تصعدون] أى : تجدون في الهرب ولا تلوون على أحد
أى : لا يلوى أحد منكم على أحد ، ولا ينظر إليه .

بل ليس لكم هم إلا الفرار ، والنجاء من القتال .

مَنْ بَعْدِ أَلَنِّمْ أَمَنَّةً نَعَّاسًا يَنْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجُهَلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مِّنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير.

إذ لستم آخر الناس ، مما يلي الأعداء ، ويباشر الهيحاء .

بل [الرسول يدعوكم في أخراكم] أى : مما يلي القوم يقول :
« إلى عباد الله » .

فلم تلتفتوا إليه ، ولا عرجتم عليه ، فالفرار نفسه ، موجب للوم .

ودعوة الرسول الوجبة لتقديمه على النفس ، أعظم لوما ، بتخلفكم عنها .

[فأتابكم] أى : جازاكم على فعلكم [غما بغم] أى : غما يتبعه غم .

غم بفوات النصر وفوات الغنيمة ، وغم بانهمزامكم ، وغم ، أنساكم

كل غم ، وهو سماعكم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قتل .

ولكن الله — بلطفه ، وحسن نظره لعباده — جعل اجتماع هذه

الأمور لعباده المؤمنين ، خيراً لهم فقال :

[اكسيلا تحزنوا على ما فاتكم] من النصر والظفر .

[ولا ما أصابكم] من الهزيمة والقتل والجراح ، إذا تحققت أن الرسول

صلى الله عليه وسلم لم يقتل ، هانت عليكم تلك المصيبات ، واغتبطتم بوجوده

المسلى عن كل مصيبة ومحنة .

فله ما فى ضمن البلايا والحن ، من الأسرار والحكم .

لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ
فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ

وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم، وبواطنكم.
ولهذا قال : [والله خير بما تعملون] .

ويحتمل أن معنى قوله [اكسبوا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم] .
يعنى : أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم ، لكي تتوطن نفوسكم ،
وتمرنوا على الصبر على المصيبات ، ويخف عليكم تحمل المشقات :
[ثم أنزل عليكم من بعد الغم] الذى أصابكم [أمانة نعاساً يغشى
طائفة منكم] .

ولا شك أن هذا رحمة بهم ، وإحسان وتثبيت لقلوبهم ، وزيادة
طمأنينة .

لأن الخائف لا يأتيه النعاس ، لما فى قلبه من الخوف .
فإذا زال الخوف عن القلب ، أمكن أن يأتيه النعاس .
وهذه الطائفة التى أنعم الله عليها بالنعاس ، هم المؤمنون الذين ليس لهم
إلا إقامة دين الله ، ورضا الله ورسوله ، ومصلحة إخوانهم المسلمين .
وأما الطائفة الأخرى الذين [قد أهتمهم أنفسهم] فليس لهم هم فى غيرها ،
لنفاقهم ، أو ضعف إيمانهم ، فلهذا لم يصبهم من النعاس ، ما أصاب غيرهم
[يقولون : هل لنا من الأمر من شيء] .

وهذا استفهام إنكارى ، أى : مالنا من الأمر أى : النصر
والظهور — شيء .

اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

فأساءوا الظن بربهم ، وبدينه ، وبنبيه ، وظنوا أن الله لا يتم أمر
رسوله ، وأن هذه الهزيمة ، هي الفيصلة والقاضية على دين الله .
قال الله في جوابهم : [قل إن الأمر كله لله] .
الأمر يشمل الأمر القدرى ، والأمر الشرعى .
لجميع الأشياء ، بقضاء الله وقدره ، وعاقبتها ، النصر والظفر لأوليائه ،
وأهل طاعته وإن جرى عليهم ، ما جرى .
[يخفون] يعنى المناققين [فى أنفسهم ما لا يبدون لك] .
ثم بين الأمر الذى يخفونه فقال :
[يقولون لو كان لنا من الأمر شيء] أى : لو كان لنا فى هذه الواقعة
رأى ومشورة [ما قتلنا ههنا] .
وهذا إنكار منهم ، وتكذيب بقدر الله ، وتسفيه منهم لرأى رسول الله ،
ورأى أصحابه ، وتزكية منهم ، لأنفسهم فرد الله عليهم بقوله :
[قل لو كنتم فى بيوتكم] التى هى أبعد شيء عن مظان القتل .
[لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم] .
فالأسباب — وإن عظمت — إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء .
فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً ، بل لا بد أن يمضى الله ما كتب
فى اللوح المحفوظ ، من الموت والحياة .
[وليتلى الله ما فى صدوركم] أى : يختبر ما فيها من نفاق وإيمان
وضعف وإيمان .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجُجَمَانِ إِنَّهُمْ
اسْتَرَزَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥)

[وليمحص ما في قلوبكم] من وساوس الشيطان ، وما تأثر عنها
من الصفات غير الحميدة .

[والله عليم بذات الصدور] أى : بما فيها ، وما أكنته .
فاتقضى علمه وحكمته ، أن قدر من الأسباب ، ما به يظهر مخبئات
الصدور ، وسرائر الأمور .

* يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم « أحد » وما الذى أوجب لهم
الفرار ، وأنه من تسويل الشيطان ، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم .
فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ، ومكنوه بما فعلوا من المعاصى ، لأنها
مركبه ومدخله .

فلو اعتصموا بطاعة ربهم ، لما كان له عليهم من سلطان .

قال تعالى : [إن عبادى ليس لك عليهم سلطان] .

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ما فعلوا ما يوجب المؤاخذة .
وإلا فلو أخذهم ، لاستأصلهم .

[إن الله غفور] للذنبين الخطائين ، بما يوقعهم له من التوبة
والاستغفار ، والمصائب المكفرة .

[حليم] لا يعاجل من عصاه ، بل يستأنى به ، ويدعوه إلى الإنابة
إليه ، والإقبال عليه .

يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غَزَىٰ لَوْ كَانُوا
عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ

ثم إن تاب وأتاب ، قبل منه ، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب ، ولم يصدر عنه عيب . فله الحمد على إحسانه .

* ينهى تعالى عباده المؤمنين ، أن يشابهوا الكافرين ، الذين لا يؤمنون بربهم ، ولا بقضائه وقدره ، من المنافقين وغيرهم .

ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء ، وفي هذا الأمر الخاص — وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب :

[إذا ضربوا في الأرض] أى : سافروا للتجارة [أو كانوا غزى]
أى : غزاة ، ثم جرى عليهم قتل أو موت ، يعارضون القدر ويقولون :
[لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا] وهذا كذب منهم .

فقد قال تعالى : [قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم] .

ولكن هذا التكذيب لم يقدم ، إلا أن الله يجعل هذا القول ، وهذه العقيدة ، حسرة في قلوبهم ، فتزداد مصيبتهم .

وأما المؤمنون ، فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله ، فيؤمنون ويسلمون ، خيهدى الله قلوبهم ، ويثبتها ، ويخفف بذلك ، عنهم المصيبة .

يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ
أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

قال الله ، رداً عليهم [والله يحيي ويميت] أى : هو المنفرد بذلك ، فلا يغنى
حذر عن قدر .

[والله بما تعملون بصير] فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم .

ثم أخبر تعالى أن القتل فى سبيله ، أو الموت فيه ، ليس فيه نقص
ولا محذور .

وإنما هو ، مما ينبغى أن يتنافس فيه المتنافسون ، لأنه سبب مفض ،
وموصل إلى مغفرة الله ورحمته ، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا ، من
دنياهم ، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا ، أو قتلوا بأى حالة كانت ، فإنما مرجعهم
إلى الله ، وما لهم إليه ، فيجازى كلا بعمله .

فأين الفرار إلا إلى الله ، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله ؟ !!

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَآتَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ

أى برحمة الله لك ولأصحابك ، من الله عليك أن ألنت لهم جانبك ،
وخضعت لهم جناحك ، وترققت عليهم ، وحسنت لهم خلقك ، فاجتمعوا
عليك وأحبوك ، وامتثلوا أمرك .

[ولو كنت فظا] أى : سىء الخلق [غليظ القلب] أى : قاسيه ،
[لأنفضوا من حولك] لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء .
فالأخلاق الحسنة من الرئيس فى الدنيا ، تجذب الناس إلى دين الله ،
وترغبهم فيه ، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص .

والأخلاق السيئة من الرئيس فى الدين ، تنفر الناس عن الدين ، وتبغضهم
إليه ، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص .

فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول ، فكيف بغيره .

أليس من أوجب الواجبات ، وأهم المهمات ، الاقتداء بأخلاقه
الكريمة ، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به صلى الله عليه وسلم ، من اللين
وحسن الخلق والتأليف ، امتثالاً لأمر الله ، وجذباً لعباد الله لدين الله .

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير فى حقه ،
صلى الله عليه وسلم ، ويستغفر لهم فى التقصير ، فى حق الله ، فيجمع بين
العفو والإحسان .

[وشاورهم فى الأمر] أى : الأمور التى تحتاج إلى استشارة ،
ونظر ، وفكر .

فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

فإن في الاستشارة من النوائد والمصالح الدينية والدنيوية ، ما لا
يمكن حصره .

منها : أن المشاورة من العبادات المقرب بها إلى الله .

ومنها : أن فيها تسميحاً لخواطرهم ، وإزالة لما يصير في القلوب عند
الحوادث .

فإن من له الأمر على الناس — إذا جمع أهل الرأي والفضل ، وشاورهم
في حادثة من الحوادث — اطمأنات إليه نفوسهم وأحبوه ، وعلموا أنه ليس
يستبد عليهم ، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع .

فبدلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته ، لمعلمهم بسعيه في مصالح العموم .
بخلاف من ليس كذلك ، فإنهم لا يكادون يحبونه بحبة صادقة ،
ولا يطيعونه ، وإن أطاعوه ، فطاعة غير تامة .

ومنها : أن في الاستشارة ، تنور الأفكار ، بسبب إعمالها فيما وضعت
له ، فصار في ذلك زيادة للعقول .

ومنها : ما تنتجه الاستشارة ، من الرأي المصيب ، فإن المشاور لا يكاد
يخطئ في فعله .

وإن أخطأ ، أو لم يتم له مطلوب ، فليس بملوم .

فإذا كان الله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم — وهو أكمل الناس
عقلاً وأعزهم علماً وأفضاهم رأياً — : [وشاورهم في الأمر] فكيف بغيره .

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠)

ثم قال تعالى [فإذا عزمت] أى : على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه ، إن كان يحتاج إلى استشارة .
[فتوكل على الله] أى : اعتمد على حول الله وقوته ، متبرئاً من حولك وقوتك .

[إن الله يحب المتوكلين] عليه ؛ اللاجئين إليه .

☆ أى : إن يمددكم الله بنصره ومعوته [فلا غالب لكم] .

فلو اجتمع عليكم ؛ من فى أقطارها ؛ وما عندهم من العدد والعدد ، لأن الله لا مغالب له ، وقد قهر العباد ، وأخذ بنواصيرهم .
فلا تتحرك دابة إلا بإذنه ، ولا تسكن إلا بإذنه .

[وإن يخذلكم] ويكلسكم إلى أنفسكم [فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟] .

فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق .

وقد ضمن ذلك ، الأمر بالاستنصار بالله ، والاعتماد عليه ، والبراءة من

الحول والقوة .

ولهذا قال [وعلى الله فليتوكل المؤمنون] وتقدم المعمول ، يؤذن بالخصر .

أى : توكلوا على الله ، لا غيره ، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده .

فالاتماد عليه ، توحيد محصل له مقصود .

والاعتماد على غيره ، شرك غير نافع اصحابه ، بل ضار .

وفى هذه الآية ، الأمر بالتوكل على الله وحده ، وأنه بحسب إيمان العبد ،

يكون توكله .

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١) ﴿﴾

الغلول هو : السكتان من الغنيمة ، والخيانة في كل ما يتولاه الإنسان ، وهو محرم إجماعاً ، بل هو من الكبائر ، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص .

فأخبر الله تعالى ، أنه ما ينبغي ، ولا يليق بنبي ، أن يغل .

لأن الغلول — كما علمت — من أعظم الذنوب ، وشر العيوب .

وقد صان الله تعالى أنبياءه ، عن كل ما يندسهم ، ويقدح فيهم ، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً ، وأطهرهم نفوساً ، وأزكاهم وأطيبهم ، ونزههم عن كل عيب ، وجعلهم محل رسالته ، ومعدن حكيمته [الله أعلم حيث يجعل رسالته] .

فبمجرد علم العبد بالواحد منهم ، يحزم بسلامتهم ، من كل أمر يقدح فيهم .

ولا يحتاج إلى دليل ، على فساد ما قيل فيهم ، من أعدائهم ، لأن معرفته بنبوتهم ، تستلزم دفع ذلك ، ولذلك أتى بصيغة ، يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال :

[وما كان لنبي أن يغل] أي : يمتنع ذلك ، ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته .

ثم ذكر الوعيد على من غل فقال : [ومن يغلل يأتي بما غل يوم القيامة] .

﴿١٦٢﴾ أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ
وَمَا أُوْلَهُ جَهَنَّمَ وَبَشَّ الْأَمْصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴿١٦٣﴾

أى : يأت به حامله ^(١) على ظهره ، حيوانا كان ، أو متاعا ، أو غير
ذلك ، يعذب به يوم القيامة .

[ثم توفي كل نفس ما كسبت] الغال وغيره ، كل يوفى أجره ووزره ،
على مقدار كسبه .

[وهم لا يظلمون] أى : لا يزداد فى سيئاتهم ، ولا يهضمون شيئا
من حسناتهم .

وتأمل حسن هذا الاحتراز فى هذه الآية الكريمة .

لما ذكر عقوبة الغال ، وأنه يأتى يوم القيامة بما غله ، ولما أراد أن
يذكر توفيقه وجزائه ، وكان اقتصراره على الغال ، يومهم — بالفهوم — أن
غيره من أنواع العاملين ، قد لا يوفون — أتى بلفظ عام جامع له ولغيره .

* يخبر تعالى ، أنه لا يستوى من كان قصده رضوان الله ، والعمل على
ما يرضيه ، كمن ليس كذلك ، ممن هو مكب على المعاصى ، مسخط لربه .

هذان لا يستويان فى حكم الله ، وحكمة الله ، وفى فطر عباد الله .

[أفمن كان مؤمنا ، كمن فاسقا ، لا يستوون] ولهذا قال :

(١) قوله (حامله) فيه غموض واشتباه ، فالصواب أن يقال حاملا إياه .

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾

[هم درجات عند الله] أى : كل هؤلاء متفاوتون فى درجاتهم ومنازلهم ، بحسب تفاوتهم فى أعمالهم .

فالتبعون لرضوان الله ، يسمعون فى نيل الدرجات العاليات ، والمنازل والغرفات ، فيعطيهن الله من فضله وجوده ، على قدر أعمالهم .

والتبعون لساخط الله ، يسمعون فى النزول فى الدرجات ، إلى أسفل سافلين ، كل على حسب عمله .

والله بصير بأعمالهم ، لا يخفى عليه منها شئ .

بل قد علمها ، وأثبتها فى اللوح المحفوظ ، وملائكته الأمناء الكرام ، أن يكتبوها ويحفظوها ، ويضبطوها .

✽ هذه المنة التى امتن الله بها على عباده ، أكبر النعم ، بل أصلها .

وهى الامتنان عليهم ، بهذا الرسول الكريم ، الذى أقرهم الله به ، من الضلالة ، وعصمهم به ، من الهلكة فقال :

[لقد مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ] يعرفون

نسبه ، وحاله ، ولسانه ، من قومهم وقبيلتهم ، ناصحاً لهم ، مشفقاً عليهم .

[يتلو عليهم آياته] يعلمهم ألفاظها ومعانيها .

[ويزكّيهم] من الشرك ، والمعاصى ، والرذائل ، وسائر مساوئ

الأخلاق .

[ويعلمهم الكتاب] إما جنس الكتاب الذى هو القرآن ، فيكون

قوله [يتلو عليهم آياته] المراد به الآيات الكونية .

مَنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾
﴿١٦٥﴾ أَوَلَمْآ أَصَبْتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّا
هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

أو المراد بالكتاب — هنا — الكتابة ، فيكون قد اتمن عليهم ،
بتعليم الكتاب والكتابة ، التي بها تدرك العلوم وتحفظ .
[والحكمة] هي : السنة ، التي هي شقيقة القرآن ، ووضع الأشياء
مواضعها ، ومعرفة أسرار الشريعة .

فجمع لهم ، بين تعليم الأحكام ، وما به تنفيذ الأحكام ، وما به تدرك
فوائدها وثمراتها ، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة ، جميع المخلوقين ، وكانوا
من العلماء الربانيين .

[وإن كانوا من قبل] بعثة هذا الرسول [لفي ضلال مبين] لا يعرفون
الطريق الموصل إلى ربهم ، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها ، بل ما يزين لهم
جهلهم فعلوه ، ولو ناقض ذلك عقول العالمين .

* هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين ، حين أصابهم ما أصابهم
يوم « أحد » وقتل منهم نحو سبعين ، فقال الله :
إفكم [قد أصبتم] من المشركين [مثلها] فقتلتم سبعين من كبارهم ،
وأسرتم سبعين .

فإيهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم ، مع أنكم لا تستوون ، أنتم وهم .
فإن قتلاكم في الجنة ، وقتلاهم في النار .

وَمَا أَصْبَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجُمُعَانَ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا

[قلم أنى هذا] أى : من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا ؟

[قل هو من عند أنفسكم] حين تنازعتم ، وعصيتم ، من بعدما أراكم
ما تحبون .

فمودا على أنفسكم باللوم ، واحذروا من الأسباب المردية .

[إن الله على كل شيء قدير] فإياكم وسوء الظن بالله ، فإنه قادر
على نصركم .

ولكن له أتم الحكمة ، فى ابتلائكم ، ومصيبتكم .

[ذلك ولو شاء الله ، لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض] .

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان ، جمع المسلمين ، وجمع المشركين
فى « أحد » من القتل والهزيمة ، أنه بإذنه ، وقضائه وقدره ، لا مرد له ،
ولا بد من وقوعه .

والأمر القدرى — إذا نفذ ، لم يبق إلا التسليم له ، وأنه قدره ، لحكم
عظيمة ، وفوائد جسيمة .

وأنه ليتبين بذلك ، المؤمن من المنافق ، الذين لما أمروا بالقتال .

[وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله] أى : ذباً عن دين الله ، وحماية له
وطلباً لرضا الله [أو ادفعوا] عن محارمكم وبلدكم ، إن لم تكن لكم
نية صالحة .

قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعُنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ
لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

فأبوا ذلك واعتذروا بأن [قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم] .
أى : لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال ، لاتبعناكم ، وهم كذبة
في هذا .

قد علموا وتيقنوا ، وعلم كل أحد ، أن هؤلاء المشركين ، قد ملثوا
من الحق والغيظ على المؤمنين ، بما أصابوا منهم ، وأنهم قد بذلوا أموالهم ،
وجمعوا ما يقدرون عليه ، من الرجال والعدد ، وأقبلوا في جيش عظيم
قاصدين المؤمنين في بلدهم ، متحرقين على قتالهم .

فمن كانت هذه حالهم ، كيف يتصور أنه لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال ؟
خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة ، وبرزوا لهم ، هذا من المستحيل .
ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر ، يروج على المؤمنين .

قال تعالى [هم لل كفر يومئذ] أى : في تلك الحال التي تركوا فيها
الخروج مع المؤمنين [أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس
في قلوبهم] .

وهذه خاصة ^(١) المنافقين ، يظهرون بكلامهم وفعالهم ، ما يبطنون صده
في قلوبهم وسرائرهم .

(١) قوله (خاصة) فيه إبهام والأوضح أن يقال (وهذه خاصة
من خصائص المنافقين .

يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ
فَادْرُءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَتَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴿١٦٨﴾

ومنه قولهم [لو نعلم قتالا لاتبعناكم] فإنهم علموا وقوع القتال .

ويستدل بهذه الآية على قاعدة « ارتكاب » ^(١) أخف المفسدين «
لدفع أعلاهما ، وفعل أدنى المصلحتين ، للعجز عن أعلاهما ، لأن المناقين
أمرؤا أن يقاتلوا للدين ، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان .
[والله أعلم بما يكتُمون] فيبيده اعباده المؤمنين ، ويعاقبهم عليه .

(١) قوله (ارتكاب الخ) نص القاعدة الأصولية (ارتكاب أخف
الضررين) الضرران أعم من أن يكونا مفسدين وغير مفسدين ولا يلزم
من الضررين أن يكونا مفسدين لأن الفساد في اصطلاح الشرع أن يكون
منهياً عنه والقاعدة تعنى أعم من هذا ! مثاله : لو أشرفت سفينة على الفرق ،
وكان في طرح المال سلامة للنفوس يطرح في البحر قدر ما يسلمها من الفرق ،
ومنها حبس الأب ، لو امتنع عن الإنفاق على ولده ومنها : التسعير عند
تعدي أرباب الطعام في بيعه بغبن فاحش ومنها بيع الطعام المحتكر ، جبراً
عليه عند الحاجة وامتناعه عن البيع ، دفعاً للضرر العام .

ومن هذه الأمثلة يعلم أن الضرر لا يشترط أن يكون فاسداً شرعاً لذاته
بل قد يكون لعارض .

وللكلام هنا مجال فسيح لا تسمح ببسطه هذه المجالة .

والذى دفعنى إلى ذلك كلمة (المفسدين) التى تخالف رواية القاعدة .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ
عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

ثم قال تعالى [الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا] .
أى : جمعوا بين التغلف عن الجهاد ، وبين الاعتراض والتكذيب
بقضاء الله وقدره . قال الله ردّاً عليهم .
[قل فادرأوا] أى : أذفعا [عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين]
أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا ، لا تقدرون على ذلك ، ولا تستطيعونه .
وفى هذه الآيات ، دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر ،
وخصلة إيمان .

وقد يكون إحداها ، أقرب من الأخرى .
* هذه الآيات الكريمات ، فيها فضل الشهداء ، وكرامتهم ، وما من الله
عليهم به ، من فضله وإحسانه .
وفى ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم ، وتعزيتهم ، وتنشيطهم للقتال
فى سبيل الله ، والتعرض للشهادة فقال :
[ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله] أى : فى جهاد أعداء الدين ،
قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله .
[أمواتاً] أى : لا يخطر ببالك وحسبانك ، أنهم ماتوا وفقدوا ،
وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا ، والتمتع بزهرتها ، الذى يحذر من فواته ،
من جبن عن القتال ، وزهد فى الشهادة .
[بل] قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون .

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

فهم [أحياء عند ربهم] في دار كرامته .

ولفظ « عند ربهم » يقتضى علو درجته ، وقربهم من ربهم .

[يرزقون] من أنواع النعم ، الذى لا يعلم وصفه ، إلا من أنعم به عليهم .

ومع هذا صاروا [فرحين بما آتاهم الله من فضله] أى : مغتبطون بذلك .

وقد قرت به عيونهم ، وفرحت به نفوسهم ، وذلك لحسنه ، وكثرته ، وعظمته ، وكمال اللذة فى الوصول إليه ، وعدم المنقص .

فجمع الله لهم ، بين نعم البدن بالرزق ، ونعم القلب والروح ، بالفرح بما آتاهم من فضله :

قم لهم النعم والسرور ، وجعلوا [يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم] أى : يبشر بعضهم بعضاً ، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم ، وأنهم سينالون ما نالوا .

[ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون] أى : يستبشرون بزوال المحذور عنهم ، وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور .

[يستبشرون بنعمة من الله وفضل] أى : يهنئ بعضهم بعضاً ، بأعظم مهناً به ، وهو : نعمة ربهم ، وفضله ، وإحسانه .

[وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين] بل ينميه ويشكره ، ويزيده من فضله ، مالا يصل إليه سعيهم .

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ

وفي هذه الآيات ، إثبات نعم البرزخ ، وأن الشهداء ، في أعلى مكان عند ربهم .

وفيه تلاقى أرواح أهل الخير ، وزيارة بعضهم بعضاً ، وتبشير بعضهم بعضاً .

* لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من «أحد» إلى المدينة ، ندب أصحابه إلى الخروج فخرجوا — على ما بهم من الجراح — استجابة لله ولرسوله ، فوصلوا إلى «حراء الأسد» ، وجاءهم من جاءهم وقال لهم : [إن الناس قد جمعوا لكم] وهموا باستنصاحكم ، تخويفاً لهم وتهيئاً . فلم يزدكم ذلك ، إلا إيماناً بالله ، واتكالاً عليه .

[وقالوا حسبنا الله] أى : كافينا كل ما أهمنا [ونعم الوكيل] المفوض إليه تدبير عبادته ، والقائم بمصالحهم .

[فاتقوا] أى : رجعوا [بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء] . وجاء الخبر المشركين ، أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم ، وندم من تخلف منهم .

فالتى الله الرعب في قلوبهم ، واستمدروا ، راجعين إلى مكة .

وَفَضِّلْ لَمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ
وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

ورجع المؤمنون ، بنعمة من الله وفضل ، حيث من عليهم بالتوفيق
للخروج بهذه الحالة والانتقال على ربهم ،
ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة .
فسبب إحسانهم بطاعة ربهم ، وتقواهم عن معصيته ، لهم أجر عظيم ،
ثم قال تعالى :

[إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ] أى : إن ترهيب من رهب
من المشركين ، وقال : إنهم جمعوا لكم ، داع من دعاة الشيطان ، يخوف
أولياءه الذين عدم إيمانهم ، أو ضعف .

[فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ] أى : فلا تخافوا المشركين ،
أولياء الشيطان ، فإن نواصيهم بيد الله ، لا يتصرفون إلا بقدره .

بل خافوا الله ، الذى ينصر أولياءه الخائفين إياه ^(١) المستجيبين لدعوته .
وفى هذه الآية ، وجوب الخوف من الله وحده ، وأنه من لوازم الإيمان .

فعلى قدر إيمان العبد ، يكون خوفه من الله .
والخوف المحمود : ما حجز العبد عن محارم الله .

(١) فى الأصل (الخائفين له) والصواب (الخائفين إياه) لأن (خاف)
لا يتعدى باللام ، بل يتعدى بنفسه ، كما قال تعالى (فلا تخافوهم وخافونى
إن كُنتُمْ مؤْمِنِينَ) (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن
يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ

كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على الخلق ، مجتهداً في هدايتهم .
وكان يحزن ، إذا لم يهتدوا ، قال الله تعالى :
[ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر] من شدة رغبتهم فيه وحرصهم
عليه [إنهم لن يضرُوا الله شيئاً] .
فإن الله ناصر دينه ، ومؤيد رسوله ، ومنفذ أمره من دونهم ، فلا تبالم
ولا تحفل بهم .

إنما يضرّون ، ويسعون في ضرر أنفسهم ، بفوات الإيمان في الدنيا ،
وحصول العذاب الأليم في الآخرة ، من هوانهم على الله ، وسقوطهم من
عينه ، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة .
ثوابه ، خذلهم فلم يوفقهم ، لما وفق إليه أوليائه ، ومن أراد به خيراً ،
عدلاً منه وحكمة ، أعلمه بأنهم غير زاكين^(١) على الهدى ، ولا قابلين
للرشاد ، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم .

ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ، ورغبوا فيه ، رغبة

(١) قوله (زاكين الخ) يريد : أن أنفسهم غير طاهرة ولا حريصة
على قبول الهدى والحق فيكون استعمال (زاكين) مجازاً .
[وأنت ترى أن التعبير بكلمة (زاكين) فيه مافية من الغموض فإن
المعاجم كلها متفقة أنها بمعنى طهارة النفوس .

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن
يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

من يذل ما يحب من المال ، في شراء ما يحب من السلع [لن يضرؤا الله
شيئا] بل ضرر فعلهم ، يعود على أنفسهم ، ولهذا قال :

[ولهم عذاب أليم] وكيف يضرؤن الله شيئا ، وهم قد زهدوا أشد
الزهد في الإيمان ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن ؟ ! فالله غنى عنهم .

وقد قيض لدينه من عباده الأبرار الأذكاء سواهم .
وأعد له — ممن ارتضاه لنصرته — أهل البصائر والعقول ، وذوى
الألباب من الرجال الفحول .

قال الله تعالى [قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من
قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا] الآيات .

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّنا مُنْجِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾

﴿إِنَّا مُنْجِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨) ﴿﴾

أى : ولا يظن الذين كفروا برّبهم ، ونابدوا دينه ، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم فى هذه الدنيا ، وعدم استئصالنا لهم ، وإملائنا لهم — خير لأنفسهم ، ومحبة منا لهم .

كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، وإنما ذلك لشر ، يريد الله بهم ، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم ، ولهذا قال :

[إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين] :

فالله تعالى يملى للظالم ، حتى يزداد طغيانه ، ويترادف كفرانه ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

فليحذر الظالمون من الإمهال ، ولا يظنوا ، أن يفتوتوا الكبير المتعال .

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ
يَجْتَبِي مَن رَّسُولُهُ مَن يَشَاءُ فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَاِنْ تُوْمِنُوْا وَتَتَّقُوْا
فَلَكُمْ اَجْرٌ عَظِيْمٌ﴾ (١٧٩)

أى : ما كان فى حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من
الاختلاط ، وعدم التمييز ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من المنافق
والصالح من الكاذب .

ولم يكن فى حكمته أيضاً ، أن يطلع عباده على الغيب الذى يعلمه
من عباده :

فاقتضت حكمته الباهرة ، أن يتولى عباده ، ويفقههم بما به يتميز الخبيث
من الطيب ، من أنواع الابتلاء والامتحان .

فأرسل الله رسوله ، وأمر بطاعتهم ، والانقياد لهم ، والإيمان بهم ،
ووعدهم — على الإيمان والتقوى — الأجر العظيم .

فانقسم الناس — بحسب اتباعهم للرسول — قسمين :

مطيعين وعاصين ، ومؤمنين ومنافقين ، ومسلمين وكافرين .

ليرتب على ذلك الثواب والعقاب ، وليظهر عدله وفضله ،
وحكمته خلقة .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا

أى : ولا يظن الذين يبخلون ، أى : يتمتعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله ، من المال ، والجاه ، والعلم ، وغير ذلك ، مما منحهم الله ، وأحسن إليهم به ، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده ، فبخلوا بذلك ، وأمسكوه ، وضنوا به على عباد الله ، وظنوا أنه خير لهم ، بل هو شر لهم ، فى دينهم ودنياهم ، وعاجلهم وآجلهم ،

[سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة] أى : يجعل ما بخلوا به ، طوقا فى أعناقهم ، يعذبون به كما ورد فى الحديث الصحيح .

« إن البخليل يمثل له ماله يوم القيامة ، شجاعا أقرع ، له زبيبتان يأخذ بالهزميه يقول :

أنا مالك ، أنا كنزك » .

وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداق ذلك ، هذه الآية .

فهؤلاء حسبوا أن يبخلهم ، نافعهم ، ومجد عليهم .

فانقلب عليهم الأمر ، وصار من أعظم مضارهم ، وسبب عقابهم .

[والله ميراث السموات والأرض] أى : هو تعالى ، مالك الملك ، وترد جميع الأملاك إلى مالِكها ، وينقلب العباد من الدنيا ، ما معهم درهم ولا دينار ، ولا غير ذلك من المال .

بِهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

قال تعالى [إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون] .
وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد ،
منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله .
أخير أولاً : أن الذي عنده وفي يده ، فضل من الله ونعمة ، ليس
ملكاً للعبد .

بل لولا فضل الله عليه وإحسانه ، لم يصل إليه منه شيء .
فمنعه ذلك ، منع لفضل الله وإحسانه .
ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى [وأحسن كما
أحسن الله إليك] .
فمن تحقق أن ما بيده ، هو فضل من الله ، لم يمنع الفضل الذي لا يضره ،
بل ينفعه في قلبه وماله ، وزيادة إيمانه ، وحفظه من الآفات .
ثم ذكر ثانياً أن هذا الذي بيد العباد كله ، يرجع إلى الله ، ويرثه
تعالى ، وهو خير الوارثين .

فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك ، منتقل إلى غيرك .
ثم ذكر ثالثاً ، السبب الجزائي فقال [والله بما تعملون خبير] .
فإذا كان خيراً بأعمالكم جميعاً — ويستلزم ذلك ، الجزاء الحسن ، على
الخيرات ، والعقوبات على الشر — لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

إيمان ، عن الإنفاق الذى يحزى به الثواب ، ولا يرضى بالإمساك ، الذى به العقاب .

* يخبر تعالى ، عن قول هؤلاء المتمردين ، الذين قالوا أقبح المقالة ، وأشنعها ، وأسمجها .

فأخبر أنه قد سمع ما قالوه ، وأنه سيكتبه ويحفظه ، مع أفعالهم الشنيعة ، وهو : قتلهم الأنبياء الناصحين ، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة ، وأنه يقال لهم — بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء — [ذوقوا عذاب الحريق] المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة ، وأن عذابهم ليس ظاهرا من الله لهم فإنه [ليس بظلام للعبيد] فإنه منزّه عن ذلك

وإنما [ذلك بما قدمت أيديهم] من المخازى والقبائح ، التى أوجبت استحقاقهم العذاب ، وحرمانهم الثواب .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية ، نزلت فى قوم من اليهود ، تسلموا بذلك .

وذكروا منهم « فتاح بن عازوراء » من رؤساء علماء اليهود فى المدينة .

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي

وأنه لما سمع قول الله تعالى [من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا] [وأقرضوا الله قرضا حسنا] قال — على وجه التكبر والتجروء ^(١) هذه المقالة ، قبجه الله .

فذكرها الله عنهم ، وأخبر أنه ليس بيدع من شنائعهم ، بل قد سبق لهم من الشنائع ، ماهو نظير ذلك ، وهو : قتلهم الأنبياء بغير حق . هذا القيد يراد به ، أنهم تجرأوا على قتلهم ، مع علمهم بشناعته ، لا جهلا وضلالا ، بل تمرداً وعناداً .

* يخبر تعالى عن حال هؤلاء المقتربين القائلين [إن الله عهد إلينا] أى : تقدم إلينا ، وأوصى ، أن لا نؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار .

فجمعوا بين الكذب على الله ، وحصر آية الرسل بما قالوه ، من هذا الإفك المبين .

وأنهم إن لم يؤمنوا برسول ، لم يأتهم بقربان تأكله النار . فهم — فى ذلك — مطيعون لربهم ، ملتزمون وعهده . وقد علم أن كل رسول يرسله الله ، يؤيده من الآيات والبراهين ، بما

(١) فى الأصل (والتجروء) ولم أجد معنى هذه الكلمة فى المعاجم وأعلمها تحريف ولذلك أبدلتها بكلمة (والتجروء) لأن المقام يقتضى ذلك .

بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

على مثله آمن البشر ، ولم يقصرها على مآثله ، ومع هذا ، فقد قالوا ، إفكا
لم يلتزموه ، وباطلا لم يعملوا به .

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم :

[قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات] الدلات على صدقهم [وبالذى
قلم] بأن أناكم بقربان تأكله النار [فلم قتلتموهم إِنْ كنتم صادقين ؟] .
أى : فى دعواكم الإيمان برسول يأتىكم بقربان تأكله النار .

فقد تبين بهذا كذبهم ، وعنادهم ، وتناقضهم .

ثم بشر رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : [فإن كذبوك فقد كذب
رسل من قبلك] .

أى : هذه عادة الظالمين ، ودأبهم ، الكفر بالله ، وتكذيب
رسل الله .

وليس تكذيبهم لرسل الله ، عن تصور بما أتوا به ، أو عدم
تبين حجة .

بل قد [جاءوا بالبينات] أى : الحجج العقلية ، والبراهين النقلية .

[والزبر] أى : الكتب المزبورة ، المنزلة من السماء ، التى لا يمكن
أن يأتى بها غير الرسل .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا أَحْيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١٨٥)

[والكتاب المنير] للأحكام الشرعية ، وبيان ما اشتملت عليه من
الحاسن العقلية ، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة .

فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسول ، الذين هذا وصفهم .

فلا يحزنك أمرهم ، ولا يهملك شأنهم .

ثم قال تعالى : [كل نفس ذائقة الموت] الآية .

✽ هذه الآية السكرية ، فيها التزهيد في الدنيا بفنائها ، وعدم بقائها ،
وأنها متاع الغرور ، تنقن بزخرفها ، وتخضع بغرورها ، وتغر بمحاسنها .

ثم هي منتقلة ، ومنقل عنها ، إلى دار القرار ، التي توفي فيها النفوس ،
مأملت في هذه الدار ، من خير ، وشر .

[فمن زحزح] أى : أخرج [عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز] .

أى : حصل له الفوز العظيم ، بالنجاة من العذاب الأليم ، والوصول
إلى جنات النعيم ، التي فيها ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر
على قلب بشر .

ومفهوم الآية ، أن من لم يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فإنه لم
يفز ، بل قد شقى الشقاء الأبدى ، وابتلى بالعذاب السرمدى .

وفي هذه الآية ، إشارة لطيفة ، إلى نعيم البرزخ وعذابه ، وأن العاملين

﴿وَلْتَسْمَعْنَ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ
تَضَرَّبُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦)

يجزون فيه بعض الجزاء ، مما عملوه ، ويقدم لهم أمثلة مما أسلفوه .
يفهم هذا من قوله [وإنا ما توفون أجوركم يوم القيامة] أى : توفية
الأعمال التامة ، إنا ما يكون يوم القيامة .
وأما ما دون ذلك ، فيكون فى البرزخ .
بل قد يكون قبل ذلك فى الدنيا كقوله [ولنذيقنهم من العذاب
الأدنى دون العذاب الأكبر] .

* يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين ، أنهم سيبتلون فى أموالهم ، من النفقات
الواجبة والمستحبة ، من التعريض لإتلافها ، فى سبيل الله ، وفى أنفسهم
من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة ، على كثير من الناس ، كالجهاد فى
سبيل الله ، والتعرض فيه للتعب ، والقتل ، والأسر ، والجراح ، وكالأمراض
التي تصيبه فى نفسه ، أو فيمن يحب .

[ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا
أذى كثيراً] من الطعن فيكم ، وفى دينكم ، وكتابكم ، ورسولكم .

وفى إخباره لعباده المؤمنين بذلك ، عدة فوائد .

منها : أن حكمته تعالى ، تقتضى ذلك ، ليميز المؤمن الصادق من غيره .
ومنها : أنه تعالى ، يقدر عليهم هذه الأمور ، لما يريد بهم من الخير

ليعمل درجاتهم ، ويكفر من سيئاتهم ، وليزداد بذلك ، إيمانهم ، ويتم به إيقانهم .

فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر [قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما] .

ومنها : أنه أخبرهم بذلك ، لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك ، والصبر عليه إذا وقع .

لأنهم قد استعدوا لوقوعه ، فيهنون عليهم حمده ، وتحف عليهم مؤنته ويلجأون إلى الصبر والتقوى ، ولهذا قال :

[وإن تصبروا وتتقوا] أى : إن تصبروا على ما نالكم فى أموالكم وأنفسكم ، من الابتلاء ، والامتحان ، وعلى أذى الظالمين ، وتيقوا الله فى ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله ، والتقرب إليه ، ولم تتعدوا فى صبركم ، الحد الشرعى من الصبر فى موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال ، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله .

[فإن ذلك من عزم الأمور] أى : من الأمور التى يعزم عليها ، وينافس فيها ، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى .

[وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم] .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا

الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد .

وهذا الميثاق أخذه الله تعالى ، على كل من أعطاه الله الكتب ،
وعلمه العلم ، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله ، ولا يكتُمهم
ذلك ، ويبخل عليهم به ، خصوصاً إذا سألوه ، أو وقع ما يوجب ذلك .
فإن كل من عنده علم ، يجب عليه في تلك الحال ، أن يبينه ، ويوضح
الحق من الباطل .

فأما الموفقون ، فقاموا بهذا أتم القيام ، وعلموا الناس مما علمهم الله ،
ابتغاء مرضاة ربهم ، وشفقة على الخلق ، وخوفاً من إثم الكتمان .
وأما الذين أوتوا الكتاب ، من اليهود والنصارى ، ومن شابههم ،
فنبذوا هذه العهود والمواثيق ، وراء ظهورهم ، فلم يعبأوا بها .

فكتموا الحق ، وأظهروا الباطل ، تجرؤاً على محارم الله ، وتهاوناً
بحقوقه تعالى ، وحقوق الخلق ، واشتروا بذلك الكتمان ، ثمناً قليلاً .
وهو : ما يحصل لهم إن حصل ، من بعض الرياسات ، والأموال الخفية ،
من سفلتهم المتبعين أهواءهم ، المقدمين شهواتهم على الحق .

[فبئس ما يشترون] لأنه أخس العوض ، والذي رغبوا عنه — وهو
بيان الحق ، الذي فيه السعادة الأبدية ، والمصالح الدينية والدنيوية —
أعظم المطالب وأجلها .

أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ
الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

فلم يختاروا الدين الخسيس ويتركوا العالى النفيس ، إلا لسوء حظهم ،
وهوانهم ، وكونهم لا يصاحون لغير ما خلقوا له .

ثم قال تعالى [لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا] أى : من القبائح ،
والباطل القولى والفعلى .

[ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا] أى : بالخير الذى لم يفعلوه ، والحق
الذى لم يقولوه .

فجمعوا بين فعل الشر وقوله ، والفرح بذلك ، ومحبة أن يحمدا على
فعل الخير الذى ما فعلوه .

[فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب] أى : بحمل نجوة منه وسلامة ،
بل قد استحقوه ، وسيصيرون إليه ، ولهذا قال [ولهم عذاب أليم] .

ويدخل فى هذه الآية الكريمة ، أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم
من العلم ، ولم ينقادوا للرسول ، وزعموا أنهم ، المحقون فى حالهم ومقالمهم .

وكذلك كل من ابتدع بدعة ، قولية أو فعلية ، وفرح بها ، ودعا
إليها ، وزعم أنه محق وغيره مبطل ، كما هو الواقع من أهل البدع .

ودلت الآية بمفهومها ، على أن من أحب أن يحمد ويشنى عليه بما فعله
من الخير ، واتباع الحق ، إذا لم يكن قصده بذلك ، الرياء والسمعة ، أنه
غير مذموم .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

بل هذا من الأمور المطلوبة ، التي أخبر الله أنه يجزى بها المحسنين ،
في الأعمال والأقوال ، وأنه جازى بها خواص خلقه ، وسألوها منه .

كما قال إبراهيم عليه السلام [واجعل لى لسان صدق فى الآخرين] .

وقال [سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزي المحسنين] .

وقد قال عباد الرحمن [واجعلنا للمتقين إماماً] وهى من نعم البارى على
عبده ، ومننه التى تحتاج إلى الشكر .

* أى : هو المالك للسموات والأرض وما فىهما ، من سائر أصناف

الخلق ، المتصرف فىهم ، بكل القدرة ، وبديع الصنعة ، فلا يمتنع عليه
منهم أحد ، ولا يعجزه أحد .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

يخبر تعالى [إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب] .

وفي ضمن ذلك ، حث العباد على التفكير فيها ، والتبصر بآياتها ، وتدبر خلقها .

وأبهم قوله [آيات] ولم يقل « على المطلب الفلاني » إشارة لكثرتها وعمومها .

وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ، ما يبهر الناظرين ، ويقنع المتفكرين ، ويجذب أفئدة الصادقين ، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية .

فأما تفصيل ما اشتملت عليه ، فلا يمكن مخلوقاً أن يحصره ، ويحيط ببعضه . وفي الجملة ، فما فيها من العظمة والسعة ، وانتظام السير والحركة ، يدل على عظمة خالقها ، وعظمة سلطانه وشمول قدرته

وما فيها ، من الإحكام ، والإتقان ، وبديع الصنع ، ولطائف الفعل ، يدل على حكمة الله ، ووضعه الأشياء مواضعها ، وسعة علمه .

وما فيها من المنافع للخلق ، يدل على سعة رحمة الله ، وعموم فضله ، وشمول بره ووجوب شكره .

وكل ذلك ، يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها ، وبذل الجهد

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا
إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾
رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا

في مرضاته ، وأن لا يشرك به سواه ، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره ، مقال
ذرة في الأرض ولا في السماء .

وخص الله بالآيات ، أولى الألباب ، وهم : أهل العقول ، لأنهم ، هم
المتفكرون بها ، الناظرون إليها بعقولهم ، لا بأبصارهم .

ثم وصف أولى الألباب بأنهم [يذكرون الله] في جميع أحوالهم ^(١)

(١) قوله (في جميع أحوالهم) إيضاح ذلك أن يذكر المؤمن
ربه في جميع أحواله وأحواله : منحصرة في ثلاث ، القيام ،
والتعود والاضطجاع ، فالله تعالى ، امتدح المؤمنين الذين يذكرونه
بالتسبيح والتحميد والتهليل في جميع حالاتهم من قيام وقعود واضطجاع
ولم يفرض الله على عباده هيئة خاصة لذكره بأنواع الأذكار ولا طهارة خاصة
من وصوء وغسل ، بل ندب إليه ورغب فيه في جميع الأحوال ، ومن نعم
الله على عباده أن جعل آلة الذكر — الذي هو اللسان — عضواً لا يعتريه
الملل ولا يصيبه التعب كبقية الجوارح فإن المرء تتعب يده بحمل شيء مهما
كان خفيفاً وينقله من يد إلى أخرى وأما اللسان فليس كذلك ، فذلك
أخبر الرسول أن خير حالات المرء أن يكون لسانه رطباً من ذكر الله وأن
أفضل حالته عند فراقه هذه الدنيا ، أن يفارقها ولسانه رطب من ذكر الله .

فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾
 رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ
 لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

[قياماً وقموداً وعلى جنوبهم] ، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب .
 ويدخل في ذلك ، الصلاة قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع ، فعلى جنب .
 وأنهم [يتفكرون في خلق السموات والأرض] أى : ليستدلوا بها على المقصود منها :
 ودل هذا ، على أن التفكر عبادة ، من صفات أولياء الله العارفين .
 فإذا تفكروا بها ، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون .
 [ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك] عن كل ما لا يليق بجلالك ،
 بالحق وللحق ، بل خلقتها مشتملة على الحق .
 [فقنا عذاب النار] بأن تعصمنا من السيئات ، وتوفقنا للأعمال
 الصالحات ، لننال بذلك ، النجاة من النار .
 ويتضمن ذلك ، سؤال الجنة ، لأنهم — إذا وقاهم الله عذاب النار —
 حصلت لهم الجنة .

ولكن لما قام الخوف بقلوبهم ، دعوا الله بأهم الأمور عندهم .
 [ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته] أى : لحصوله على السخط
 من الله ، ومن ملائكته وأوليائه ، ووقوع الفضيحة ، التي لا نجاة منها ،
 ولا منقذ منها .

ولهذا قال : [وما للظالمين من أنصار] يتخذونهم من عذابه .
وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم .

[ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان] وهو محمد صلى الله عليه وسلم ،
يدعو الناس إليه ، ويرغبهم فيه ، في أصوله وفروعه .
[فآمنا] أى : أجبناه مبادرة ، وسارعنا إليه .

وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم ، وتبجح بنعمته ، وتوسل إليه
بذلك ، أن يغفر ذنوبهم ويكثر سيئاتهم ، لأن الحسنات يذهبن السيئات .
والذى من عليهم بالإيمان ، يمن عليهم بالأمان التام .

[وتوفنا مع الأبرار] يتضمن هذا الدعاء ، التوفيق لفعل الخير ،
وترك الشر ، الذى به يكون العبد من الأبرار ، والاستمرار عليه ، والثبات
إلى الممات .

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان ، وتوسلهم به إلى تمام النعمة —
سألوه الثواب على ذلك ، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله ،
من النصر ، والظهور فى الدنيا ، ومن الفوز برضوان الله وجنته ، فى الآخرة
فإنه تعالى ، لا يخلف الميعاد ، فأجاب الله دعاءهم ، وقبل تضرعهم .

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ
مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتْلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَا دُخِلَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (١٩٥)

فهذا قال : [فاستجاب لهم ربهم] الآية .
أى : أجاز الله دعاءهم ، دعاء العبادة ، ودعاء الطلب وقال :
[أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنى] .
فالجميع سيلة ثواب أعمالهم كاملاً موفراً .
أى : كلكم على حد سواء فى الثواب والعقاب .
[فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأذوا فى سبيلى وقتلوا وقتلوا] .
فجمعوا بين الإيمان والهجرة ، ومفارقة المحبوبات ، من الأوطان ،
والأموال ، طلباً لمرضاة ربهم ، وجاهدوا فى سبيل الله .
لأن كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً
من عند الله [الذى يعطى عبده الثواب الجزيل ، على العمل القليل] .
[والله عنده حسن الثواب] مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،
ولا خطر على قلب بشر .
فمن أراد ذلك ، فليطلبه من الله بطاعته ، والتقرب إليه ، بما يقدر
عليه العبد .

﴿لَا يُغْنِيكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٩٦)
 مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا
 رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ
 عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

وهذه الآية ، المقصود منها ، التسلية عما يحصل للذين كفروا ، من متاع
 الدنيا ، وتنعمهم فيها ، وتقلبهم في البلاد ، بأنواع التجارات ، والمكاسب ،
 واللذات ، وأنواع العز ، والغلبة في بعض الأوقات ، فإن هذا كله [متاع
 قليل] ليس له ثبوت ولا بقاء ، بل يتمتعون به قليلا ، ويعذبون عليه طويلا ،
 هذه أعلى حالة تكون للكافر ، وقد رأيت ما تنول إليه .

وأما المتقون لربهم ، المؤمنون به — فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا
 ونعيمها [لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها] .

تلقوا قدر أنهم في دار الدنيا ، قد حصل لهم كل بؤس ، وشدة ، وعناد ،
 ومنقة — لكان هذا — بالنسبة إلى النعيم المقيم ، والعيش السليم ، والسرور
 والحبور ، والبهجة — نزرأ سيرا ، ومنعة في صورة محنة ، ولهذا قال تعالى :

[وما عند الله خير للأبرار] وهم الذين برت قلوبهم ، فبرت
 أقوالهم وأفعالهم .

فأثابهم البر الرحيم من بره ، أجراً عظيماً ، وعطاء جسيماً ، وفوزاً دائماً .

وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

أى : وإن من أهل الكتاب ، طائفة موفقة للخير ، يؤمنون بالله ، ويؤمنون بما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم . وهذا هو الإيمان النافع ، لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب ، ويكفر ببعض .

ولهذا — لما كان إيمانهم عاماً حقيقياً — صار نافعا ، فأحدث لهم خشية الله ، وخضوعهم لجلاله ، الموجب للاقتياد لأوامره ونواهيه ، والوقوف عند حدوده .

وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة ، كما قال تعالى :
[إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] .

ومن تمام خشيتهم لله ، أنهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً . فلا يقدمون الدنيا على الدين ، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً .

وأما هؤلاء ، فعرفوا الأمر على الحقيقة ، وعلموا أن من أعظم الخسران ، الرضا بالدون عن الدين ، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية ، وترك الحق ، الذى هو : أكبر حظ وفوز ، من الدنيا والآخرة فأثروا الحق ، وبينوه ، ودعوا إليه ، وحذروا عن الباطل .

فأثابهم الله على ذلك ، بأن وعدهم الأجر الجزيل ، والثواب الجليل .

الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصَابُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

وأخبرهم بقربه ، وأنه سريع الحساب ، فلا يستبطئوا ما وعدهم الله .
لأن ما هو آت ، محقق حصوله ، فهو قريب .

ثم حض المؤمنين ، على ما يوصاهم إلى الفلاح — وهو : النوز بالسعادة
والنجاح ، وأن الطريق الموصول إلى ذلك ، لزوم الصبر ، الذى هو حبس
النفس على ما تكرهه ، من ترك المعاصى ، ومن الصبر على المصائب ، وعلى
الأوامر الثقيلة على النفوس ، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك .

والمصابرة هى : الملازمة والاستمرار على ذلك ، على الدوام ، ومقاومة
الأعداء فى جميع الأحوال .

والمرابطة وهو : لزوم الحل الذى يخاف من وصول العدو منه ، وأن
يراقبوا أعداءهم ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم ، لعلهم يفلحون :
يفوزون بالحبوب الدينية والدينى والأخروى ، وينجون من المسكروه كذلك .

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة
للمذكورات .

فلم يفلح من أفلاح ، إلا بها ، ولم يفت أحد ، الفلاح إلا بالإخلال بها
أو ببعضها .

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به .

تم تفسير «سورة آل عمران» ، والحمد لله على نعمته ، ونسأله تمام النعمة .

تم الجزء الأول من (تيسير الرحيم الرحمن ، في تفسير القرآن)
عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
ويليه الجزء الثاني وأوله تفسير « سورة النساء »
والحمد لله رب العالمين

فهرس

الجزء الأول

صفحة	
٣	مقدمة الناشر
٥	ترجمة المؤلف
٨	مصنفات المؤلف
١٠	تنبيه عن طريقة المؤلف في هذا التفسير
١١	مقدمة المؤلف
١٥	فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن ، من (بديع القوائد)
٣٣	تفسير سورة الفاتحة
٣٩	تفسير سورة البقرة
١٥٥	الجزء الثاني من كتاب الله [سيقول السفهاء من الناس]
٣١٠	الجزء الثالث من كتاب الله [تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض]
٣٥٥	تفسير سورة آل عمران
٤٠١	الجزء الرابع من كتاب الله [كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل]